بائع الجريمة

إلى أن يتــم التحــقُّق مِن الهُويــة

بائع الجريمة

د. أحمـد مـدين

رواية

مراجعة لغوية: مها سيد

غلاف: محمد مجاهد

إخراج فني: سالم عبدالمعز سواح

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتبـاس أو تقليـد أو إعادة طبـع أو نشـر دون موافقة كتابيـة، يُعرِّض صاحبه للمساءَلة القانونيـة.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمـادة الـواردة في الكتـاب فهي خاصـة بالكـاتب فقط لا غير.

إبهار للنشر والتوزيع

+20 109 919 7450

Info@ebharbook.com
www.Ebharbook.com

Strand block - Abdein square
down town - Cairo - Egypt.

بائع الجريمة

إلى أن يتـم التحـقُّق مِن الهُويـة

رواية

د. أحمد مـدين

إهداءٌ خاصٌ

زوجتي الحبيبة مِنة الله مَن كانت مِنة من الله،
مَن تحملت حماقاتي وسذاجتي،
وابنتي الغالية سيلا، قُبلة الدنيا لي إلى الأبد.
د. خـالد مدين
عمي مَن صنع مني رجلًا قبل أن يزرع في قرارة نفسي أبلغ الصفات السامية،
أبي وأمي، رحمهما الله وأسكنهما الفردوس الأعلى،
أبي وأمي الأُخريان مَن عوضني بهما الله.
تحياتي الغالية إلى أساتذتي مَن أجد منهم الدعم الحقيقي
وسأظل مَدينًا لهم إلى الأبد.
أ . شريف عارف، الصحفي الكبير والروائي القدير.
أ . ثروت محمد، الصحفي الكبير .
أ . يسري البدري، مساعد رئيس التحرير بجريدة المصري اليوم.
أ . مـاهر حسن، الشاعر والفنان مسئول الثقافة بجريدة المصري اليوم.
أ . أكرم عبد الرحيم، مسئول المحافظات بجريدة المصري اليوم.
أ . حسن شرباش، أول مَن صحَّح لي نصًا.
أصدقائي جميعًا .. دون استثناء.
إخوتي، أقاربي، وأهلي المُقربين والأقربين.

كانون الأول / ٢٠٢٤

"تِخسـَر"

هكذا ألقاها بدهـاءٍ عتيدٍ دون وعيٍ منه، تعوَّد عليها فمه؛ فسَال لُعابه بها دائمًا، تصبَّغت خلاياه بمعانيها الرديئة، وشُلَّ وعيه عليها، فظلَّت أمام عينيه -مقولته-بَندُولًا يداعب أفكاره، يُزحزح ما تراءى له من أفكارٍ، ينهش حواشيه المتآكلة. يجلس وحيدًا كما اعتاد من صباه، لا يلوذ سوى بالأيام القاحِلة، يسري بطيفها في الممرات المُظلمة، لا يعلم في أيٍّ منها يأتيه أفضلها، أم تُرى .. أذهب أفضلها حقًّا منذ زمنٍ سحيق؟

مضى صامتًا أهتَم، لا حياة تعتريه، رَكَمَ الشوك حلقه، إن ابتلعه سيذُق الموت، وإن لفظه فالجُرح قائمٌ. لم يحد نظره عن عتَبته، رمى بصره قبل أن يتحسس ندبته، هو كذلك دائمًا، تعايش مع الخوف بعد أن سمح له سحق خواطره كل بضع ثوانٍ أمَّا القلق فقرينه، والتيه هيئته، والشرود مسكنه.

***

التَم الشمل مُتأخرًا كعادته، الساعة الآن تداعب المُنتصف بعد الثانية صباحًا، بطون الجفون مُتشحة بطبيعتها بالسواد المُظلل لكليهما، ألقى"الجوكر" أرضًا ثم استدار فجأةً تجاه الجالس نائمًا خلفه وهزَّه في حزمٍ بليغٍ:

- صحصَح يا روح أمك، ورانا شغل.

وبِفَمٍ أذابه المُخدر حتى استجلب انفلات الأعصاب أجاب:

- أنا صاحي يا عز، بس مريح.

أجابه بنفس قدرة الحزم السابقة دون نقصانٍ أو امتلاءٍ:

- مفيش حد هيريح، الموضوع هينتهي الليلة .. قبل القمر ما يفِر.

سُحب الليالي العَابرة تمُر الآن بثقلٍ تُخفي ضوء القمر الخافت، ربما الغيوم تُحاصره في أسى، وتستعجل الخروج الآمن من تلك الليلة دون خرير المياه المُنهملة، وعودٌ زائفةٌ يقضيها الليل في جدالٍ دون جدوى، ذنوب البشر تهفو، لن يغسِلها ذلك الخرير الغانِي، في موعدٍ مُقدرٍ أتت في مشيتها -المُتعرجة المُفتعلة- مفتُونة تُسابق نصيبها، تقترب دقيقتها من اللَحاق بها، تلهَث وراءها كالريح الغادِر الذي يقتلع ولا يهدأ، لتَهنأ بما تمنَّاها؛ إذ يفصلها عن الراحة خمس طعناتٍ، ستُقضى وتنقضي معها إلى الأبد.

- أنا عارف هي بتمِد ليه.

- هتموت .. هتموت .. نصيب بيصيب.

- أُقفي بقى .. فرهدتينا يا بنت الرافضي.

- مِد إنت وراها وأنا الحاجز.

نظرت خلفها لتستبِق بابها، أعاقها وقْع ارتطام السكين المُتغلغل جوار قلبها، لم تُسعفها حبال صوتها فألحَقها الخيَّاش بحبلٍ مجدولٍ جوت تِلم .. لم تفلِته، فصفى ما تبقى من صوتٍ منها، كانت تنوي استخدامه في إنهاء الرقصة. فشل الليل في جداله حيال الأمر، انهملت المياه المُسربلة بدماء مفتونة؛ غطَّت بثور الوجه، أذابت من عينيها رحيق البقاء، وازرورُقت قسماتها، قبل أن تجف ذرات الخوف المُرتعدة أعلى وجنتيها، ويجف حلقها

ويتحجَّر وتمضي في سُباتٍ أخيرٍ لتنفرط المَسبحة؛ فتنفلت من يدها وتغوص في الطين المُوحل ثم تندس أسفله.

* * *

يهفو بُخارها يضرب صفحتي الهواء في كمَدٍ عنيدٍ، وجهها لم يستسلم لِلطمات الحياة، تلك العنيدة ذات الملعقة ونصفٍ من الجوهر المضيء، مَن تُصلح ركود الحياة وتستوجب الإفاقة، وتُعيق الزمن، وتُبطل سحر الخلود، جاءته على استحياءٍ كامل بتمرُّد رفيع وبليُونةٍ عذريةٍ مُباحة، ارتشف منها بِفمٍ مُثقلٍ بالكلام، يمضُغ الأسئلة وتستعجل وجودها هائمةً بين حقائق لم تفِر مثلما فرَّ القمر، كما اعتاد دائمًا، يكسو كُرسيه ذو القواعد الرَّان والمقعدة الأريحية الإسفنجية واليدين العالِقتين ككُرسي العرش المُهلك لقاطنيه، يسكنه نشوى لا تضر إلَّا مَن ذاق الحرمان، فبأي آلاء تكذبان، انتظر هائمًا على سفح دخانٍ مبين، يخرُج عائمًا بين عوالم عديدة بين دُخان سيجارته السوداء وقهوته النرجسية مع قبضةٍ حديديةٍ في يديه لم تُخفِ صدءًا نحيفًا.

البيـاع .. تلميذٌ نجيبٌ لرائعة الحياة، وفجوة زمنية حاضرة يصنعها عازفو الأوكورديون عند البروفا، جنينٌ لفظته الظروف بين طيَّات القُبح، همٌّ أثقل كاهله وطفح على وجهه ليربِّت على قلبه الحزين، اتشح عقله بندبَات الزمن، وعرَّ جبينه بثغرات البشر، لُوِّث بأخطبوط القهر؛ فانجلت عروق صبره واحتُقنت وما زالت تنسَكب على خارطة حياته، تركت له حبلًا ضئيلًا يتنفَّس خلاله، عيناه تخرج من فوهة بركانٍ ثائر انطفأ وما زالت جمراته تتوهَّج

احمرارًا شُريانيًا عارمًا، هو حُلمٌ باغتته الحياة فإدّارَكَها مُحتفيًا بوجوده، وصرخ ماجنًا ما زلتُ موجودًا وأحلم، ولن أصير سوى أبي صيرة .. فايز عبد النبي حسين السعدني الشهير بـ "أبو صيرة" أو البائع أو البيـــاع.

عند مرمى الفجر، سَرَت نسماتُ هواءٍ طلقٍ -قُشعريرة كإعصارٍ اقتلع من بين يديه روحه- داعبت بصيلات شاربه الرقيق، لطَمته الغريزة الصادقة، إحساسه بالإخفاق كل مرةٍ من لا شيء؛ فهو يُخفق كل دقيقة، رغم قهوته النرجسية الشيطانية ما زال يغشاه النُّعاس، تهفو الطمأنينة حواليه بعد فجرٍ لامعٍ، وهو في دُنا من الأمس، إذ أنَّها لم تنتهِ، الرقصة ما زالت مُشتعلةً، هل انطفأت أم ما زالت الأغُنية تُرتكب؟ لم يُنهِ لَهوه الداخلي مُنتظرًا شياطين ذكِره، وِرده اليومي الذي لا ينساه، تُذكِّره بما مضى من عمرٍ لم يفِر أعاد ماضيه، داعبت خيالاته أيامه التي مضت ولم تمضِ، سراديب كهوفِ الخوف لا يأتيها النور أبدًا، تسري بها البدايات كما يسري السُّم في جوف العسل، وتنتظر النهايات مَن يأتي إليها لتستبيح ظنونه. هكذا هو الآن .. في تلك اللحظة ينتظر انتهاء الرقصة، وما تلاها من الرسالة الأخيرة (كله بخير .. إنت إزي ناسَك؟) ليغلق الشط، ويرسم خط النهاية الدرامي بإبحارٍ ضد التيار في رهو المياه الضحلة، اللحظات مضَتَ رامية كالسلحفاة في سيرها المطموس، وما تبقى من قِطع الليل هزيل، اليوم تمادت الرقصة وطالت، والانتظار ثقيل، يعبث بأركان الجُمجمة، ويبيح فتح ما مضى من لعنات الأيـام.

(١)

أيــار ١٩٩٥

اتفقت الرؤى فلا ظِل يتوارى أمام الضياء، وابتهلت الأحاديث بما قَدُم من الخفاء، أُعلنت الخِطبة، وازدانت الزغاريد في الفضاء، وتزيَّنت البهجة واشتعلت برؤوس الحي بأكمله، لطالما كان التفاؤل واجبًا ما دام اللقاء؛ فللحب نورٌ ساطعٌ يسطع عابرًا الومضاء، تهطُل سماء الغروب بعِطر الشوْق، ويمضي نحو طريقه يملأ الأصداء، تحترق شجونٌ في بطون كل مُحبٍّ؛ فنارُ الحب تعشق الاشتهاء.

- زواج مبارك عليكما.

- اضربي زغروطة يا بت منك ليها .. لولولولولي.

كان قد حضر مع الزوج صديقا عمره؛ سلامة عسران وضاحي النمر، أمَّا الزوجة نجية وأختها شادية، فهما جالستان مع أمهما، تُوفي الأب منذ الصغر، فلمَّا كانت نجية ابنة العشرين، داهمها الزواج رغم عدم انتهاء طفولتها والبراءة الساطعة من عينيها لم تغرُب؛ فأتاها الحب يحبو، جارٌ لهما يهواها منذ الصِغر، نظرتها تعني إليه المستقبل، أمَّا بسمَتها فهي المصدر للأحلام الطافية، يغرق في عينيها وتستغيث أشواقه، فجاءها يلهث على غير مهل.

انصهرت الأفمام بالآذان، فلا يستمع أحدٌ لجواره سوى صريرِ صوت الفرحة المُترعة بالوجوه، هنأتهم الأقارب تلوَ الأقارب، داعبت وجناتهم الشفاه، عانقتهم الأيام كما تعانق الأمل، فارقهَم

الفقيرُ من الجمع قبل ما يُدمي النفوس، استشرت الحياة في الأوردة الرطبة، وانتشرت التباهيج المُعروقة، دبَّت بهما الحياة بعد ركودٍ سامِق، والتهبت المشاعر بزوجٍ أبدي زُحزح من شفا جُرفٍ هارٍ إلى جُرفٍ آخر، خلا الزوجان ببعضهما وانجلت الساعات بالإشراق والهنَّات، الأيام المُثمرة أتت مُلهمةً رغدة، والسنون الحاضِرات كِرام، فما تبقى سوى ما يعقِص فوضى الفراغ بجنينٍ تحمِله الحياة لا يتحملها.

(٢)

مرت سنةٌ في ومضة، والتقمت نجية بذرتها فأثمرت جنينًا يركض حيًّا بداخلها، وما زال يسوِّي القلق قلبها على رذاذ الهواء، ما زال عبد النبي يعمل مع أصدقاء عمره ويغدو رواحًا معهم وهي لا تألفهم حتى من مجرد الرؤية الخاطفة، تلك أحاسيس البراءة الناصعة.

- يا عبده أنا مش مستريحة لشُغلك معاهم، معرفتهم متطّمنش، ووشهم بتاع مشاكل.

- بقولك دول أقربلي من إخواتي، إحنا من صغرنا مع بعض، ادعيلى إنتي بس.

- أنا بقولك على اللي حساه، شوف شغل بعيد عنهم، عايزين ربنا يبارك لنا، إنت جايلك عيّل في الطريق.

- وعرفتي منين، مش يمكن بنت تطلع جميلة شبهك؟

- إحساسي عمره ما يخيب يا عبده، أنا مش كنت حاسة إني ليك رغم الظروف اللي كنا فيها، وإنت مكنتش مصدقني؟

- ربنا كرمني بيكي يا نجية، عوَّضتيني عن الدنيا اللي ماعِشتهاش، حاكم في ناس الدنيا متعرفش طريقهم غير بالحب، أنا منهم، ربنا يخليكي ليا، وما يحرمناش من بعض.

اكتفت نجيَّة بابتسامةٍ عذبة شقّتها وسط الفقر المُكتنف حياتهم، وسَلخت النشوى والظفر بالراحة، هوَّن الحب عليهما طرقاتٍ، وغرزت في وحل الدفء أرجلهما طالما اجتمعا، صارت بهم تارةً في حرم الخوف أهواء، وعاندا الأيام واستباحا الظل وحدهما، فتعاهدا أن يكونا لبعضهما أشياء، ما مضى لن يأتي من بعده سوءًا بإذن الله.

جاء الوليد على هُدى أبويه، انطلق يُصارع الحياة على سجيته الفطِنة، أسمياه فائز؛ علّه يفوز بخيرَي الدنيا والآخرة، بوجهٍ بدا بدرًا أضاء لهما ظُلم الطرقات والليالي التي استباحت ظلهما قبل ظلمهما، عانقاه وسط السكون كما فعل معهم، تلا الأشهُر أشهُرًا تِباعًا حتى اكتملت السنة الثانية، فجاءت على درٍ من المرمر المُضيء عليه، استتبت حياةٌ وفارت بتنورها الزاهد المُتوهِّج، ولم تحترق سوى شوقًا لرؤيتهما في سعادةٍ، مضى الأب والأم على عملِهما معًا منذ تفجَّر الفجر، تباركوا لاقتطاف ثمار اليوم من حبَّات الجبين، والأبناء إمَّا معهم أو مع الجيران، مضَت أيامٌ كُثر شبيهةٌ لذات جِلدتها، عاشا معًا في جِنانٍ فَرحة، مضَيا على نمارق

-خفية- من سُندسٍ، تُرى.. هل تمضي الحياة هكذا على حريرٍ ومرمر؟

- عبده، أنا دايخة وحاسة إني مش قادرة أقف ولا قادرة آخد نفَسي.

- خير يا نجية، هجيبلك ميه بسكر، امسكي نفسك شوية، واحنا راجعين آخر النهار نعدي على دكتور ميلاد، يا رب سلِّم.

جاء صوتها إلى زوجها عبد النبي مُتقطعًا مُحشرجًا، بفَمٍ متحجرٍ لم تشقه نقطة مياهٍ منذ سنوات، الأيام تمضي مُنذرةً بالمخاطر التي حفَّت رأسه، تداعى لأحلامه وقْع نبراسٍ بائد؛ فاستدرك ما يخطوه لم يجد شيئًا، ليت الخُطا البريئة تمنح الرحمة! طرقٌ مُمهدةٌ لن تطول، والأيام السرمدية مخالب بالعقول، ذلك الجسد الرقيق الهش لا يحتمل، وإن احتمل فجُرحه لا يندمل، فجاءتها الصرخة المُموجة تطيح بذكرياتٍ لم تبدأ، لم تهنأ بالحياة العذبة.

في اليوم التالي، ظلت نجية مُستويةً على سريرها مُستلقاةً بمرضِها، مُناجيةً أولادها ومُؤزارة رفيق دربها بفحيح صوتها الهادر، لم يمنعها ما تعانيه لتكون كما تعاهدا، لم تستسلم وعاندت، تشبثت بالأيام الخالية، وسَحَبت في قبالتها رحيق الليالي العابرة، وأطفالها العالقين بين شمسٍ تتجلى وقمرٍ ينضب، رَهَن البيت الذي يقطُنه، آخر ما تبقى منهم في مرافقهم، تملأ فراغ الباحة رائحتها، والذكريات مَلئًا، والهواجس تعبث، والغائِلة غرقى، والأمل مُودع دون حِسٍ، صوتها كانت تفوح به الأركان، وتشير إليه القُبل، مضت هامدةً لا حركة تطنها ولا نظرة تلقيها، أهي الدنيا كذلك؟!

أأحلامٌ كنا نُمنيها تمضي دون فوزٍ؟ وفرحة كُنا نبنيها تُهدم كوميض برقٍ! ارتقت روحها البريئة صبيحة اليوم السادس وزوجها تهفو روحه خلفها في صمتٍ بالغ الشدة، لن يجرؤ على العيش دونها هو إلى الآن لا يعلم أين ذهبت! لا يدري، تقسَّمت قسمات وجهه إلى فريقين كلٍّ منهما ينعت الآخر، ابتعدت روحه إلى الأبد، خلدت في مقابر الإمام قريبًا منه إذ كان يقطن القلعة.

(٣)

سأل -أول ما سأل- عنهما، بعدما عاد من غفوته الهرِمة إلى الحياة الدنيا، استعاد شرود ذهنه المُسرسب من فمه، أزاحه بكمه، واسترده بعدما رآهما أمامه، استلقت همومه بأحضانهما فباغتته الطمأنينة الحية، فنَّد ذكرياته مع نجية بأكملها في تلك اللحظات ومع الأبناء، بالرغم من نثرالأمل على الوجوه للتّو، انهمرت الدموع بين ثنايا الحِطام شلَّ وعي الأفئدة، خلت الموائد إلَّا من التيه والشرود، أمَّا الطعام لم تذُقه الشفاه البيضاء الجامدة، الآن قد تأكَّدت الظنون الخرساء، لا حياة تدوم نجية إلى الأبد، والحنين ضيفٌ ثقيلٌ يظل يروي السنين بماء المسك والريحان.

مرت السنوات فوق بعضها كأنَّها داخل مرآةٍ، والأطفال يحتضنهما بيت جدتهما أم نجية، كما تُنفق عليهما من معاش زوجها فيما لا يُرى من شادية عليهم سوى بعض فُتات الحنان.

امتدت بقايا الطمأنينة المُنحسرة، مع شتات فضولٍ يلتمع على المُقل، تفاقم الحد، زهُد الكلام، يُرثى لحالهما معًا، الآن وقد عادت المُجريات إلى طريقها الأول، تغافلت العائلة ولم تغفل القلوب ولا الأيام، ثَقُل الحمل، خارت القوى، سواعد لم تحتمل التيار العاتي وسط مرار الرحيل ومنفذ القدر، انتهت الآمال كبراءة صبا، وامُتقعت بلونٍ ذابلٍ على الوجوه المُنتكسة، تُرى.. هل يمتد الألم مرَ الزمن؟ أم ينحني أمام أنَّات الحياة المُنقشعة؟ بل ينجلي وتعرف الندبة مكانها -على الأرواح- تلوَ الأخرى.

تلألأت الأجسام المضادة للماضي في الأوردة الصماء، لترأب صَدعًا هائلًا أوشكت الظروف أن تزيحه، سينهار يومًا إن ضَعُف، أو يشتد إن واجه. عرين الأسد لا تخطوه الأنياب الزائفة، وتظل ممرات الغزال متاحةً أمام العيون الشاردة، فقط تحمَّل إن استطعت ولا تتأفف من كدمات المواجهة. ولمَّا كان حال النفس بالضعف عاجزةً تكشَّرت الأنياب الحادة بالزئير بوقتها، تهدهت النوايا العطِنة في نفوس الحاقدين، فمَرق الأصدقاء المُتحابون أعداء، وهن النفس أرداه لقمةً سائغة، امتد قلبه إلى أقرب مَن كانوا إليه .. صديقيه، فرفضا أن يعيناه في أقصى ما ألَّمَّ به من ألمٍ، ما جعل بينهم فجأةً فجوةً بلا جفوة.

صدقت رؤياها وهي لم تكن حاضرةً لتُعينه على ما حالت إليه حياته، وما أرداه مريضًا كهلًا وهو في وهج الفحولة، مال عليهما مرةً أخرى كقدرٍ له، إذ أنَّه لم يعرف سواهما بحياته، أقرب ما كان

إليه من بشرٍ، داعبا بأصابعهما حياته بعدما ذهب ما ذهب، وقضى الله أمرًا كان مفعُولًا، وتلك وسيلة الأحياء.

رمى أولاده بنظرةٍ كابية قبل رحيله عنهما، سرعان ما استردها في صمتٍ ذات مغزى، أشاح بنظره إلى زوجته، حدَّثها عن كل ما آل إليه بغيابها عنه في الوحدة، حدَّثها وصورتها تتبخر من عينيه كرذاذٍ ناطق يحاكيها، يهمِس لنفسه، يعود إليها يخبو في ذاته، ينجرف تيار السنين في خياله، وكل موجةٍ تعلو هادرةً، سرت تلك اللحظات من قلبه وامتدت لتزيح رئتيه وتعتصر كبده، سرت بطيئةً جدًّا كسلحفاةٍ اختل توازنها، وعلا أجيجها في هدوءٍ يُنذر بالمَخاطر، يحفُّه الريح من كل جانب، أصبحت الآن هكذا، لا يربد وجهك ثَمَّة تعابير أصبحت جامدًا مُصمتًا، أفرغتك الليالي من رحيق التحدي، أحدبك رحيل النَّجية، أم أعمَى قلبك عن غدر الأحبة!

(٤)

في حَلك الليل تنزوي الآلام وتذبل، وربما تنضج وتنضح، يأتيك قاربٌ يسير ببطءٍ مُحملًا بذكرياتٍ عِظام يطفو على جبينك، داخلك، يمضي دون عجزٍ، بمحاذاة خيالاتك، في عيلةٍ وخُيلاءٍ، يقاضيك ويقضي بإعدامك، أو يغفر لك ويمنحك المُضي، بندول يرتج يمينًا ويسارًا، ينخر في مؤخرة رأسك بحافة سِن إبرة، يداعب لُبَك بِرِقةٍ بَراقة، تمضي وتسكن، تعلو وتخبت، تنهمل وتربد،

تستشري وتبقى، تفيض وتغيض، تهيم وتستقيم، تنخر بأزيز صمتها المُستعرغدد صبرك، تغدو لقهرك، فتنذر بقبرك، أو بِمَهلَك عدوك.

أتتك الرغبة بعد ليلةٍ عشواء، ولهبٍ يهفو، بعد جسدٍ أبلاه الخدر، واستجلب انفلات الأعصاب، امتدت ببقاياك المُلملمة ذرات روحك المُبعثرة، لتحتمي بما بقي لك، وما تملك سوى بيتك المرهون، ومع زحف السنين فوق رأسه كبَّلته الديون وتآكلت راحته. بعد الليالي السابحة في مرابي الظن، عنَّ له أن يواجه، إن قُدِّر واسترجع ماذا سيفعل؟ بيته الوحيد الآمن، حاضن أبناءه الثكلى فيما بعد، أيتركه لصديقي عمره، سيحين الوقت وتَحِنُّ صدورهما، ويخفق جبين قلوبهما ويعيدان له ما تبقى، هكذا ظن! أتاهما من غير موعدٍ، يجتر ركبتيه أمام كعبيه، يسحب دقات قلبه بندمٍ، يستدعي الماضي الماضِي بينهم، الوريد الذي لم يفصله مشرط السنين، يحتمي بما عهِدا سابقًا، كدمات المواجهة السابقة تُرى.. هل التأمت؟ تمزَّقت روحه وخرجت كبُخارِ ماء من أنفاسه اللاهثة مُتقطعة، كلَّما اقترب اضطرب، انتفض، وجعل ينتقد ما ألَّم به من نصب.

(٥)

عبد النبي، سلامة، ضاحي .. منذ نشأتهم معًا تعاهدوا القسمة والاتحاد والكلمة، فلم يخنهم شيطانهم ولم يفرِّق شمائلهم كائن، استداروا ولم يغفلوا عن دهس الحياة، وهن القهر، سُخف الفقر، ومرارة الطفولة جرَّاء الهوالك، تحاشوا النظر إلى الأيام السالفة، ومضَوا يختطفون من لحظات يومهم هذا، استتبت حياةٌ ظنُّوا أنَّها داهنتهم، ولعل الخلاف أوشك، الاختلاف أصبح ناصِحًا، أُزيح عبد النبي أخيرًا عن طرقهما الواعرة حروفه وانقضى مُستترًا؛ يخشى البوح، يهوى العُزلة، يجوب فضاء الصمت، يتحاشى النظر إلى عينٍ رأت الحقيقة منذ مولدها وكانت له النجوى والنجية. ولمَّا تبدى المرض وبدرت أوراقه بشبابها الأخضر، لم يجد ملجأً سواهما؛ ذهب إلى سلامة عسران وضاحي النمر يستعطِف بلاط أرجُلهما وثنايا رمال نعالهما، علَّهما يساعدانه! حياته أوشكت على الانهيار، بل ربما الانهيار قائم، ولم يهتز في جبينهما وعرة بل ربما جاءت تلك الكبوة على طبقٍ مُفضض؛ ليدفِناه ويطبقا على وجهه بركام الماضي الطافي.

- على العموم، أنا باقي على العِشرة، مهما حصل بينا، وجاي أتذلل لكم، وأبوس رجليكم ساعدوني، أنا بترمي في الشارع أنا وولادي، مراتي ماتت، بيتي مرهون، مش معايا تمن اللُقمة، ماليش غيركم، ارحموني، حلّولي مُشكلتي، وأنا خدامكم، هرجع أشتغل معاكم واللي تقولوا عليه، أعمله على رقبتي، مش هنطق بكلمة من

اللي أعرفه واللى فات مات، كانت وزّة شيطان راحت لحالها، والنبي يا سلامة، أبوس إيدك يا ضاحي.

أثناء حديث الاستعطاف، لم يخلُ الكلام من تهديدٍ مُجلفن، مُطبق على شفتيه ومحشوّ داخل "سوليفانة" كأفيونة فم سلامة، أثار الكلام بعد أن ألهب غريزتهما كرامتهما فاستعدا؛ أتتهما الفرصة بمجيئه، ويا ليتها تأخرت ولكنها المواعيد، استقرت الأعين الأربع على الماضي، لم ترَ شيئًا! تحوم في شتى الأركان وتستعيد الزمن، ظلت الأوجه تُرتكن يمينًا بخِسة وتنتظر انتهاء المشهد، أمَّا العينان الذابلتان استقرتا هنا في محل الموَّان، تناثرت الدموع بين شظايا الجراكن الملوُنة، التي لوّنت في يومٍ ما مصيره، وجعلته هكذا أسود قاتمًا ذابلًا، قبل أن تُربِّت يدا الخاطي لتهز كتِفه، انتظم الحديث القاسي داخله تغلغل كالسكين المنحوت، فلا حديث رءوم عليه، ولا كلمة تطيب لها الخواطر، تباطأت خطواته عند الخروج، بالتأكيد وحيدًا كما أتى يتأبط خذلانه، بعدما خلع كرامته ونحى عنه أسئلته، وإجابات لم يسمعها نحرت الألم وأردته قتيلًا.

ظل ألمه ينزف مع أنفاسه حتى المساء، عند بزوغ الفجر، شَهقَ مع ارتفاع الآذان جرَّاء كوب ماءٍ جذبه إلى فمه كان يمتلئ بمادةٍ مجهولةٍ وضعت له عمدًا، ظل يخفي ما كان وجهه يبديه صراحةً، لم ينم من خوفه ولم يقُم من جوفه سوى التأوهات، وأولاده ظانان ما لحق به من حُمى سيزول، بعدما منعهم من رؤيته على حالته، وأمرهم بعدم الاقتراب من بابه، اختلجت قدماه أسفل سريره، وسقط من فوره، ظل مُناجيًا نجية، وعرَق جبينه ينساب

بين شفتيه يبني جسورًا على وجهه ليغمرها ويعدوها، تبدد سقف الغرفة في لحظاتٍ وزال من عينيه، وظلت تعلو أنات حُمَتَه حتى لهث من عناء الوصول، ولمَّا عَلَت أبخرة الوصول سفينته بَرَكَ، ماضيًا إلى عالمٍ لم يكُن فيه سواه هو وزوجته.

(٦)

- يستاهل اللي يجراله، ولسه هيشوف ياما مرار، مش بطّل واتبتّر؟!

- أيوه يا سلامة، بس مش للدرجة دي، كنا نسامحه، ده برده عبده بتاع زمان، صاحبنا ومالوش غيرنا مهما بِعد، بتاعنا ومسيره يترمي في أحضانا.

- هاهاها أحضانا! اللي يبعد مالوش رجعة، واللي راح بييجى غيره، مفيش عزيز، عيبك إنك مبتتعلمش مني حاجة يا ضوحة، الشغلانة لسه مطَفحتكش الدم.

- طب حتى كنا نفكله الرهن، ضربتين على الراس توجع وده ميستحملش، كفاية اللي ماتله، وفي رقبته كوم لحم نعتبرها صدقة مخفية.

- الصدقة للأصدقاء، وده مبقاش صديقنا، مدام بيعايرنا وبيلقح يستفتح ويروح.

أكمل وهو يلتقط من يديه قطعة أفيون:

- إنت قلبك حجر يا سلامة! جبت التخشينة دي منين؟

لمعت أسنانه الفضية مع سقوط الضوء عليها وبتشدق مغالٍ فيه جلجلت الضحكات بأفواه ذوي القلوب المُنسحقة:

-هع هع هع، من بُعد المسافات، من الواد الزمبلك.

ليسترد وعيه على وجهٍ شاحبٍ ذي لحيةٍ سوداء، ووجهٍ مائل لليمين، يوحي باجترار الوهن مع طفح الكيل، وعينٍ ذاهلة، وتلعثُم فاقد النطق:

- مالك يا خاطي البرك، بارك محلك ليه؟

استسلمت تعابير وجه الخاطي بالاستيعاب قبل الارتياب، مُلملمًا ما بجُعبته ومُؤشرًا بالخضوع، تقهقر خطوتين من بعدها ذاب كفَص الملح داخل زير مـاء.

(٧)

بعد عِندٍ مستمرٍ بحِلمه، قلبٌ مُنفغر بحزنه، وعقلٌ شطَّ بجِننه، هيَّجت بواطنه الانفعالات، ظلَّ يتعرَّق، وهو مسجِي أرضًا جوار سريره يحلم ويألم، ويحدِّث نفسه مناجيًا ربه دون درايةٍ .. دون ردٍّ .. دون كلامٍ.

- مش هعرف أعيش من غيرك يا نجية! قلبي بيتقطع، مش عارف أعمل إيه، يا رب .. يا رب، أنا عارف إني طول عمري بعيد عنك بعيد أووي، وعمري ما حاولت أقرب. عارف إني جاي متأخر، لكن ما باليد حيلة، ماليش غيرك يا رب ماليش حد كله سابني بقيت لوحدي انجدني؛ البيت مرهون وحب العمر مدفون، والعيال

ملهُمش حد غيرك. يا رب إنت عالم بحالي مش بكيفي مكنش قدامي حل، أنا عارف إنه غلط بس ما هم بيغلطوا على طول، مش بيحصلهم حاجة؟ لا أستغفر الله إيه اللي بقوله ده، سامحني يا رب، أول مرة أفضفض وأتكلم معاك بس ارتحت الحمد لله واللي مقدر يحصل هيحصل اللهمَّ لا اعتراض، سامحني يا رب، وعديهالي كان لازم أصارحها، كنت خايف عليها وعايزها تتعالج بس لا، كان لازم أخافك، يا رب العيال ملهُمش حد! وأنا مالناش غيرك يا كريم، سامحني يا رب، كان لازم أوافق على شروطهم، مكانش قدامي حل تاني.

بقهرٍ عتيدٍ تحشرجت كلماته الأُخيرة عند خروجها، ولفظ معها آخر قطرةٍ من روحه في مكانه، مُمسكًا بزمام فراشه آخر ما لمَست نجَية، أطبق بالفراش على وجهه وغاب في نهايةٍ مُقفرة، وبأملٍ كان فيه عينيه مزهوًّا وانطفأ، اليأس مقصلة نخرت قلبه، أغلق فتحتها بذكرى محتقنة -في صدره- كبّلته وبعيدان أيام قاتلات، سهام غرزت أنيابها في شراينه واستباحت براءة انشغاله بحبيبته، فذُهل، وذبل، ورفَل في ثياب الراحلين، ومضى دون ختامٍ، دون وداعٍ أو أتباعٍ لاتباع ما مضى فيه، بعد شَهقةٍ آمنة أمَّنت خروج روحه في ذات الميعاد، حَملَقت عيناهما تباعًا فايز وعلية بين عشيةٍ وضُحاها ذهب أبواهما دون أسبابٍ تتراءى.

ذوَّبه الشرود والبراءة في فجوة رأسه قبل أن يطرق بغير وعي:

- أبويا .. أبويا .. أنت مبتردش ليه.

نشَعت الدموع من عينيه، أغلقت فيه، أطلقت علية صرخةً مدويةً، كادت لتعيد روحه الراحلة مكانها لا يعيا ما حدث، ابتسم فايز ذهولًا انضمت إليه الكلمات لتُعينه، ولكنها لطمته على جبينه، بعدما رفع الفراش المُنسدل على وجه أبيه، ليرى عينيه الجاحظتين المُحملقتين في سقف الغرفة الذي عاد إلى مكانه توًّا.

أصابت علية إغماءةٌ طرحتها أرضًا جوار قلب والدها المُنشق، لم يلحظا ما اصطك من مفصلات شباك الغرفة ومَن وراءها؟ وأخوها يتآكل من الفزع، خرج فايز لاهثًا، لا يدري مرمى ذهابه، غير مدركٍ ما رآه فاستدرك "قُلة مياه" ارتشف منها بِفمٍ مُثقل بالكلام، يمضغ الأسئلة تلك هي ذات الأسئلة التي تداعب لُبه دائمًا، وتستعجل وجودها هائمةً بين حقائق لم تفِر مثلما فرَّ القمر.

(٨)

لم تُستتب الحياة فاستطال الغياب، لا شيء يعدو أمام الضباب، لا قمر ينير فحوى السراب، لا أمن يسكن مرمى الشهاب، ولا أمل يقطُن صرير العذاب، غاب الاستيعاب وحلَّت شكوكه، لفُّوا رؤوسهم ولووُا ألسنتِهم وما زالت الأيام تُخبئ، الأم الراحلة والأب والأيام الثكلى، كلٌّ ذاهلٌ ذاهب، فقَد الأبناء عُذرية فكرهما في لحظات شططٍ، استودع كل منهما الأيام الماضية في عقر الرأس، علَّها تُساندهما يومًا، ما زالت يد القدر رابضةً، قبل أن يترك الأبناء البيت المرهون، انتظر بالخارج المعلم سلامة والمعلم ضاحي أتيا

منذ البكور، بعدما نطَق تقرير الوفاة "هبوطٌ حادٌّ بالدورة الدموية وتوقُّف عضلة القلب" جرَّاء تناول جرعةٍ فارقةٍ للمخدر فارق على إثرها حياته، فكانا أول مَن عزى في صديقهما الذي كان، كما كانا أول مَن لجأ إليهما في فرحته وشدته، وأخذا ينشدان الحزن والدموع، وتُغريهما دموع التماسيح، وفحيح الأفاعي يُظلل ملامحهُما المُصمتة، ضمَّ سلامة بكفه وجذب الطفل في راحته وأخذ يهمس في أذنه بالتعازي ويُسمعه التنهيدات العذبة، وكأنَّها تخرج من قلبٍ عطوف، أجادها ولم يتضح سوى صدقه الكاذب، مرَّر شفتيه على أُذنا الابن الباكي.

- فايز، أبوك كان أكتر من أخويا، لو احتجت أي شيء أنا موجود، ورقبتي سدادة إنت وأختك علية لو احتجتم أي شيء تعالولي متتكسفوش.

ربَّت ضاحي على فمِ الطفل ليُثنيه، ولكن الدموع الصادقة ليس لها مِن توقُّف، أغلق عيناه بإصبعيه علّه يرجع ولكنه تمادى دون جدوى، نظر إلى قرينه واستدعاه بالخارج، أراد أن يُنهي الرهن وديًّا للمرة الثانية، هزَّه بكاء الطفل وحرَّك فيه ما حرَّك، علَّه يستجيب بعد ما رأى، تُرى.. هل جبل الجليد يُمحى بدون رؤى البركان؟!

استمهله لم يتمهَّل، ترجَّاه لم يُنصت، ذكَّره ولكن تناسَى، جزَّ على مخالبه الواهِنة وجذَبه من مرفقِه وأطلق صفير الحزن في أذنٍ لا تعرف الحياء، لا تعرف سوى ما تُريده، أعاد على مسامِعه قُبلاتِ الحقِّ،علَّه يعود، لفظَها قبل أن يتحسسَها ثم وكزه في أريحيةٍ

بالغة، وأضرم جوار عينيه نظرةَ الضيق الحانقة، وسرعان ما مضى تاركًا الأيام تمحي الموت وحامله من مُخيلته إلى الأبد.

نظر ضاحي للأبناء ذوي الأعين الغرة والنفوس الطازجة والسرائر الناصِعة، ونعتهما بابتسامةٍ هـامِسةٍ يشُوبها دموعٌ صادقة، ومضى لحياةٍ لا يريدها، يقف على حافةٍ منها وفي الحافة الأخرى رأى نهـايتها في صديقه منذ لحظات.

في غمرة الحُلم تُنتسى الأحزان، وتغفو الأزمات، تحيا الأفراح بالأصداح، وتمر الحياة في نشوتها الزهيدة، في غمرة الحُلم تموت الغفوات، تهفو الشهوات، وتنطفئ الذكريات، قد لا تبدو ما الأيام تحمله! ولن تمضي سوى ما الأيام ترجوه، وها هي تمضي.

تكدَّست نظراته إلى الأمام وبرزت بالتماعٍ مُغرٍ:

- نبص بقى لشغلنا، ونشوف حالنا، الأيام شكلها هتحلو.

أرعده الخوف وتجلى على وجهه ساريًا:

- والله أنا بقيت أخاف منك يا سلامة الكلب، بكره لما أحتاجلك، ده هيبقى مصيري.

تناثرت روائح خيانته في المَكامن:

- إنت غيرهم يا صديقي، لسه بدري على عزاك.

بصدقٍ وبصوتٍ مُهترئٍ:

- الله يرحمك يا عبده.

أفشاها ضاحي همسًا وخبَّأها سرًّا، واطمأن، وما زال مُخاط الماضي ينهمل من أنف سلامة استدركه قائلًا في صمتِ الحملان:

- الأيام جمعانا والكل على هوانا، بينا يا معلم ضاحي.

استهوتهما الأمنيات ومضَيا في طريقٍ باهٍ ينشدان الحياة الرائعة.

(٩)

أحمق مَن ظنها تتوقف، أو ترتدي عباءة الحزن، الكل يمضي ويرحل في صمتٍ أثير، وتخبو الأحزان بالمسرات في ظلمة الماضي المُميت، تتراكم الدموع القاتلة وقتًا ما وتنحسر، تمُر الليالي فوق بعضها وتتدثر بعِظام الأحلام وكلٌّ إلى أرضه يعود يومًا أن تُقضى أيامه. ابتعد الطفلان بعدًا تامًّا عن حياتهما السابقة، مقدار بُعدهما عن بيتِهما الرهين، فحاولا النسيان ما نسِيا فتناسيا كل قديمٍ، انعزلا عن كل ذكرى مؤلمة وانخرطا بالحياة الواهية، ولم يرقبا سوى الليالي السوداء والعبير الضاحك، لم يذكرا من الأيام سوى قُبحها، ولم يتذكَّرا من الألم سوى هيئته.

بعد عُمرٍ آنساه مع شادية بعد أن تُوفيت الجدة استكان العُمر خافتًا، حياة تغزوها البراءة، هللت أساريرهما يومًا، وغاصت واستغاضت دومًا، حلاهما في عيون القيظ نسمات، وغلَّفهما قيضٌ من التِعسات، مرَّ العمر كما مرَّ من قبل، البيت المرهون ذهب لدائنه، والسقف المرفوع عاد لموطنه، واستحال الرجوع إلى الماضي ولو فرسخ.

عمل شادية بالتمريض هو الذي رقَّع حياتهما شيئًا ما رتق البهوت، وكسَت العِزة ماء الوجه، فلا طلب سوى المأوى، ولا حاجة سوى الزُّهد، نفذت الوصية وحفِظتهما معها في منزل العائِلة ولم تسفع جوانبهما برمقة، لم يمنع وجودهما من الزواج فتزوجت صابر النردي، ذلك الذي عشِق الفؤاد دُخانه، ومكث على الطاولة قرابة الصبح مُستسلمًا لفِرار الروح وانجلاء الصدع من وجهه، مرتكِئًا على مال زوجته، وعلى غياب ظلها ترميمًا لنبوتجية مُتزاحمةٍ لتسد المعِد الجائِعة التي لا تشفق سوى على الشبع أن يرحل.

استشرت الأيام في حياتهم كالهشيم، مضى الصبي شابًّا يافعًا، مضى المحاق بدرًا مضيئًا، وبدت عليه قطةً خادشة، وحملتهما الأيام في كنفِها منذرةً، هيأتهما للمُستقبل، تُرى.. هل رحل الماضي وأغلقت صفحاته، أم سيحمل المستقبل إليهما خطوةً مماثلة؟

(١٠)

في تلك السن الكُهولة تئن جمرات الجسد، وتنتفخ بواطن الرغبة، وتهفو بلهيبها المُستعر على جدران الدقائق والثواني؛ فتهتاج النفس لاهثةً وراء مَن يُعذبها، وتخترق الأجساد الرطبة العيون السابحة وتهيم كالنسيم، وتتداخل مع العطر النافح الناشع من الثنايا فتضرب نواصع الشهوة، وتُشعلها لتنشَرها لتخِر النشوى ويستغيث المنطق، فتسطع أضواء الغَفلة فتزدهر وتهدأ اللحظات

لتسقُط، وما تفتأ المشاعر تنسكب لتسقي الحمم بألوانٍ من الابتهاج والتمني والمُضي والتريض فتسبُر الأغوار علَّها تستجيب.

على الرغم من كونِه أباها -منزِلَة- بعد وفاة أبيها، لم يمنعَه منها شيطانه، لم تُثنِه عنها نظراته المُفعمة، كُوُنت لديه الغريزة الحالِمة، واستجد لديه شبابٌ متأخر، عانقها في شتى الليالي وقبَّلها في داخله، واستمر حُلمه على النهوض لطالما رآها، حتى استشعر بذات الحِس يداهمه يوميًا، دون قرعٍ لباب قبضته. خَلَت الأجواء لصابر النردي فاشتعل اللهب، واعترته البهجة الخاطفة، فاستغل الهدوء الثقيل، ومضى لينفِّذ ما أرادت له نفسه الوقِحة، ولمَّا همست أصابعه تجاه علية، جذبته من أم ردائه بعدما انحسر عنها الغطاء وألقت براءة عينيها في عينيه، بنظرةٍ منها مُطمئنةً رمَتها، بعد استشعار نيته الدنيئة؛ فاستمر ولم يتراجع انتمى لما داخله توًّا، ها قد أفرز فصاه العديد من الإشارات النابضة حفزَّته على المُضي قُدمًا والإسراع في الخطيئة قبل أن يخطئ وينحني ويعود، فما عاد لوعيه، ألقت على مسامعه اللَّعن قبل دعاءٍ مُمتزجٍ باقتراب الأجل، أرغمته على التراجع وأُرغمت على التخلي؛ ففاضت دموعها العذراء المُنتزعة بالتياع الفقد، فانفرجت وانفرطَت خيالاته أرضًا حينما باغتته بالحقيقة الغصة، وتحدَّثت إليه بلا حديثٍ، وما زال يسمعها بلا صوتٍ ترامى فعاد لمرماه، في وقتٍ ما حق له أن يعود بعدما اقترف، عادت للفتها ولهفتها إلى الانتهاء.

خرج يبحث عن كونه بعدما ترك جوارها حياءه مع مشاعره النافقة، ونسيَ تاج الأبوة على مقربةٍ من بابها فتناساه ولم يبقَ منه

ليخرج حيًّا خلاله، ذلك التاج الذي كبَّل قلبها وأفسد عليها الشعور الرفيع الذي تبخَّر والتصق به شعاع الأمان، فعاند وجاهد نفسه ولكن هيهات للنفس أن تعود بعدما أذنبت، وغارت يداها في الوحل حتى امتلأت. أمَّا هي فخرجت بلا عودة، تحملها ساقاها إلى البحث عن الأمان بمكانٍ آخر، لم يترك لها حبلًا من العودة ترك له فتحةً في حياتها المُخبته، فجوةً تنفَّست من خلالها بهواءٍ استشرى كسكاكين مزَّقت هيئتها السَّمِحة وشموخ لم يعد له معنى؛ فتورمت وامتثلت للواقع الأليم ثم مضت كالهباء يذوِّبها الأنين.

(١١)

تذكَّر فايز والديه ولم يُفصح، خالجه شعورٌ داخلي بالأسى ما زال يُخفيه، أيامٌ مرَّت تباعًا، ولم تتوقَّف ليستعيد أنفاسه اللاهثة، ماضيًا بحياةٍ لم تلفظه ولم تُقرِّبه فقط تركته في وسط لفحاتِ الألم، وسط مُلوثاتِ وعوادم الأنفس الحيَّة النافقة، يزدرد ريقه بنهمٍ ويُكمل طريقه، ما زال يقوى ويتقوى بها حتى وإن لازمته الخطايا المُبرمة، جرَّاء أيامٍ يهفو لهيبها بلذعةٍ حتى لامست أيامه.

بإصرارٍ مُتقدٍ:

- اخترت الحقوق لأسباب كتير؛ أولها أرجع الحقوق لأصحابها.

بنصف ضحكةٍ اتخذت من وجه شادية كهلالٍ كهولٍ:

- يا سلام! إنت شايف كده؟

أصابه ردها باندهاشةٍ، ابتُئس بين راحتيها مُطرقًا:

- مش فاهم!

طرحت شادية بفكرته أرضًا، أو ربما أكَّدتها بطريقتها المُثلى:

- زمن الفهلوة يا ابني، حقك تجيبه بنفسك مش بإيدك، لأ بدماغك، وإيدك تشتغل بيها في ملِكك، وعلى رأي المثل "متحطش إيدك في طبق غيرك"، ثقتك بنفسك تشتريها بنفسك، محدش له حاجة عندك، واوعى تتداين لَتضعف، واوعى يبقالك صاحب وعلى رأي المثل "خاف من عدوّك مرة ومن صاحبك ألف مرة"، واوعاك تمسك في حد كله هيبور، ولا ترمي همك كله في عبّ واحد يستغلك، مستسلمش أبدًا للدنيا تكِسرك، وخلي بالك من أقرب حد ليك حاكم إنه كله في الود بيعمل حبيبك وفي المصايب يقولك نصيبك.

مصمَصَت شفتيها الثقيلة بعمقٍ بالغٍ، ثم أزاحت يديها بهدوءٍ من خصرِها بعدما أنهت كلماتها، وبعد تنهيدةٍ عالقةٍ زفرَتها، نظرَت لمجهُولها التائِه في الطريق، ثم شدَّت بلحنها الخامل كما اعتادت الست شادية، ذلك الجبل الشاهق الذي يتحمَّل ويأوي ولا يئن، تخفي ملامِحها الوقورة برضاءٍ تامٍ عن ما كانت فيه رغم معاناتها رقيقة، رغم عذابها عذبة، رغم الضيق والضجر ضحوكة، لم يجدِ معها الوشاح الأسود الذي اعتادت لباسه أن يمحِ بهجَتها المنثورة، ولا أن يخذل هيبتها المفتُورة، برغم من قسوة ملامحها جرَّاء وهنِ الزمن، برغم من توغلها في السنين وهي ما زالت رابضةً بالأربعين، تخفي وجهها دومًا خوفًا من الأيام أن تلتقطها وتلطمها، إذ ترتدي

عادةً أثناء خروجها لُباسَ الضعف وتتلفح بعباءةِ الذل وينسدل من جبينها نبت الشقاء، وعيناها تخفي إنفاق السنين على الهباء، يتضح ذلك باصفرار ورودِ خديها الذابل، فهذا الزوج الذي اتخذته يومًا رجلًا، ما كان سوى حائطٍ تنفُذ منه الشروخ وتنشع منه النطاعة، كهلًا من مولده يضيقه أن يجلس في المنزل وامرأته تكِد؛ فيسرق من شقِّ ردائها في غيابها، ثم يخرج لينشر عربدته في الأيام. أمَّا في حضورها .. لا يُحدِّثها، إذ تُلقي بيديها في عينيه ما يريده وتتركه مُنفرجَ الأسارير ودموعها سابحة، وهو مُستمر في غروبه كما هي مستمرة في شروقها؛ لذلك لم يُنجبا بعدما أنجبا الاستمرار إلى الآن دون سببٍ.

ضمدت صدره كلماتٌ لن تقال، ولكنه أحس من عينيها القبول والرضا، تحدَّثت إليه خالته في اعتدال عن نيته وأجابها بعد قرارٍ نشأ مع الزمن، ومضى في طريقه بلا رجعة، وقد ثبتت لديها الرؤيا، فما كان منهما إلَّا أن استقرا على ما انتوى تحقيقه؛ ففرحت به وابتسمت، وضحك لها ضحكًا مدويًّا، وعاندا الأيام فتشاحنا ثم عادا إلى الضحك والحياة.

(١٢)

بعد مرور تلك الأعوام، اشتدت شوكة سلامة وضاحي في السوق، واعتنقت أقوالهما الحديث الجاد، واكتنفت أيامهما الأموال الطائلة، فلم يعودا يذكران سوى العمولات والأرباح، ولم

يعودا يتذكَّران السابقين، فبمُضي الأيام ينسى اللاحقون مَن آنسهم يومًا ما، ومَن دفع حياته قبرًا ثمنًا لبقائهما مرتفعين هكذا. على الرغم من اقترابهما معًا في كل شيءٍ يختلفان في العديد، ما استجد من اقترابِ الهيئة سوى لهيبٍ أسكبه الزمن بحِرصٍ، فأضفى لمسةً من نبت الشعر الأبيض المُنتفض وسط السواد الأعظم، وانتفاخ باطن الأعين ما زال مرهونًا بالعمر، كما كان بيت عبد النبي الراحل. غابت هبَّات النوم الغزيرة عليهم مُنذ ما يقرب بضع سنين، فتعودا وظنَّا حقيقة أنَّها لن تأتي مرةً أخرى .. تلك الهبَّات هِبات.

استدار الخاطي ببشرته الداكنة وشعره الأشعث تجاه الغرفة الناطقة، ما تعود عليه سيده أن يواجه التُجار ليلًا كان أو نهارًا، فعرُج بقدمٍ تصيب وقدمٍ زاحفة -إثر حادثٍ قديم- واستجمع شتات عقله مع ناقوس أُذنٍ يستمع لضجيج النمل، والتصق على بابٍ صدئٍ يخفي وراه، أجهز على "الأوكرة" لِئلا تنفتح.

- كل حاجة هتِّم زي ما قولت، فاهم يا ضاحي، يلا عشان الوقت بيفِر.

استدارا هامين بالخروج، تداعى القلق يضرب نواصي جباههما مع مسَحةٍ من رجة وهنٍ، لهث قلب الرابض بالخارج نبضًا مخيفًا، كان عليه أن يشتري خطواته قبل أن يأتي لبيعها، مجازفة غير محسُوبة المقاصد استدرك خطواته توًّا، هم بالإنطلاق وهموا هم بالاقتراب، انفتح الباب فجأةً على أم عينيه، لم يلحَق الانعِطاف، وبعد الصمت الثقيل أسدل فمه وأجاب:

- يا معلم سلامة.

لكمَه براحته وسحبه لجواره بمُبالغةٍ وزمجر في وجهه:

- إيه يا خاطي البرك، إيه اللي جابك، نشعة تاخدك.

بالتفاتةٍ كادت تودي بحياته، ما جعله مستقرًا بالرد:

- ها .. ها.

أعطى له فرصةً قبل أن ينفُث في وجهه غُبار الجنون:

- بطِّل تقويق، مش فاضي لأمك، كله من الزفت اللي بتتعطاه، نايبة تاخدك ولا تدِلنا عليك إلا ريحتك.

بتحدٍ مباغت:

- الخرَّاص تحت.

بانقباضة وجهٍ دمدم:

- الخرَّاص! يا نهـار أسود، إيه اللي جاب عزرائيل عندنا؟!

احتُقنت الوجوه مع شفاهٍ زمَّت، وسَنا الذهول يطفح على الأعين الجامدة، انهال سوط التيه ما لم تره الأعين واستل الغشم وأرداه أرضًا، عُمر لم يمُر في صمتٍ! تلك الأيام سالت مرارتها بعد أن أوشكت أبوابها على الانغلاق، وهمَّ الماضي الآن أن ينسكب، تمادى الصمت حتى ألحق بالآخر ضاحي النمر، والجمود تهادى على جوانب الغرف، مادت بهما الأرض وفرَّت رواسيها، مَن هذا الذي كبَّل الأغلال في مسامعهم ليسحق الخوف المنتشي؟

* الخرَّاص: أحدب الجسد، عظيم كالأسد، تلتمع مُقلتاه بسحر النظرة كالصقور، إذ لا تستطيع الاقتراب أو النظر ولو لثوانٍ داخل وجهه، أسود قاتم من الداخل أكثر من الخارج مع وجهٍ ينمو تجاه

الفأر المُتحفز، ابتسامة ذات بريق أسنانٍ لا يقاوم النظرة، غزير الهيبة، رفيع المنزلة .. عند أمثال هؤلاء غريزة القتل عنده أشد من القطط الكبيرة، دومًا يُحبذها كحَلٍ فائقِ السرعة، وجوده يثير الذعر ولو في ضوء النهار، عرينه دائمًا تسكنه اللدغات والحوافر لا يأتي إلَّا للنوازل، ولا يظهر إلَّا للانتقام، للغدر، للنصيحة أو للانتهاء. أتى اليوم لسببٍ وحيد.

- مالك يا سمسم، مالك يا ضحضح! شفتم خرَّاص .. ولا إيه؟

بارتيابٍ رائق:

- منوّر مكانك يا سيدهم .. إيه اللي رماك؟

باعتيادٍ لائق:

- اللي رماك.

ثقُلت الشكوك فنطَحوها:

- وبعدهالك!

تمادى في العبوس وغمغم:

- الجمع هيتلم، وهينفض لما ننفض، مواعيدك لازماك؟

غمرتهما الشكوك وعادت لتلطمهما ويا ليتها تنفلِت:

- هاجي يا خرَّاص، بلَّغ الجمع إننا جايين.

بعد أن دسَّ في يديه ما يمتلكه في جيبه سريعًا، مضى تاركًا خلفه بُخار الفزع يطمِس الوجوه، ودفء الخوف يلفَح البواطن، ولَسْعَة القلق تضطرم أسفل صدورهم استكانا ولم يجيدا الكلام، تهاوت الألسنة ولم تستطع النهوض لتوِّها، غرر بهما الحديث فلم يعنهما

الأمل في ما انتويا، تهادت في الظلام كلماتُهما العالقة بالشِفاه السُفلى ومضى الجمع كلٌّ إلى مرماه.

(١٣)

الخير لا يتحطَّم كذلك مثل ذرات المطر؛ لكنه يبقى ويعود كُتب له الخلود في السجلات أبد الدهر حتى الساعة، ولو كان في حجم الخردلة ووزن الريشة، أمَّا الظلم فهو عظيم الهيئة، له وقْع الإعِصار، يقتلع ما فعلته حتى من خير، ولو كان في حجم الريشة ووزن الخردلة.

مضَت علية خرساء تائهةً، تفنِّد ما لم تُدركه، وتحتقر الفقر الذي رماها في أحضان النفوس الخبيثة، مع أنَّها لا تملك سوى ألمَها الآن، ولكنها استشعرت بغنى روحها وثراء لا يملكه القادرون، جلست على رصيف اليُتم البائد، واستطلعت مستقبلًا في عينيها ما زال مُبهمًا ولكنه سيكون مشرقًا كمَّا ظنَّت، افترضت رغم أنَّاتها وهوانها أمام عينيها المكوث، وصرير بكائها يلوب ويذوب، ووجه صابر النردي في عينيها يجوب.

لم تعِ حتى الآن فعلته وهي البريئة ذات السنوات الحالمة؛ قررت ألَّا تعود ولو عاد الزمن، وقد انتوت الثأر ولو كان بعد حينٍ كما مُزقت إلى أشلاءٍ في ربيع عمرها، ستعيد ما افتقدت وتنساب مع الزمن الساحق؛ أزالت من عينيها نثرات الدموع الهزيلة، وأعادت لوجهها الضياء رغم ذله، والتحمت بقوِّتها النافذة رغم

حداثته ورغم يأسها .. عاندت، ورغم ذاتها .. بقيَت، انتسيت كل ما حدث وعزمت على ما أرادت.

استنجدت بأبيها وأمها داخل قرارتها ما وجدتهما! لم تجد في الدنيا لها مأوى يظلل ضعفها، لم تستطع أن تقتل مَن أضاء الخِسة داخل عرينها، وفرَّت بحياتها المُنقضية وتزوَّدت بالذكرى، سوف يأتيها شعث الحياة عمَّا قريب، تحت أرجلها ستنمو أعناق الرجال، يومًا ما ستبقى الأنثى الغالبة .. القوية المُعاندة، ليست الضعيفة البريئة، على الرغم من موقفها حينئذ لم تثنِها العواقب، لم يخالطها شعور العودة أو الضعف، فقط قررت أنَّ لينِها لها وحدها، أمَّا الناس فلهم القسوة.

ثابرت الآن وانتظم نبضها وأزيز هواءٍ ثقيلٌ على النفس تزفره بحُنقٍ، هدأ روعها فاستكانت ومكثت تمسح شعرها -المموج كبحرٍ هائج- بخفة، توقَّف سريان الدموع المُلتهبة، عادت مياه وجهها البراقة شيئًا فشيئًا، فغاب العبوس وانهدم وارتفع مكانه الرضا، حتى لاح بخيالها الذهاب إلى بيتٍ لم تُفكِّر فيه سوى الآن.

(١٤)

عادا ليس كما خرجا؛ ثمَّة يمامة أُنتهِكت براءتها منذ قليلٍ بذات المكان، على فراشه .. بين جدرانه. دخلا ينشُران منارات الضحك بين أنهار الخِزي، يُقرئان البيت السلام وسط آياتِ الظلام، لم

يعمل بما تعلَّمه، لم يحقق في القضية محِل الدعوة، لم ينظرها بعد، أو ربما لم يتحيَّن وقت جلستها، التحق بصوتها وهي تسأل فأجاب:

- هو عم صابر وعلية فين؟

- تلاقيهم خرجوا!

- وعلية هتروح فين دلوقتي؟

انطلق السؤال ولم يعد له إجابات تفلح؛ فسبَّ السبب الذي تركها لأجله، وسبَّ الظروف والأوقات، ثم جلس وأردف:

- أوقـات.

جلس الزمن معه كما جلس هو، بعد أن دبَّ في النفس الركود والهوادة، وفرَّ إلى ملاذٍ يأمن فيه على روحه الخاوية؛ فاقتضى الأمر مُقابلة حبيبة العمر الآتي والراحل، البصمة التي تترك أثرها في النفس كظِل الهوى الذي لا يُرى، هل للأيام أن تستقيم دون رؤياها؟

انفجر ما خبَّأه إليها داخله فلم يستطِع النُباح محله؛ فاستدرك وجزع فهبَّ فزعًا ولهث إلى مُبتغاه شبه اليومي، وهو في غاية سعادته نسيَ ضلعًا له إذ تحقق له حُلم الوصول لطريقٍ تهافت عليه يومًا ما؛ فاتجه إلى حُلمٍ آخر أغشى عينيه عن أقرب ما كان له، امتطى بُساط الزمن واندفع مع النزعة تظلله غيوم الحب وتَهجوه اللطمة المُخبأة.

(١٥)

اشتد لعاب الفم، فكان لا بدَّ من ابتلاعه أو بصقه، توقَّف عند بيت آيل على السقوط، نظر إليه في نهمٍ وتريَّث، كم عانق العمر واشتد به الأمل! كم مرَّ عليه من زَخَّات المطر! كم من فرحةٍ كسَاها باحتضان! وكم من شرذمةٍ تلقَّاها باحتقانٍ!

أمَّا إليه فقد أصغى بإذعانٍ فارتكن بظهره إلى أحد الأركان، وعاودته حينها الكثير من الأشجان لطمته في ومضةٍ؛ فاسترق السمع من جدارٍ يعاني الشقوق المرسومة بانتظامٍ، فذُهل وجَهل الصوت الرامي، ضميرٌ توقَّف وقلبٌ ينزف وعقلٌ مُشرَّد وخوفٌ يزود، ثمَّة أحاسيس في جسدٍ هشٍّ، ثمَّة مشاعر في وجهٍ أجش، ثمَّة خواطر، ثمَّة أواصر قد انفصلت لتوِّها ومُزقت من أيائلها. استمع إلى داخله فامتدحه الخواء، وعاد قاصي البصر إلى الفناء .. إلى العدم .. إلى تلك الشقوق المُنزوية التي عبثت بذلك الجدار وانتشرت كالسرطان، يزورها الأمل بلا جدوى، يُحاكيها الزمن، تمضي الحكمة على الأشياء بعد فقدها، وتزور الملائكة الشياطين حين الانتهاء، فها هو يمضي بلا استماعٍ من الشقوق؛ فقد جفَّت الجدران منذ أمدٍ بعيدٍ وعانت مرارتها، والآن قد آن الانهيار وقد شارفت الأيام فوق رأسه على السقوط.

بصق النردي -عند انكسار الضوء على الشقِّ- على هيئته ومضى يترنَّح بين الأهوال، لا يعلم ما يمضي فيه شيءٌ قد ذوَّب ندمه داخله

تُرى.. هل ضميره؟ وهل صدق الوغد إذا وعد؟ علَّه يعود يجد الأشياء ما زالت تنتظر والجراح تُنتسى، والذنوب تغتفر!

(١٦)

عندما تراءى له ظلها ابتهل في حنينه كالناسِك، هي الأوقات التي تمر عليه ولا يدرك لها قيمة، والأشواق التي تلحق به أينما كان قويمة، هي اللمسة المُشعِّة والحنين الرابض والتبرير المؤكد لكونه هو، ما اشتد عليه شيءٌ إلَّا وكانت له.

زفرها خارج صدره كي يهدأ:

- أوقـات.

استعد وجهها على الإشراق فكان:

- وحشتني يا فايز.

ساقه الهوى فغلبته الألفة:

- تفتكري دي كلمة توصف اللي بيا؟

سألته بلينٍ مُستديم وبقلق مُحبٍّ:

- عملت إيه؟

أجاب بفرحةٍ مُرتشفة:

- كالعادة .. الأول على الدفعة.

بفرحةٍ عاتية:

- ألف مبروووك يا فايز، عقبال الحلم التاني لما يتحقق قريب.

في سعادةٍ بليغةٍ أردف:

- أقرب ما تتوقعي وأسرع ما بتحلمي.

بلهجةٍ حالمةٍ هـائمة:

- يا ريت يا فايز.

مُباغتة:

- مالك يا أوقـات؟

بقلقٍ ووجومٍ:

- مالي؟!

بوجهٍ مشبوبٍ بالتقرحات:

- حاسك مش طبيعية!

باستفهامٍ مُتنكِر بسؤالٍ، وكف يديها يرتعش بجهدٍ:

- هكون مش طبيعية ليه؟

بحيرةٍ سائغةٍ:

- أنا اللي عايز أعرف!

وبصورةٍ شبه مؤلمةٍ أزاحت دموعًا على أهُبتها:

- علية .. فين؟

باندهاشٍ وذهولٍ:

- علية!

بريبةٍ:

- آه، إنت شوفتها النهارده؟

مُدافعًا:

- أنا كنت الصبح في الجامعة وسايبها نايمة، رجعت ملقتهاش.

باستجوابٍ واضح:

- سألت جوز خالتك عليها؟

باستفهامٍ كمَن يتساءل:

- رجعت ملقتش حد في البيت!

- في إيه يا أوقات؟ إنتي تعرفي حاجة؟

باطمئنانٍ زائف:

- علية عندي من الصبح.

بفتور قلبٍ:

- ليه؟ مالها! حصلها حاجة؟

بوهنٍ وبكاءٍ مُلتاع:

- علية بتموت يا فايز.

(١٧)

في الممرات السوداء الفاحمة، تبتهج المخاوف، تشتعل الذكريات الغابرة، وتمُر الأرجل بخطوات فتىً ينازع هواجسه أمام رؤى ورقة الامتحان الأخير، بعد رجّة وهنٍ أصابت جفنه الأيسر و"تنميل أطراف" جعله مستقرًا محله، وسفعة "أدرينالين حي" داخل القلب الأشر، بدت حركة يديه العصبية واجبة، ومسَحة فمه بطرف كُمِ جلبابه الرمادي طبيعية، أمَّا إلى حدقتيّ عينيه التي باتت كتماسيح غارقةٍ وسط تماويج الدموع المنزلقة إثر "قطعة أفيونة" موضوعة بعنايةٍ جانب جراب الفم فبدت اعتيادية، أمَّا إليه فقد غاب في الممر، وجرَّ رجله إلى باب الإعدام، إن خرج فهو أقسى عليه من المكوث، فيا ليته يحتضر الآن!

- اتحرك يا عم سلامة .. مالك؟

بذوبان جليد الخوف:

- عنيا يا خرّاص.

بمرحٍ ثقيلٍ:

- مش لازماني .. ورقك لازمني.

بنبرةٍ عاتيةٍ ولسعة شغفٍ تحرق قلوب الأحياء مع لطمةٍ عابرةٍ على صدغه -من الخراص- تبرز العبور وكأنَّها تحية وصولٍ، تلفع بالصمت واضمحلت رؤيته في الظلام القابع إلى أن امتزج الظلام بالضحكات العالقة بأجسادٍ يملؤها الخدر.

اصطكت ساقاهما ولفّت على نفسها بميوعةٍ، بهُتَت الرؤيا جرّاء الدُخان المُميت، رُمي الصمت بالجمع فاستعمل اللباقة مُكرَهًا، رفع يديه بقِحة بعد التحية غير اللائقة ومضَى يرتشف المياه في تملُقٍ وإذلال، دفن فمه لبرهةٍ مع نظرةٍ أجادت البحث في الوجوه عن المرجو، حتى انقشع الخوف من جنباته شيئًا فشيئًا ثم حرَّك الركود.

- منورين يا معلمين!

ألقاها أقصاهم يسارًا:

- إزي حالك يا عم سلامة؟

أعادها مُقتضبةً، وبوجهٍ شاحبٍ مُمتطٍ الاستهجان على الرغم من تردده وتودده:

- نحمده.

سأله أحدهم بارتيابٍ وحدَّجه بنظرةٍ أذابت شحوم كرشه المُتدلية وزادت من لهيب الشعر الأبيض على رأسه، في وقتٍ ما صمت الجمع باستمرارٍ زاهد وقدومٍ باستماتة على زفر الدخان كوسيلةٍ للحفاظ على المُنفلت منه .. من الغرفة:

- شيلتك تِقلت.

أجابه بيُسرٍ وطلاقةٍ يُحسد عليها:

- حصل مني تقصير؟!

أعادها عليه بمقدرةٍ:

- لميت عكّك؟

لحق بهم قبل أن يضيع الوعي ويُلحَق به؛ فأسرع وأجاب طبقًا للمُتعارف:

- اتلمت واتفرقوا الأحباب!

نهَر نخوته الغائبة:

- لأ بس إنت طلعت ونعم الصديق، عملت اللي عليك معاه زي عادتك.

ببراعةٍ وانسيابيةٍ وبابتسامة رضا تامٍ أردف:

- دي صدقة مخفية بقى متخلوناش نتكلم عن نفسينا.

زفر الجمع بحنقٍ في وجهه زفرةً أفحمت وجهه البارد:

- وأما إنت شهم وبتتصدق على الغلابة، مدفعتش الزكاة اللي عليك ليه؟

فيتؤده متصببًا عرق الخوف:

- الزكاة واجبة، بس لما الحال يرتاح، لسه كان عندي واحد بيخلص، واجب عليكم تاخدوا عزاه.

ألقاها -القابع يمينًا مُتخفيًا- بزجرةٍ جذبته من مؤخرته:

- وإنت أبو المجدعة أوي وصاحبك غالي عليك، وتستاهل تبقى في مكانته عندنا وأكتر حبتين، ريحتكم إنتم التلاتة فاحت وأهو واحد وغار.فاضل "الكابلس" اللي هيحنوله وهيوحشه طلّتهم العنّاب، شكلك هتتبتر وتبطل، إنت ليك سقف يا روح

أمك تلعب تحته بمزاجنا، تشب وترمي دماغك فوق، ويبقى نفسك تقب .. تتلَب، عملتها قبل كده إنت وصاحبك والنطع اللي جنبك، بس ده آخر إنذار ليكم، إحمد ربك منك ليه إن الحُكم مطالش حد منكم، ومين عارف بكره يطولكم، بس مش هاتعملوها تاني المرة دي بس الخرَّاص زاركم وده مبيطلعش ببلاش، بس الزيارة الجاية مش هتبقى إيده فاضية، هطلع على جِتتكو القديم والجديد، أهو نخلص من ريحتكم النِتنة، ومش خسارة فيه تمنكوا إنتم الجوز، متقلقوش إنتم رخاص أوي.

تسمَّر الضيفان محلهما، لم يعيقهما على الانسلات من تلك المكانة سوى ذلك الجسد المحفور في أرض الغرفة خلفهما ينتظر غروبه (الخرَّاص لا يحرِّكه سوى المال، ويتم الدفع من قِبل المُرسل إليه بعد انتهاء الزيارة، وإلَّا القضاء عليه؛ ولذلك يتم الاتفاق معه من قبل العديد من التجار لضمان وصول الزائر لأنَّه يلهث وراء فريسته حتى يجدها حيث يعتبرها "أكل عيشه")، لم يستطع ضاحي في تلك الجلسة سوى ابتلاع ريقه بصوتٍ مُحتقنٍ، لم يوجه إليه حديثًا يسترعيه، وبما أنَّه ظِلٌّ ليس أكثر ولا رأي له ولا حاجة إليه، فعمِل بما هو أهلٌ له؛ فرَّ الضيفان من الغرفة تمامًا يسبقهما الدُّخان على بابه، استدرك سلامة جيدًا أنَّه لم يتعرف على أحدٍ منهم سواء من الوجوه المُتلفحة بالدخان، أو المُتلفحة بالصمت جرَّاء لسع الأفيون.

(١٨)

مع تراكم تقلبات الزمن فوق رأسه الهش، نحَّى جدوَل العمر جانبًا، واكتوى بوقفةٍ ما وقَفها من قبل مع نفسه، استند الأخوان في عزِّ ضعفهما على صمتٍ مُصمت، وبلاهةٍ واهية، وشُحناتٍ مُفعمة. دارت أعينهما بالكلمات فزعًا، تمرَّد العبث وطالت المسافات بُعدًا، قطع صمت وُدّهما العرق، هبط مُتأبطًا أسئلة - دون إجابةٍ شافيةٍ- من جبينهما علَّه ينقذ الموقف، وحلَّ الهمس الخفي، يُحدِّث كلٌّ منهما نفسه في وداعةٍ، واسترجعا الأيام المُنزوية في تحرياتٍ سابقة، ماذا حدث لتنهال عليهما تِباعًا تلك العطايا؟ انتشرت في الضوء الخافت مع النظرات التائهة دموعٌ عاتية، لقيها بعد بُعدٍ مُستطردٍ، فقرَّبها ووضعها في حضنه بإحكامٍ جوار أخته، وما زال الخوف ينضح من جنباتهم:

- خلاص يا علية، اللي حصل حصل، من بكره هنشوف مكان تاني نروحله.

لطمَها الفزع وتمام الانهيار ثم استفهمت باندهاشٍ جمٍّ وهي تخرج من داخله بعنفٍ:

- نشوف مكان تاني؟! نهرب؟! هو ده الحل؟! هو إنت مش هتاخدلي حقي؟

فاستلهم الشجاعة وبرَع في الاندفاع حتى أتقنه:

- مش هاخُدلِك حقك؟ أنا مش هنام لحد ماجيبلك حقك، ولا هيهدالي بال غير ما أنتقم منه، لكن .. ها .. هانستفيد إيه لما

ده يحصل؟ لو خدتلك حقك ودفنته أنا هدخل السجن وإنتي هتتفضحي، هتطمني على نفسك وأنا مش معاكي؟

هالها وقْع الكلمات الشاهِقة وذهَلها الاندفاع المُنجرف إلى السقوط فبَكَت متأوهةً، بعدما تمخض الأمل في جوفها منذ بدء حديثه:

- ما انت كنت معايا وحصل اللي حصل! وياما كنت معايا وملقيتكش، كنت تايه في ملَكوتك، وعايز اللي يقف جنبك، كنت محتاجة ضهر ملقيتش منك غير جبن، كنت محتاجة حنان بسيط يعوضني على اللي سابوني! ملقيتش منك ولا كلمة تمسح بيها دموعي، على طول بتفكر في نفسك وسايبني، ودلوقتي بتقولي هستفيد إيه؟

انسالت رجولته كشظايا أجهز يُلملمها من أعلى هيئته إلى أن محقَت بريق وجهه، تطلَّع إلى الحقيقة بعينٍ غائرةٍ مُستعميًا فاق كلامها حدَّه، استشرى داخله كهيروين ذاب بأوردته ونفذ إلى رأسه فنخر قاعها وشرد الذهن ببلاهةٍ عالقةٍ فغاب مع الزمن، ثم استجمع شتات الكلام ليجيب:

- أنا مش جبان يا علية، أنا بفكر بالعقل، وباللي فيه صالح لينا، تقدري تقوليلي هنروح فين أنا وإنتي؟! إحنا ملناش مكان نروحله، أبوكي وأمك الله يرحمهم ويسامحهم مسابولناش غير المكتوب وأدينا بنشوفه، عايزاني أعمل إيه؟ أروح اقتله واجيبلك حقك! موافق، على الأقل هلاقي مكان أبات فيه، وهبقى عرفت

مستقبلي، أما إنتي يا ترى عارفة هتروحي فين؟ ومستقبلك هيكون إيه؟

عاد إليها البكاء فنهَرته باستباحةٍ، مضَت تذرُع الأرض جيئةً بعد أخرى تلوم عمرها، تلوُذ بالأيام السَّقيمة تجاهِها، تذود بالحياة المُشرقة الآتية رغم أنينها الدفين؛ فاستقرَّت على الوضع الراهن وتقوَّلت على لسان حالها فنطقت فاقدةً للوعي بعد إرادةٍ ضائعةٍ ونفسٍ ذاقت الشقاء واستلذّته:

- اللي تشوفه يا فايز، إنت أخويا الكبير وأكيد عارف مصلحتي فين، أعمل اللي إنت شايفه صح.

تفوَّهت بما أراده ولكن لا يعلم لِمَ هو الآن مُعذّبٌ؟ فتقلّب بعد ساعات الصمت التي مضَت دقيقة حتى طرَح:

- خليكي قاعدة يومين هنا، لحد ما أدبر مكان يآوينا.

مضى من أمام عينيها مُتحاشيًا النظر داخلها؛ حتى لا يفقد أكثر مما فقد، فدَار مُلتفًا مُلتحفًا بشظايا رجولةٍ بقيت لتُخرجه من أمامها سالمًا، لطمته عينا حبيبته أثناء خروجه فتوثب من أعلاها حتى لا تتلقاه بأسئلةٍ لن يجد منها مفرًّا، ولمَّا غلبته الأعين قبل أن يدخلها ولمَّا شلّه التفكير، غادَر متجهًا إلى مكانٍ يحمل عنه ما به من عناءٍ.

(١٩)

أطعم مذاق للنجاح ليس الذي يحدث من المرة الأولى ولكنه ذلك الذي يأتي بعد تكرار الفشل لأسبابٍ مختلفة؛ فسريعًا ما تُمحى الأسباب ويُستساغ ويثبت في الأعماق ويغرز في النفس الإصرار ويعقبه تكراره، وأردأ أنواعه ذلك الذي يحدث صدفةً من أول مرة، سريعًا ما يذهب طعمه ويذوب ويترك مرارة الفشل في الفمِ لاذعةً ستترك أثرًا حتى بعد زمنٍ، ويعقبها تكرار الفشل حتى وإن اُستحدثت الطرق.

مضيا آنسَيْن بما حققا من رؤية الجمع مُلتئمًا، هو بذاته ما أرادوه، ليتحدد لهم أين ستبقى الحرب مُشتعلةً وعلى أي جبهة ٍستكون؟ ولمَّا همَّا بالرحيل من تلك الغرفة المُغلقة، انحنيا مرورًا قبل انحنائهم توقيرًا، فلمَّا نجيًّا بأرواحهما، تنفَّسا الحرية وحدهما في عزلةٍ فوق جبلٍ ناءٍ بالمُقطم، ما يمنع عنهما اقتراب الأجل هو الابتعاد، تداعت النظرات المُسترقة همًّا بالحديث، استعجلا الساعات لتمضي ولكنها مُتوقفة، ولمَّا اطمأنا للبدء توقفت كلماتهما، استجدى سلامة الحديث وهمَّ:

- كده كله بقى على المكشوف يا ضاحي، اللي كُنا عايزينه يحصل حصل، والجمع اتلم، وبانت لبِّتها، اللعبة اللي بخططلها من سنين هتتلعب، ونطير بعدها في العالي فوق أوي، بس إيه اللي وعَّاهم باللي حصل؟

استحلب لسانه عدة مراتٍ حتى وجده في ناحيةٍ قاصيةٍ شاردًا، جذبه برقةٍ قبل أن يبلَّله ويستدعي الكلام على حافته:

- هو فيه حاجة بتخفى عليهم، دول ولاد أبالسه، أنا خايف يا سلامة، بلاش منها العملية اللي هتودينا في حديد دي، هتوصلنا لفين تاني دماغك؟ مش كفاية اللي كان! الواد حميد اللي طلع مرشد وسرَّب عنك معلومات والله أعلم اتعرف إيه تاني ولمين؟

بَخَّ سُمه في جوفه وابتلعه في كيدٍ، بُحَّ صوته وانتُهكت أحباله، عصر قلبه ومضغ الاستيعاب حتى بصقه في وجه الأرض الشرسة:

- تُجار القلعة مش هيسيبوني، ولو طوِّلت وهبِّلت هيمطوحوني، مفيش حل غير الحل ده، واللي راح راح، محدش بيتعلم من ابو بلاش، عشان تبقى تسمع كلامي لما أقولك إني شاكك فيه، حظنا كده في أصدقائنا يطلعوا أندال.

جرت المياه في حلقه، أغرقت فيه وتلهَّف بنباحٍ مُملٍ:

- والله ما في ندل غيرك! ويا ترى عبده مرضيتش تساعده عشان كان ندل بردو؟ كفاياك يا سلامة، كل فترة يظهرلنا واحد يدخل في عبّنا، ينخر في اللي فات، والله أعلم هيرجعوا في اللي فات لحد فين.

أطلق بوجهه ابتسامةً مُنحسرةً عند مُنعطف شاربه وغمزه بعينه اليسرى بدهاءٍ ثم تهادى:

- والنعمة ما حصل، سيبك من اللي كان، هكَّيته، متقلقش، كل السوس مدسوس والحل عندي (وضع كفه السمين على صدره في لحظات تجلٍ عابرة).

تاه في عباءته الرثة وطفحت على وجهه أسرار البلاهة:

- إيه هو، أبوس إيدك انطق!

دمدم في رخاءٍ طلقٍ وبضحكةٍ سمِعتها الصخور المُجوفة:

- هنلعب السهل .. هاهاها.

غار الضاحي في تيهٍ وشرودٍ أزلي وصمت بلا وعي مجاراةً، وغرَّ الثاني بقوّته استنادًا لقصدِه.

(٢٠)

خرج فايز من حسابٍ سقطت فيها كرامته وتناثرت كالأشلاء على جدران الأرض العاجية، وطفق يخصف بخزيه وينتحب، انتشلته الحياة من غياهبها إلى مداره فلازمه دون أن يحيد، ولكنه ما زال يدور ويدور هكذا ظنَّ أن تلطمه بكفيها دون أن يسقط، أم هو بالفعل سقط ويتذكر؟ لم يُفق ممَّا يحمله بين ضلوعه، ولم يعِ بشيءٍ حتى اجترته قدميه وجاءت به إلى هنا .. مسرح الجريمة.

- خد أختك يا فايز وابعد، أنا مش مصبرني عليك غير النصيب، حاكم الجواز ده هروب، أهون ما نتلطَّم ويحصلنا نفس اللي حصل لأختك ويمكن أكتر، يمكن أمك عملت اللي معرفتش

أعمله، وخدت اللي بتحبه وبيحبها، إنما أنا .. حظي كده واهي حيطة مايلة والسلام.

مصَمصَت شادية شفتيها بأسى وهي تنطق جُملتها الأخيرة، استمر الحديث ولم يجد له نهاية، قابلته على باب بيتها دون أن يزيحه فضوله ليرى الجاني، وقلبها اختُطف وتفطَّر على ما حدث، ولكنها لم تستطع مواجهة زوجها هو بالفعل لم يَعُد حتى الآن، مضَت دموعها تنزلق دون فائدة، ماذا تنتظر أن تفعل؟! أتُدركها الشجاعة أو يدرك ابن أختها فيبحثان عنه ليأتيا برأسه ويضعاها مع إعدامهما له في قدحٍ واحدٍ؟ أم تُنتسى الفِعلة وتمر ويمضون جميعًا وقد أسكبوا عليها غبار المُستقبل فتُندفن ولا يبقى لها أثرًا ماديًا، وإن حدث فكيف تُدفن ركام الأنفس إذًا؟

- اكفي على الخبر ماجور يا ضنايا، أنا مش قد اللي هيحصل ولا إنتي قدّه، العقل بيقول إننا ننسى ونبعد، مش عشاني لوحدي، ربنا يعلم إنتم زي ولادي، يمكن ربنا عوضني من عدم الخلفة بيكم. طمِّن أختك يا فايز واُقف جنبها، أنا خايفة أروحلها، مش عارفة أروحلها بأنهي وِشّ، أختك ملهاش غيرك ولا إنت ليك غيرها، اتحاموا في بعض يا حبيبي وربنا يعديها على خير، لحد ما نشوف صِرفة في المصيبة دي.

حدَّثها بفمٍ مُقتضبٍ وكلامٍ شفافٍ ذائب، فلم يهضم كلامها ولا هي استمعت إليه، ما عانته بفقد الأمومة فقدته مرةً ثانيةً، مضَت إلى جدارٍ يئن قد آل للسقوط، ومضى هو إلى ما سوف يمضي إليه وهو لا يعلمه. ولمَّا عادت وتذكرت ما سردته لها علية في مكالمةٍ

لم تطل، توقَّعت مُشوَّشةً بالتفاصيل، ذهُلت وجمدت وتوقَّف سريان الدماء في الأوعية المُنكمشة، فاحت في الأركان نسائم يلفظها الجسد العفيف، ترفضها الفطرة السليمة، وترتضيها النفوس السقيمة؛ فانتابتها قُشعريرةٌ سَرت مُهمهِمة بين فكّيها، فغشيَها الانهيار ومكثَت جوار باب الغرفة، تفترش الأرض العاجية وتنظر للفراش ببؤسٍ وأسىً.

(٢١)

انزلقت ساقه في الطين اللازب عند المرور عمدًا، لم يعلم أنَّه سيسكن تلك الأرض من قبل أو يطأها صدفةً، والآن رغمًا عنه أتاها أمرًا، كثيرًا استمع إلى أهوالها وغاص في الحكايات والقواضي المشوبة بالغموض، وما انفك غموضه حتى تلك الساعة التي قادته الأقدار إليها، سيق إلى تلك الجدران العتيقة والزنازين المُزخرفة، وفي مكتبٍ محيطه لا يتسع لطموحه ولا ينحني لحُلمه، تملَّكه السكون وهو يرمُق المبنى -بحيطةٍ- من الخارج، فاغرًا فاه مُستنشقًا رحيق القِدم في الجدران والآثار، كم عامًا مرَّ على تلك المئذنة الشاهقة؟ كم لطمة هواءٍ تشرَّبها ذلك الجدار العتيق! تبختر على أرض الجيوش الرنَّانة التي وطأت تلك الأرض منذ ما يزيد عن قرنٍ من الزمان، سقط في بئرٍ عميقٍ وهو على الأرض الصَلبة، وها هو يتجلى بمنطقة الصليبة بعدما ترك لتوِّه السبيل على يساره، ينظر هنا وهناك، قبل أن يحيد طه باشا السيوفي يمينًا

ويتجه صوب مكان عمله الذي وُزع إليه حديثًا كمعاونٍ لمباحث المنطقة بقسم الخليفة، بعد أن أمضى فترة تدريبه في الأقسام المجاورة، أجاد فرز المحاضر واستخراج دفينها من بين الأسطر العريضة، مَهر في استخراج المعلومات المهمة من الأفواه المُتعثرة، فسطع ضياؤه كمُعاونٍ ماهر ذي أنجمٍ واعدةٍ، مُبشرًا بمستقبلٍ مُنضبطٍ، مُحتقنًا بالترقيات السريعة.

(٢٢)

زفَر فايز هواءه بِحنقٍ بالغ الشدة فارتطم في الفضاء، استقام بعد اعوجاجٍ ماثلٍ، اشتد عوده مع شهيقٍ وانٍ، طقطق فقرات رقبته المُلتوية، بعد أن شبَّ وعاد مُجردًا، لا شيء يستره سوى الأيام القاحلة، ما جعل قدماه تجتر اليأس والخيبات، هو ضعفه القاتل وجُبنه المُستشرى ونظرة أخته إليه، تلك النظرة الثاقبة التي تخترق ما يحترق داخله وتعكِسه داخلها، ولا تتفوه إلَّا بالأَنْصُلِ الحادة، تلك التي نفذت بعمقٍ إلى جُرحه المُستحدث جرَّاء ضعفه؛ فكان لزامًا عليه أن يعود إليها ببضع قطراتٍ من دمه كحقٍ لها ولا يأتيها بخُفيّ حُنين؛ فهو لا يحتمي بشيءٍ صلبٍ يدعم كلامه إليها، ورده القابض على جمرة قلبها المشتعلة غائبًا.

أمَّا إليها فجلست علية تحاكي ما حدث وتستعيده فيتملَّكها الندم الجمُّ فلا هي عادت لأبويها بالحنين، ولا تذكَّرت أخاها بالفطرة، وكأنَّها في غنى عنه وهو في غنى عنهما، فما وجدت حلًّا

سوى التشبُّث به إلى أن تقترب النهاية ويفترقا بلا حديثٍ يُعاد. وبدون ثمَّة ترددٌ افترقا بالفعل منذ آخر لقاءٍ وتهيئا على الانتهاء، ولكن بينهما أواصر في مهدِ الانفلات، ربما هي التي تجمعهما، وربما أيضًا هي التي تُفرقهما الآن.

(٢٣)

مع صراعِ الكلمات السابحة بين الأوراق تشيع الفتن النَهمة بعذوبة، وتلتقي الألحان بالألوان الزاهية، مُلتقى الأفكار المُشعِّة من بين السطور، ترتحل ما بين ممراتٍ وفقراتٍ تنشر النَميمة البيضاء الصالِحة للبقاء حيةً وسط زخم الحياة. يقبع أمامه ورق الدِشت مُسترسلًا رغم غياب أوان الورق ولكنه يصِر عليه، في إصرارٍ وتكالبٍ على العمل يمضي، رغم سعي الجفن على الانهيار والجسد المُنهك المُتهالك يستعيد ضياءه كما لو أنَّه بمرمى الفجر، لا ألم سوى الرغبة في الإيضاح. الأستاذ يركِن إلى الزاوية ينهض بعد جلوسٍ استطال، أو يجلس بعد نهوضٍ واجب، تراكم عليه العمل منذ يومين؛ فهو لم يكد ينتهي من مأموريته التي استوجبت ثلاثة أيامٍ، مضى في اليوم الثالث ليفرغ ما بجُعبته من حوادث جذبها معه كاملةً بلُغةٍ مُستفيضةٍ من ديوان وزارة الداخلية التي اعتاد زيارتها، ليجلس جلسته تلك بجريدته الشهيرة ذات الصيت اللامع والاسم المركز والبينة الرسولية.

استلم الصحفي شريف سيف ورقة "السبعينة" (تلك الورقة البروفا التي تراجع قبل النشر الفعلي) دقَّق ما بها، تعذَّر عليه رؤية الفونت الصغير؛ فجذب نظارته إلى وجهه، قرَّبها بيسرٍ، ثم أشار على نقاطٍ باللون الأحمر، أعطَاها لمَن خلفه ليكمل التعديلات .. هكذا اعتاد ودام العمل على تلك الشاكِلة. مُحققٌ فذٌّ بدرجة خبيرٍ، يفنِّد الآراء ويهدم الحقائق الرابضة في العقول، يفككها ويعيد ترتيب المشهد بلباقةٍ وأصابع خبيثة تفطن الثغرات المُخبئة.

(٢٤)

انشغلا بالعمل الشريف حديثًا وقد ابتعدا عن ممرات الخطر، تحايلا على القدر، ربما يبتعد! أو يغفو عنهما زمانًا يحتضر، تجرعا الصبر الحنظل وما جزعا، تخفيًّا عن عيون الصقر؛ عساه لا يقبض أرواحهم الهائِمة داخل أجسادٍ ينمِّيها الزمن وتقوِّضها الزلِل ويثقبها الغدر. تفاوتت النفوس ما بين مُريدٍ ومُستزيدٍ، فها هو ضاحي قد بدا فَرِحًا مُغتبطًا بما آنسه من راحةٍ للنفس بعد عذابٍ دائم، أما سلامة فهو في استراحة مقاتِلٍ شرسٍ ويُعاود، بل ويرجع ليس مثلما كان، سوف يعود كالجائع يلتهم السوق التهامًا مُزمنًا، ربما هذا ما جال بالأنفس، وهيهات أن يعود الرجاء لغريقٍ بعدما انقطع أمله في الوصول للشاطئ .. أم تُرى سوف يأتيه القوة الإلهية من الغيب ويستمر رجاؤه في التدفق؟

(٢٥)

عاد إليها بغتةً تجوَّل بعينيه بحثًا عن طعنةٍ من أخته، تتحاشى النظرة أن تقفز فتسبح مُطمئنةً آمنة، رَمَق أوقات بخطفةٍ استلزمت ثانيتين مرت كليالي الشتاء السقيمة البطيئة، فاستيئسَت منه ومنها تِباعًا، فقدت ما أحبته فيه فهو في عينيها زائفٌ، لا يستطيع حتى حماية نفسه المُقيدة بسلاسل الضعف وأغلال الجُبن، تحطَّمت ذرات الحب السابحة بالأوردة المُنغمسة بالقلب المكلوم، ربما أتت تلك الكبوة كورقةٍ أخيرةٍ تنفرد بالاستجابة أو .. الانسحاب، محقت كل الذكريات الحقيقية التي عاشها معها، فكان لها لِزامًا أن تنساها إلى الأبد، الآن تنساها بسهولة أفضل من غدٍ؛ فالمَرض إن استبد وتوغل يصعب التغلُب عليه. تغلَّبت أوقات على صدمتها وتداخلت مع هواجس تعبَث بفضاء علية مع زئير الصمت المُوحش، فلكزتها بخفةٍ علَّها تعيدها من صحراء الشرود، اقتربت أكثر ولطمت جبينها فانداحت بقفزةٍ من عينيها فارَّة من وحشٍ خفي ينازعها يبطش بها، يسحقها في قبضته القوية، وهي لا حول لها ولا قوة، تستنجد بأخيها .. يتركها، يبعدها عن وجوده، يكسرها بُعده عنها، وعدم وجوده جانبها إبان خوفها الزاحف من خيالها إلى نفسها الآن، ولمَّا استقر الذهول وذهب بها .. عادت ومكثت تُحدِّث أوقات برقةٍ، لتهديها الأخيرة أسمى معاني الرِفق والحنان، ما كتمَه عنها الأقربون جميعًا فتأوهت علية ودوى بكاؤها

في الآذان كمخالب نزعت الحِس الشجي عن الإدراك العقلاني، فجمُدا جنبًا إلى جنبٍ مواساةً ومؤازرةً دون حديثٍ.

(٢٦)

تسلَّم الضابط طه السيوفي عمله سريعًا، استلزم الأمر بضع ساعاتٍ حتى أنهى"الإستيفا"، واستلم قائمة الحفظ والمفتوح وما تم إغلاقه حديثًا، بعد أن شاعت بعينيه الممرات والرُّدهة العتيقة المُتوارية، والحجز الذميم، والحركات المُرتقبة، فانبلج نوره في غرفته فسيحة الصغر، مُمتدة الأفق بالأوراق والمحاضر المتراكمة، المنبعثة روائحها من أكمامها، المُشتعلة بالحكايات السوداء والقصص الدسِمة، تلك التي يبحث عنها يوميًا، مَن يقبع خارج الغرفة.

- نورت مكتبك يا باشا.

لم يتفوه فمه ولكن نطقت عيناه حين استفهم بنظرةٍ ألقاها بعيدًا:

- شريف سيف -صحفي الحوادث- جريدة "أحداث اليوم".

بنصف ابتسامةٍ مُلملمةٍ وبثقل الحديث على فمه:

- أهلًا، منور.

بطلاقةٍ وودٍّ جمٍّ:

- حضرتك اللي منور مكتبك، إن شاء الله يبقى فتحة خير عليك، ربنا يعينك على المسئولية التقيلة.

تحرَّكت المياه في البركة الراكدة قليلًا:

- يا رب، ادعيلنا، واضح إنك قديم هنا.

توهَّج وجهه فانطلق وجلس:

- يااااه، من يجي سبع سنين، الدايرة دي أصلها قدَري، هنعمل إيه يا باشا أكل عيشنا.

تورَّد وجهه واطمئن:

- واضح إني هحتاج أسمع منك كتير.

أعاد له البَسمة الضائعة وغمرها في وجهه المكسوّ بالحُزن:

- أوامر يا باشا، يشرفني.

شريف سيف يكبُره بعدة أعوامٍ، ما وضع فيه الخبرة الكافية والهيبة الغزيرة، برغم من روحه الفكاهية العشرينية، يخبو في ظل العقد الثلاثيني، يزحف بالكاد نحو الأربعين مُدبرًا بحدةٍ عن الزواج بحجة انشغاله الغالب، وصقل الحياة الصَحفية التي لا ترحم، برغم من امتلاء الأجواء حوله بالمُلفتات، برغم كثفها بالحوادث اليومية المُحبطة تلك التي لازمها منذ سنوات، واعتاد ألَّا ينام دون لمِّ خيوطها اللزجة، اجتره ثوب الوحدة من أنمله، وبرع هو في الانجِذاب إليه، تلك الشِباك العنيدة التي تسحَب من الأعمار، اصطادته بحكمةٍ وخِفةٍ مع استقرارٍ زائف، يُنازع هواجسه مع الوتيرة المُشردة.

(٢٧)

انتظرا أن تهدأ الأجواء فاستقرَّ محله وربط الخُطا، لا يوجد سواه الآن بالمكان ذاته، الحاج سلامة وضاحي لم يحضرا كعادتهما، منذ تلك الليلة وما زالا لم يأتيا، تلك الفرص التي تسنح دون انتظارٍ، ابتسم الخاطي بدهاءٍ وسريعًا ما اتسع فوه ونبض قلبه، وعزم على الاقتراب أخيرًا، وهكذا خطا الخاطي وتكاثرت خطواته المُتثاقلة الزاحفة حتى امتثل أمام الخزينة الضخمة، فلمَّا رآها اختلج من تعداد الأفكار التي ضربت رأسه، فتلهّج وأدار مقابِضها ذات الاسوداد الكبير، ولمَّا أجهز عليها ليديرها برفقٍ تمنعت، فتغاشم، فاصطكت وزأرت بصدئِها المُتسع، وزيتها المُنتهك فحركها عديدًا، ولطّخ بيده أرقامها السرية المُعلنة من قبل؛ فانفرجت عن اتساعٍ فأثمرت ما أضمرته سنينًا داخلها، تلك الأوراق الصفراء الذابلة ذات الأهمية المُلتهبة، أمَّا النقود فلا أهمية لها، سريعًا ما قرَّب من عينيه الأوراق، ذاكرها وكأنَّه على وشك الإجابة عنها، ولمَّا انتهى، جذبها لحظاتٍ نسخ منها عديد الصور، ثم ليدركه العناء بعدها.

وضع الأصل في مكانه بحذرٍ عميقٍ وأداءٍ رفيع، وأعاد كل شيءٍ أفضل ممَّا كان عليه؛ ربما يكون أعاد البصمات لسابقتها ومسح من عليها رائحته وشذاه، وتحرَّك مُفعمًا بالسعادة والخوف تشوبه لحظات الغدر كنوبات الصرع، لا يستطيع التحكم في نفسه، فكان لِزامًا على مَن حوله تعرِيَة جسده وإزاحة ما بداخله وتسميته خاطي؛ فهو كالبشر خَطـَّاء ولكنه يفوقهم في كثرة الخُطى نحو

الخَطأ بقصدٍ أو بدون، ثم تنزاح عنه نوباته فينسى الغدر وينسى كل شيءٍ وإن أدرك؛ فنعيمًا بغدره ذي الدلالات الثمينة.

ذهب بالصورة إلى الباب الخلفي فضربه بيديه مرتين بهمسٍ قبل أن يواربه بحذرٍ، ويحني جبينه مُراقبًا ويزدرد ريقه إمعانًا، ثم تلتقط في الظلام عيناه بعينين تشبهان الغوُريلا السوداء، فتلّهجت الأسارير، وضمَّ نفسًا لصدره بعُمقٍ، ثم استشرى النور بعد اكتمال النظر، ولسَعه الأمل كلهَبٍ مادي فأسرع:

- خرَّاص.

- خطي تاتا تاتا، إزيك يا خاطي البرك!

- نحمده يا خرَّاص.

- لسّاك بتعرف تخطي زي زمان ولا؟

- عيب يا خرَّاص، مش قربنا.

- أنا اللي بسأل، لساك بتعرف تخطي؟

دس يده بعمقٍ في صدره وأخرج الأوراق ثم وضعها في طرف يده:

- أساس.

- شكلك هتخطينا معاك، مش عايزين نخطي البرك زيك.

- الخطايا كِترت النهاية قربت، لما نشوف يا خرَّاص، أخرتها معاكوا، ربنا ياخدكوا.

- خليك إنت في الخطـايا، ونهايتك هتبقى سودا، ما إنت طول عمرك بتخطي، احنا ماشين سليم.

انحرف الخرَّاص من مكمَنه إلى عرض الطريق، يسعى لشرٍّ يتم عجنه بلينٍ حتى يلتقمه الخصم ببراءة، ولكن مَن هذا الخصم الذي يسعيان إليه؟

(٢٨)

يستَمر النور في السطوع، والليل في الخشوع، والفجر في الرجوع، كما الذهاب والإياب، كما الشدة والخفوت، كما الدوران والسكون، كما الحال في الحياة في الحركة كل الأشياء تسير، تنطلق، تهفو، ثم تعود، هكذا كانت الحقيقة وستظل، هي الأوقات التي تأتي وتذهب، حدَّث فايز نفسه وحيدًا، جذبه الحديث عن مَن حرَّكت حياته الحزينة منذ أمدٍ، لم تكن له أوقات .. أوقات، كانت له دائمًا كما عوَّدته، كما عهِدته، استظلت به، في كنفه، منذ عرفها ولم يخطئ الطريق، كثيرًا ما احتواه قلبها ودثَّرته أنفاسها الدافئة، استند على صبره واتكأ على حبه ذي القواعد الحديدية الصلبة، وانتظر علَّ الانتظار يأتي بها! عادةً لا يطول الفراق فأقصاه يومان وأقله ساعة، ولكن تلك الأوقات قد طالت وأطالها الصمت، ميَّز في الليالي هيئتها من بين ملايين البشر فالتقطها وقرَّبها إليه واعتذر ومكَث بالانحناء زمنًا حتى احتضر واستيقظ وعاد إلى التفكير فيها، وها هي الأيام ما زالت تدور، وهو ما زال ينتظر إلى متى يا تُرى.. يطول الانتظار؟

(٢٩)

اجتهدت الأيام في المُضي حبوًا، وأجادَت كعادتها الاستمرار الجارف، ما يمحق الأحداث ويُخرس الذكريات الرائعة، فما إن تأهَّب فايز على الفتور والنسيان، رمقته علية رمقةً طفقَت كالمقصلة التي أخطأت شطِئها، وعبثت بالمُلهمات في صدره فحرَّكت ضعفه وبدَّلت حالته، جاءت إليه الحياة رويدًا مُتقطعةً كالسُحب الثقيلة السابحة في جوف السماء، مضى كعادته صامتًا أهتم لا حياة تعتريه، يمضي كجيفةٍ ترميها الأعين من هنا لهناك دون أن يُتخَذ له رأيٌّ أو تعبَث به شائِبة، خطر على باله ما لم يجُل بخاطِره يومًا أو ربما لم يظن أنَّ ما يُرمى إليه يكون؛ شحب وجهه وذبُل جرَّاء فتك الأرَق فسد ظلّه المُتواري خلف السكون أن يُقويه، يسترجع رجوُلته وشبابه بأقدامِهما الفتّاك، ينتهك حرمة أي شيءٍ يقترب منهما، يهفو كالبخار على رؤوس مَن داس عليهم، مَن ذلَّ فقرهم، مَن وسَّع رقعة فقدهم، مَن فرَّط في كرامة وجههم، الجبال الشاهقة تتلاطم كالموج المُنهمل على رأسه، لا هو ينزف ولا يموت يظل كالمعتاد يتذكَّر، فيصبر وينفِر، ويتسمَّر في وحدته كالأغبر المُستحَقر. تُرى.. هل ذهبت نفسيته إلى الجحيم؟ هل فقد الشعور؟! هل ما زال يرى الواقع واقِعًا هو لم يخرج منذ أسبوعٍ مضى؟! مضى محله يخاف النور يرتكن على أرض الغُرفة السوداء التي أجَّرها، يأكل قليلًا، يشرب، يغفو سريعًا ربما هو الهروب من الحياة، ربما التوحُد، ربما الجمود، يزداد الحنق وقت الشفق،

تتبختر الأنفاس الرطبة وقت السمر علَّه يأتي! هل يعود كالسنا يضيء المُقل؟! ليته يعود وكل الجُرح مُندملٍ! هيهات للقُربِ أن يبقى وسط مُر الزخم، وسط استفحال الدمار، وسط القيل والقال.

(٣٠)

لم يطُل طيران الصقر طويلًا في سماء الأرض المليئة بالخيرات، فسريعًا ما بنى لنفسه علاقاتٍ واستعد للهبوط على ظهر الفريسة الضالة المُستكينة. استندت قدماه على الكرسي برسوخٍ باعثًا نظره الحر على الحوائط العتيقة، فاستثمر طه السيوفي الوقت المُستنفر واكتوى بالصبر، طال الانتظار فنفخ في مُحيطة -مقدار انتظاره- هواءً يغلي، أسقط الوقت المُهدر من حلقه ارتداد أفكارٍ كامنة؛ فتحَدَّث إلى نفسه دون خوفٍ، قبل أن يأتي الضيف الذي طلب مقابلته منذ أيامٍ ليعمل مُرشدًا له بعدما هدده السيوفي بما أفرزت التحريات والتاريخ الحافل.

مُحدِّثًا ذاته بترقب:

- شكلنا قرَّبنا ولا إيه، بالسرعة دي مكنتش أتوقعها، على العموم نصيبكم، الترقية كده هتيجى بدري أووي شكلها ... هاهاها.

- في واحد بره بيقول إن فيه ميعاد يا باشا. (تحدَّث بلباقةٍ ظاهرة بدا كآلةٍ).

تحاشى التمادي في ضحكته، أوقف الهواء المُرتد:

- خليه يدخل بسرعة.

أسرع الضيف في الدخول مُلقيًا وجهًا على الأرض، وكأنَّه الخنزير يتحاشى الكرامة، ثم أجهز وجهه أن يعلو فارتطم بعين (طه باشا).

- عملت إيه يا خرَّاص؟
- كله تمام يا باشا، اتفضل.

أعطى له بوجهٍ مُشرئبٍ الأوراق التي تسلَّمها مُنذ دقائق، اتسعت حدقتاه نظرًا؛ علَّه يفهم ولكنه عاد بعينيه خائبًا، ثم استمر في الانجذاب نحوه في هيبةٍ، أغدق عليه بالثناء قبل أن ينهره لبقائه إلى الآن هنا. خرج مُسرعًا بالتفافٍ مُتوهج، أضاء من أول الشارع حتى نهايته بنظرات الخوف، تحاشى أن يراه أحدٌ من التجار أو من رجالهم، سيزيلون رأسه بقبضةٍ، تمتَّع بالحماية في رحابهم، انغمس وسط البشر، فدُفن في القطيع واختفى عن الأعين المتربصة.

(٣١)

يهطُل النور بعد ليلٍ طويلٍ ممُهدٍ بالعذوبة في السماء، فتنكشف الحقائق سريعًا ولا تنطوي الأسرار في الصدور، تكتسي الطبائع بتطبعها المُشين، فتنكدِر النفوس من على أوج وهجها؛ إجادة السباحة ليست قاصرةً على مَن تعلَّمها مِن الصغر، ربما هناك مَن جرَّبها قريبًا وتبارى اليوم مع المَهرة.

دخل من بهوٍ عظيمٍ، ملامحه مُرتسمة بريشةٍ حيةٍ، تزهو النواصع باللمعان، تفوح الروائح في الأركان، يتبختر كما الملوك

بالتيجان، جلس فما وئِد النظر عنه أو تمنَّع، ربما ازداد وتكاثر واستحسن، حتى ظنَّ أنَّه في ريعانه ما زال يافعًا، أطبق على مائدةٍ تحمل وتبوح منها الفاكهة، جذب تفاحةً حمراء كبيرةً بشدةٍ من وسط المائدة والتهمها بخِفةٍ أثناء جلوسه:

- عاملين إيه يا تجار يا كبـار.

أطالها وكأنَّها لحنٌ تغنَّى به، دلَّ على الاستخفاف أو التحدي؛ فأكمل أحدهم وهو العنيد ذو الشوكة:

- بخير يا أصغر واحد في القلعة.

بابتسامةٍ عذبةٍ جال بها:

- ربنا يسامحك يا معلم رضوان، ذلة لسانك مبلوعة.

انتقل القاصي بقدمه إليه فمَرق من وسط الجمع وأفلح إن صدَق:

- بقولك إيه يا معلم سلامة، طَلتك طالت، ويمكن معادلهاش لزوم، ويمكن عن قريب يتفرقوا الأحباب.

لطَمه الغيظ وانطفأ وهج وجهه:

- هو إيه اللي داير؟ حصل إيه لكل ده؟! إنتم زعلانين منى في حاجة؟ ده أنا حتى بقالي شوية بعيد، زي ما إنتم قولتولي، إتكن واديني اتكنيت، إيه اللي حصل؟

استنفر الجمع واستحال الصمت طويلًا:

- اتكنيت في عب مين يا سلامة؟

باستفهامٍ مبرح:

- في عب بيتي، ودكانتي.

بمبالغةٍ وجيزة:

- طب كفاية عليك كده.

بفرحةٍ وبديهية:

- هرجع الملعب تاني.

بلذعةٍ مسمومة:

- هترجع تلعب وتشوط بس لو الجون مجاش وطلعت بره مش هتاخد إنذار، هتطرد.

باستهجانٍ خفي وردٍّ مُفاجئ راضٍ:

- مش مهم، بس أرجع ألعب، هاهاها أحسن واحشني اللعب أووي.

(٣٢)

انتظم كلام الخرَّاص بعد ثأثأةٍ بأنَّاةٍ مُحشرجة تفوَّه بالسِر الدفين، تحاشى النظر في ذات الأعين الرابِضة، لفحه ذلك الهواء الساخن ما يفوح بصدر طه باشا السيوفي، توهَّج الضوء، أشعل بداخله الحقيقة المُضمرة، ارتدَّت حدة بصره كرصاصةٍ في عين المُتلقي، كاد على أثرها أن يلقى حتفه، وباح علَّ البوح يطهر دنسه، استكمل نظرة الطعن إثر ضحكته وأكمل:

- الليلادي يا باشا اتقابلوا واتفقوا، وهيكمل معاهم الكبير المعلم سلامة، أكبر تاجر في القلعة هو اللي هيمشيهم،

ميقدروش يتحركوا خطوة من غيره، بس هما طبعًا ميقدروش يبينوله إنه له لزمة، أحسن ينط في رزقهم.

باستفهامٍ مُستفيضٍ:

- وهو كان إيه رده؟

اشتبك معه في الحديث:

- طبعًا وافق، وراجع أسد نيابه حديد، وهتغرز في اللي يقرب، وأولها يوم الجمعة استفتاحه الفاتحة الجديدة.

زفر الجزع بلهيبٍ مضاد:

- هيحصل إيه، هيستلم البضاعة؟!

بمراوغة بارعٍ:

- لسه يا باشا، مش دلوقتي هقولك أول ما أعرف.

بنفاد صبرٍ مزمن:

- أُومـال إمتى؟ انجز، عايزين نخلص!

بصبرٍ وتؤدة:

- اصبر يا باشا، كله بأوانــه، إحنا لسه ابتدينا؟

غفلت عيناه عن الوهلة، تدور في رأسه تخميناتٌ عُظمى، رميَ الخرَّاص خارجًا مع هواجسه ثم استدرك يبحث في الحديث ويستعيده.

(٣٣)

استنكفت أوقات بمرارةٍ أن تبكي حزنها المَكلوم، قلبها المكتُوم، وسرها الباكي، وحُبها الأزلي إلى أن خارت قواها، ونظرت إلى صورته الصغيرة بهاتِفها، سردت لأبيها وأمها وقتئذٍ ما جعلها تراه في غير صورته، وأنَّها ما زالت على وعدها له إلى أن يُزاح ما يُداهمهم، ولكنها ستراجع رأيها بشأن الخِطبة مرةً أخرى، وأوحت إليهما بإغلاق كل تلك الأمور حاليًا. أمَّا التوقيت فهي تعرف جيدًا الوقت الذي ستُبلغه بكل شيءٍ، أذعن والداها لرغبتها، رغم ما وجداه بينهما من صِلةٍ ظلت تتقوى مع الأيام، ما جعل فايز وعلية إخوة لها وليسا غرباء على مائدتهم.

ومن ناحيته، فهو شعر بكل شيءٍ، حدَّثته نفسه بما يدور بذهنِها المُشتعل، ولكنه كذَّب حدسه أوقات ولم يكذبه عديد الأوقات، انتظر أن تسنح الظروف لينسج شباكه لاصيطادها مرةً أخرى؛ سيجذبها الهوى والحب كما يجذب الصيد الثمين المياه القذِرة، هو بذاته كره في نفسه الخِسة، ورمى نفسه بالسُّقم والضعف، ولكن آخر قشة علَّه كان يستمسك بها في طريقها للانقشاع؛ فهي الأوقات الجميلة التي مرت عليه بحياته القصيرة والأوقات الحزينة التي فارقها إلى غير رجعةٍ، لم يدخر عقله يومًا أوقاتًا لرحيل تلك الأوقات، كثيرًا ما ارتاب من غروبها عن سمائه ولكنه آثر الانتظار، والانتظار ثقيلٌ يعبث بأركان الجمجمة، قرر يومًا أن يأتي بتلك القشة العالقة بينهما، ويكسرها بيده وينهي حياته وينهي حياتها ما

استطاع، ولن يستطيع سوى رؤيتها هائمةً حتى ولو بعيدة عنه، لكنها تخبو في قلبه كالجذوة المُضيئة.

(٣٤)

أنهى قضم أظافره كاملةً، وانبرى في كنف الذئب مُلتاعًا، دهسه الغل ولم يترك فيه سوى العِظام الفارغة، والنوايا اللئيمة بميلها المُلتئم، والشظايا المُتعجبة التي تخترق الوجوه بلا استئذانٍ، تُرى.. هل يسكن ظنه بمحله؟ بعدما تفرَّق الجمع وتركوه هنا تذكَّر الحاج رضوان الجيَّار موضعه من على أرض الشطرنج، أهو الملك الذي سيقع قريبًا أم وزيره الجشِع الذي سيضيِّع كل شيءٍ، أم هو الحصان ذو الحركة الملفتة والفيصلية الثابتة، يستحيل أن يكون هو الجُندي الذي سيُزج به إلى السجن في النهاية هو الملك بالتأكيد، أو سيكون الحُصان الأسود الذي يوقع بالكل ويفوز، تردده يبعث في نفسه الريبة والذعر ويغمر قلبه بالخفقان المُميت؛ هل ما يدفعه لتعزيز قدرته بضم سلامة والتجار هو فشله؟ اقتراب أجله؟! قوة سلامة التي فاقت وتعدَّت قدرته؟! هو ما زال يحمل الكثير من المفاجآت السارة للجميع، وبالتأكيد كل فردٍ منهم يحمل الكثير تحت إبطه، ظلَّ تساؤله غائبًا إلى أن أسقطه من جوفه .. ما العمل؟

شعر بدنو الخطر يطويه ينتزعه من غياهب نومه، يُدخله ممراتٍ لم يمر بها من قبل برغم ما هو، يترقَّب الخطأ يصعد

شرفات القلق مُتحاشيًا الطرق على أبواب الماضي، يسعد بالفناء ويذهله البقاء، ثمَّة وجومٌ يحوم في ثوبه، يخطو في وجدانه كالجُرذ المقرب، ربما هو الوحيد الذي يسمح له بالاقتراب أكثر فأكثر، ثم ينقل في وسط حديثه إليه الأخبار الطازجة، ربما يدُس فيها يومًا ما غبار الطاعون.

تساءل بفزعٍ وألقى سؤاله على حجره .. مَن المُرشد؟ مَن الذي يريد التخلص منه؟! بالتأكيد الجمع بأكملهم لكنهم لا يجرؤون الآن بالتحديد أن يذوِّبوا معه أموالهم ثم يلقون به في جوف الجحيم! ربما سلامة بالتأكيد هو؛ هو الوحيد الذي لم يسكب معهُم أمواله لم يعمل منذ فترة، ربما الانتظار ينبح بالحقيقة، أو ربما ينضح بالدلائل. ذلك الخرَّاص هو الذي يعلم كل خطوةٍ يخطوها أيٌّ منهم، هو الذي يمتلكهم بذنوبهم ويسقط المغفرة من أيديهم كنزيف المطر.

(٣٥)

اتخذ فايز المسكن قرب القلعة بـ"عين الصيرة"؛ كي يتحين مواعيده بدقةٍ ويتحرى تحرُّكاته، خُمر عقله اقترب على الانفجار، تغرز في جسده الحي سنون مسامير صُلبٍ، لا ترتخي برهةً لا تنثني بل تتكاثر نغزاتها المُؤلمة، اشتد العبث في رأسه فاشتد تهيُجه، ضرب رأسه في حائطٍ صلبة، ارتد منها على الأُخرى، أعراض الانسحاب تضربه دون إدمانٍ .. دون توقُّف، استمر النزيف،

ماسورة رئيسة نافِرة من صدغه، توزَّم الجبين، دثَّرها بيأسٍ، تفزَّع الألم، انهمرت كالعجين مخاوفه وتداخلت صرخاته، امتد كالمد الخوف، ولم تجَذَر آلامه، خرَّ كالمصعوق أسفل سيقان شرفه يلثِم يديها برقةٍ، رغم الألم يراها وفي كل الأوقات لا تفارقه هي الأوقات لا غيرها يأتي، يلوذ بها ألَّا تتركه، يستسمح الأوقات ألَّا تغيب، ألَّا تغدو حبيبةً لغيره، وشبح أخته مع زوج خالته يرتديان ثوب الإعدام ويجذبانه بشِدة إلى الموت .. إلى النهاية الحتمية؛ فتحيَّر بين أن يختار حبيبته؟ أم أخته؟ أم شرفه؟ أما إلى أحلامه فلا ينبس، استشرت المسامير وزادت حدتها؛ غاب عن الوعي، ترك كل المخاوف، كل الحياة، جذبه مَن جذبه وهو الجيفة النافقة توقَّف نزفه، ولم يتوقَّف سريان الهواجس.

هجَر الدنيا وعِمل بعمل والده بائِعًا سرِّيحًا كأبيه وأمه، يفترش بسوق الجمعة وباقي الأيام مُتنقلًا خلف مكان الرزق، لم يُخالجه خوف أو تهوَّلت لديه الأحاسيس الكاذبة؛ فهو شابٌّ على ما شبَّ عليه بائِعًا سرِّيحًا قوت اليوم هو ما تُدركه الجيوب اليوم، نحَّى الحُلم في تلك الأزمة، ابتعد عن علية، ما زالت تلقى الترحاب في بيتٍ كان أقرب إليه من بيته؛ فعِمل بعدما ترك حُلمه بسبب الظروف القاسية رغم حصوله على تقديراتٍ فاقت التوقعات؛ فتخرَّج بامتيازٍ وعاش مقبولًا وباع واشترى جيد جدًّا. أمَّا المُستقبل الذي بدا في عينيه مُشرقًا انطفأ، انسكب حُلمه من شاهق، ومات حُبه ضعفًا، ففقد كل شيءٍ وعاد اليوم إلى نفسه مُجردًا لم تربطه علاقةٌ بأخته سوى الظرف الصغير الذي اعتاد إرساله إليها من

بعيدٍ مصاريف الأخوة الواجبة هكذا أطلق عليها، أمَّا هي فاعتبرته "واجبًا"، ثمن الجُبن، تعويض الكرامة الذي سيبقى أبد الدهر مُباحًا، كدينٍ ألماني سحيق تتوارثه الأجيال وتُبقيه للسلام يُسقى بفداحة خزيه، ربما يُطفئ لهيب مُستعر، فأكملت تعليمها واستبقت على صداقتها بأوقات فترةً وبعدها انتقلت للعيش معه بذات البيت، هي في غرفتها وهو في غرفته، ومعنى الكلام يُدرك من قِلته؛ فزهِداه واستعملا العقل، فتناطحا حتى تنافيا كلٌّ إلى وجدانه يسعى، لم يخلُ الكلام يوميًا من الإهانة الواجبة؛ فترميه بما اعتادت وتُثقله بماضٍ مضى، ولكنه لم يمضِ داخلها، حتى احتُقن فِكره وفرَّ عقله، فجذب سكينًا وعزم على قتل النردي؛ فانتظره يومًا بليلته ما وجده، فلمَّا وجده واقترب ما استطاع إلى أن تقهقر بحذرٍ وعاد يشُدُّ ندمه، وغاب كعادته في غرفته يختفي من قذف ابتسامتها الشامتة.

(٣٦)

بساقٍ مُتثاقِلةٍ جذبها بيأسٍ خفي وإقدام فارس، تحرَّك الخاطي مُلتزمًا بما أفرغه حلقه إلى سيده نطقها بلينٍ ونفث في وجهه الحُنق وما خبأه، كيف له يفعل ما يختبئ بقلبه الأسود؟ كيف له أن يأوي صاحبه ويدفنه حيًّا هكذا؟ أمَّا إليه فكيف سيوافق؟! هل سيكون الخاطي خاطيًا الآن؟ بعد تلك السنين، سيُخطئ ثانيًا، لا جدوى من التفكير بعد وعدٍ قدَّمه .. عقدٍ أبرمه .. حديثٍ ألزمه .. وخطأ

لازمه؛ تحرَّك بساقين إحداهما تقدِّمه وأخرى تقهقِره، استجاب الآن وداهن، مضى مُترنحًا تحمله سنوات الشقاء وتلكِز جنباته، رآه جالسًا على منضدةٍ بالقهوة المعتادة "الصُّحبة الحلوة" يركد بنفس كُرسيه، فقرُب منه استنفذ ذرات الصبر فاستجلب الزفر، عاودته الأفكار فلطمها وطقطق الفقرات مُنحنيًا، خمُد سيفه لثوانٍ ثم أشهره من غمده وتفوَّه.

- سلامات.
- إيه يا خاطي، سيدك كيفه؟
- سلامة ولا ضاحي؟
- ليك سيد غيره؟
- بيسلم عليك وعاوزك تمُر.
- ليه؟
- حاجة تسُر.
- تسُر مين؟ سلامة ولا ضاحي؟
- هو أنا ليا سيد غيره؟

صدح فوه وتوثبت ابتسامةٌ قفزت بالخطأ، سارع بالتهامها وغادر للتو من هيكله، وترك "العيرة" في مداره سابحًا قبل أن يلدغ لسانه بشدة .. النهـاية قربت.

(٣٧)

دخل العيرة على سلامة عسران مُرتديًا ثوب البراءة وتماثلت الأوجه في الانكشاف رويدًا، عانقه التيه والشرود قليلًا، وطفق يبحث عن احتياج الأسد للثعبان، فلمَّا عجز بسَر وجهه وطرد الأفكار ثم عادت لتضربه، فما ألحقه سوى خروج المعلم سلامة من مكمنه مُبتسمًا يزأر كالأسد الشرس.

- إيه يا أبو وش عيرة، أهون عليك تغيب كل ده، متشُفش وشي.

- مقدرش يا معلم، أنا تحت أمرك، بس أنا عارف وقتك.

- ووقتك إنت! أنا سامع إنك فاضي، بتلحَم قضية هنا على شغلانة هناك، تلقُط وتليَس.

- أهي ماشية وبنسعى يا معلم، دعواتك.

- لا ما أنا دعيتلك، والظاهر ربنا استجاب، إنت عارفني بيني وبينه عمـار.

- مش فاهم يا معلم!

رمقه بحنقٍ وأشار عليه بوجهه الأشر:

- اطلع بره يا خـاطي البرك.

دار حوله عدة مراتٍ حتى شتَّت تركيزه:

- ليك عندى شغلانة تأكلك الشَهد، وإن شاء الله مش هتبقى الأخيرة. هـا، قولت إيه؟

استجمع وعيه بهزة رأسه السريعة:

- في إيه يا سيد المعلمين، أنا خدامك، أؤمرني.

ابتسامة الأسد ما زالت تسري بالوجه الأشر:

- الأمر له وحده.

(٣٨)

ازدرد العيرة ريقًا ربما كان مُغايرًا لفمه، كالسُّم يسري في رحيق الغَدر، جحَظت عيناه وأسكرته الخِطة، شعر بدماء رأسه وكأنَّها تخثَّرت للتو من أوردته النافِقة على جبينه، تحسَس رأسه جذبها بوعيه، أدار راحته على رأسه، استفاق شرودًا، دَعَك عينيه بعمقٍ أخرجها من مُقلتيه، زَهد الفكر ونكِره، توَّهم حياته، غرز ظفره بلحمه الحي، علَّه ينتابه الشعور، ولكن ماتت في خلاياه الحياة هو ظاهريًا فقط، وبداخله ينبح الخواء، مُهترئًا لدرجةٍ سحيقة، يفِر منه الماضي الرقيق الطموح، ويتسرب منه الذكريات الجميلة، يمضي نحو عتبات المستقبل المأمُول، يمتد بصره بما يرتجيه .. إذا وافق، لم يدرك ما سيفعله إن رفض، تراءى له ما سوف يحيطه في حالة إرادته على الإكمال، سيحقق ما تمناه سيرتد بذات الشهرة المرجوَّة، ولكن هل يفعل ذلك بمفرده؟ إلى مَن سيلجأ؟ إلى الحليف الأصعب!

(٣٩)

القواعد الشيطانية جذبته من تلابيبه، خرقِه للمألوف جعله سرمدًا، رغم اعتياد سماعه تلك الألاعيب ليلًا ونهارًا لكنه نفر منها ولكن مُتأخِرًا، في أقصى أعماقه غُصة يريد إيجادها لابتلاعها أو إفراغ حلقه منها، وجودها يُلهب حلقه ويُمرره ويبعث في جسده الرعشة والكسرة تلو الحسَرة، لا يستطيع صابر النردي أن يصدق، أو أن يدخل في دائرة وعيه ما حدث، يفِر من البيت وكأنّه جهنم يلوذ بالأضرحة والأولياء والقبور، لم تجده الست شادية يومًا بفراشه منذ ذلك اليوم المشئوم، تبحث عنه في الأزقة، وتلتقي به في الجنازات والعزاءات رغم أنَّه يومًا ما لم يعرف كيفية الصلاة! لم يدخل سوى أوكار الشيطان والمذلات والملذات، وحدها هي التي كانت تجلبه من جانب سمير الزمبلك، الآن تركض خلفه في الأكواخ من السيدة عائشة حتى الإمام علّها تجده.

تشردت روحه فلا تُبرئه الظروف أو تطويه الأراضين؛ فانكمش إلى دُنيا تغيثه وحضنٍ يلوذ به، فتحصَّن بالعارفين وتخبَّط بالمُريدين وتمسَّح بالمُغيثين؛ علَّهم يغيثونه ولو قليلًا. استشفَّت روحه المريضة غُصتها فعاد يذكِّرها بآثامها، ربض كالجرذ يخاف النور، فالتف وتشجنت آياته بالعُزلة والانزواء والتيه بعد التيه إلى أن يتحين وقته.

(٤٠)

- لما يطَّمنلنا، هيبوح بالسر الإلهي.

- ساعتها نكون في الملكوت!

- الصبر جميل والقُرب دليل، اصبر يا عربي، بكره يبان.

- أصبر لحد إمتى يا رضوان، العملية كده هتخوّخ وتبوّخ.

- لساها جاية، اصبرلها تديك.

- وإنت عملت إيه؟ الجمع عمال يتلم وإحنا بنتغم، ولا فيش غير كلام.

- سلامة هو العين وبيكري علينا ناسه، أنا كلامي الأكيد اسمع مني، من زمان ندل وبِكس وعينه بايته في عبّ غيره.

- نهار أبوه أسود، ده هيشوف المُر ويدوق ترابه سيبهولي.

- لا، لا، لا، اصبرلها واتدارى، موضوعنا يمُر، أسيبلك أهلي كلهم.

ارتخى الفضول والزئير في صدره معًا، لم يُدرك المعلم عربي النحَّاس ما يجول بخاطر صديقه رضوان الجيَّار، فلدغ نحره ألاعيبه، واستمر الخفقان كالبرُكان يسقط من فوهته دماء ميَّعتها الأحاديث، شكوك تحاصره وتأكل من لياليه الكئيبة؛ فهو كالوطاويط السوداء، منذ عانقت أيامه سكك الشقاء لازمها، استضافته قبَع بها لم يتركها، رأى فيها حياته، عاش في الظل توارى، توغَّل حتى سبلت الرؤيا، مضى باحثًا عن رفيقٍ فتشبَّكت أيديهما فجأة وغمرتهما الصفقات والليالي السوداء.

(٤١)

ظلا كذلك فايز وعلية إلى أن اقترب الضيق، واتسعت بُقعة العُسر وتمادت، فلم يكفِ منه العمل ليلًا ونهارًا، ابتلع وعيدها ولم يُعقب، انخرست العيون فلم تُلقِ نظرةً، كثيرًا ما هزَّه نهرها له، لطمته نوبات الانتحار قذفته بسجّيلها المُتقد، مرات الفشل تزداد، ولمَّا اقترب النجاح لحِقته، لم يرتعِ بها سوى الجنون كما به، وأخرسه في الليالي السابِحات المذلات، افتُتِنت بقهرِه كما فُعل بها، وسمِح لها ضعفه، استكانت عزيمته طويلًا، فما اتقد إلَّا قليلًا، تقوّى، قاوم، عاند، سيُصلح كل شيءٍ عمَّا قريب، فانتظر أن يبقى للنسيان بينهما مسلكًا!

نفح في وجهه البهاء يومًا فتحدى، ولمَّا رأى أمامه أوقات ببهائها انطفأ! كاد يقاوم ويعود فائزًا، ويمحي الآثار والبصمات القديمة العالقة، ما يُذكِّره بالماضي الأليم بانتكاساته، وعند قيامه وبدء زمنه، رآها اختلج، صمت، صُدم، أوقات في لونها الأبيض الزاهي، تتخايل في وهج الضياء، وهو في ضنِّ الفتور وقبر النسيان وخضم الراحلين، سأل عنها، الليلة زواجها، فذهبت الأوقات وتثاقلت الخطوات، وبهتت الممرات؛ فعاد يحدِّث نفسه بحسراتٍ، مرَّ من عمره ساعة، مُنذما عزم التغلب على فورانه، ما كاد يخطو أولى الخطوات حتى لطَمته بابتسامةٍ، ذهُلَ، جَمُد، فشِل قبل بدئِه، عزم على الفتور، ما استطاع إلَّا البكاء أن يداويه، فتزاوى في غرفته،

أغلقها بضراوةٍ، فرَّ من دنياه العابثة، وانتظر الأيام أن تمحيه أو يقتُلها بحِكمته.

(٤٢)

المال والبنون هم الزينة، مَن ذاقهما تملَّك الدنيا حيزت له، لوَّنت وجهه نسمَات الحياة ببهجتها، وأيكِها الموضون بحريرٍ من السُندس المزهوة بشذى المسك والريحان والعنبر الفخيمة، وفي حالٍ من الأحوال تكون نقمةً على صاحبِها، فكما أنَّهما جائزته الثمينة، هما أيضًا شيطانه الموبوءة تبِعاته؛ فالمال فتنة وحبه لعنة، والاهتمام به سُكر، وعلى مقدار انتظاره ينفلت؛ ولذلك لم يُعره شريف سيف نظرةً، ولم يبذل قليل جهدٍ جرَّاء الزواج، عمله في حياته عبودية، ومهنته تاج، انحنى واهتز لها جبينه، ترك من أجلها بلدته، أمه، وإخوته، ترك أرضه المقدرة بفدانٍ أو أكثر قليلًا، ترك عادات، أدركته زحف السنوات، مع مرور العمر، ولم تُقربه غزوة الشيب فآنسها، والتمس منها الانتظار، ولكن سخط الأم كالكُفر في صحراء الهجرة، لا يعرف سوى الطاعة والتقرُّب، وإن تهربَّت الآذان عن الاستماع وانزوت، ستتسع اللهجة وتئن الحِدة وتقُصَل الحناجر عن الرد وتعزُف عن الامتناع.

مركز جهينة -محافظة سوهاج- يحمله في الساعة العاشرة مساءً، بمقعده في العربة الثالثة القطار الإكسبريس الأسباني، ينتظره على رصيفه يتمادى في الخطا، وتمتد له فوق الأفق أصوات

النداءات كالمطارق، فيسعى إليها باحثًا في زُمرة النداءات والناس عن مقعده، يجلس بأريحية قبل أن يسبح فيه ويتناول راحته وفرحته إلى وجهته ما اشتاق إليها وسعى إليها طوال المُدة الفائتة حثيثًا، زفر رحيق الأيام، انغمزت في وجهه بسمته الرهينة، أعادها بيسرٍ وغابت بجهدٍ، وبمَشقة اعتلت وجهه فتذكَّر، وأجهز على الذكريات يُفنِّدها كما اعتاد بساعات السفر.

(٤٣)

أفلت الشكوك من يديه فتساقطت كإبر الشوك على مائدته، وسط الملفات والدفاتر والسلاح، كثيرًا ما جلس وحيدًا على كُرسيه الفخم الأثير ذي القواعد الخشبية الزان، والأفكار المُتقدة تسبح في رأسه مخالب الأسى والجزع مُهتاجة، يمسك بها برفقٍ يحنو عليها، يعيدها دون ارتدادٍ، مخالِب الأيام تقسو وها هو العمر رغم قلته يطول! رغم المعاناة والدفء، رغم العذاب والضحك، رغم الملائكة، رغم الشياطين، رغم الذنوب والمغفرة، والحسنات والنار، رغم التقلُبات والعقبات، رغم صبر والديه الأبدي، رغم السنين التي مرت عليه وحيدًا، لكنه عمد إلى الحياة وكأنَّه الصخر فلم يتلاينا، ارتشفا قطرات الأيام بحياءٍ، وسعى كل منهما على الاستمرار بعِزةٍ من عائلةٍ يسكن أغلبها بالكُلية ذاتها كلية الشرطة، طه سليم السيوفي، والده كان مُحاسبًا فقيهًا بالكويت، ووالدته سيدة المنزل، يملِك من الحياة مع والديه أخوين كليهما في السلك

ذاته، وأختًا هي التاج والجواد، هي الابنة وهما الرجال، لم يعترِهما يومًا ثمَّة غيرة؛ فهُم مَن تربوا دائمًا على القسوة والجلَد، فعاجلتهم الحياة بالافتراق سريعًا، مضى الإخوة للعمل في بلدهم، أما والدهم ففي مشقته الراحة، وفي راحة أبنائه تكتمل الحياة.

أما طه، فيهفو قلبه بسبب طول الانتظار، وحدته تنهش في جسده، كما لو كان الهيروين اللعين يبحث داخله عن ضالته؛ فيستثمر قوته ويُفقده اتزانه، تنتظره ليلي منذ ما يقرب ثلاث سنواتٍ، تعرَّف عليها بعد عودته وأثناء إنهائه كُليته؛ فهي جارته من الأساس، عظُم في عينيها عندما رأته في زيه الرسمي الأنيق، انعكست صورته في مرآتها، جلست داخلها في عميق نفسها، صدَمته عيناها ذات الحواف القاطِعة، والرموش النافِرة، والدموع العابرة، وأنهكه ثغرها المُفتون، وعبيرها المجنون، ودفئها المشحون، ما صبره في ليالي البرد شاطئ حبها، من رؤياها لحظات يشعر بهذا، فكيف إن أطـال؟!

أرسل إلى والده في إشارةٍ عاجلةٍ لتنفيذ الخطة المدروسة، بعد اعتماد التحريات وشهادات التحرُّكات فأجازها على مضضٍ، واستعان في اتخاذ الرأي القاطع بوالدته؛ فأفلحت رؤيتها، وجاءه الأمر بالتنفيذ والانتظار لتدبير الأمور اللاحقة عند الإجازة القادمة، فنفذ الأمر فور صدوره، وها هو الآن يتذكَّر الوقت بالتحديد، يوم أن كانت خطوبته ودبلته فوق بدلته تفوح وتسرق نظراتهم جميعًا، فابتسم، وابتهج عند تذكره، وتحرَّكت الصور في هاتفه كوميضٍ، تشعل داخله الفرحة العارمة والذوبان الجليدي الهادر؛ فذاب

ووخزته النشوى بحِدةٍ، فأغمض عينيه واستراح من عناء العمل والدنيا. وما مضى سوى لحظاتٍ إلَّا وأيقظته من آلام النشوى آلام كفه المغروزة في إبر الشوك الساقطة أمامه، إثر انفلات شكوكه في القضية الماثلة أمامه، قضية "تجار القلعة".

(٤٤)

ضخامة الجسد والبنيان ليست دليلًا على القوة، ربما ضعف النفس يُمرضها، وضعف النفس أقسى لو تعلمون، والتظاهر هو فقط الظاهر، والتعالي ليس مسألته العُلو، والتبجح ليس من العنفوان، ربما يكون أحدهم من ضحايا "الحُزن المُعقد"، أو من قاطني "الاضطراب السلوكي"؛ ففيه يُعرف الخجول جبانًا، والسارق مُضطربًا، والقلوق مُرتابًا، وتنحدر الصفات والأنماط وتتعاظم، فتفتر الصلة أكثر فأكثر.

دائمًا لا يكون الشيء الطافي على وجهك هو الراكد في الأعماق، ثمَّة تحايل على الحقيقة فكلُّ زيفٍ، قليلون مَن يصنفون ككتابٍ مفتوح؛ لا يتفق هذا معه مطلقًا، أو ربما يؤول إليه جزئيًا، سلامة عسران تحيطه هالات الغموض حيةً، ولا يعرف عنه الكثير، هبط من صعيدِها إلى هنا ولكن كيف أصبح هكذا؟ من الممكن شراكته المُعلنة والظلية، في العلن بدأ عهده قديمًا بين اثنين قدماه عليهما في كل شيء، لما إرتأوا منه إقدام وصرامة، وكان هو كل شيءٍ، وقيل

عنه أحيانًا أنَّه اجتاز هذا العالم من الأساس بسبب شراكته الظلية التي لولاها ما كان على ما بقي عليه.

ولذلك عندما استفحل داس، فقيل أنَّه سبب قتل صديق عمره، وسيقتل الآخر قريبًا بمساعدة شركاء الظل تجار القلعة، لما بينهم من أعمالٍ عديدةٍ يغفل عنها المُتنبهين، فقذفوه بكلامٍ هنا وسبوه بآخر، وأطلقوا عليه سلامة الغدار وهو كما هو، بل تزداد قوته شيئًا فشيئًا، تُرى ما هي الأعمال الظلية التي جعلت منه شيطانًا؟ وهل تلك الأعمال تسُوقه قبالة الغدر بالأقربين أولًا؟! الأهم .. هل سيقتُل صديقه الأقرب أيضـًا، كما يُشـاع؟! ودَّ من بين السنين أن يبتعد عنه "ضاحي النمر"، ولكن ضعف النفس أرداه لقمةً سائغةً كصديقه الراحل، ولمَّا اختلف معه حاول، فلم يستطِع ولمَّا لم يعجبُه الدخول معه في التجارة الظلية، مع التجار أعاد المحاولة .. فشل؛ فأمضى واستعجل واستعد للنهاية التي سمِعها من الجميع بأذُنه.

كذَّب ضاحي الحقيقة بعينه، فلا هو يعلم لِمَ أشركه في التجارة الظلية في ذلك التوقيت؟ ولِمَ لم يفعل معه مثلما فعل بـ "عبده"؟، إن كان هو ما فعلها حقًّا وقتل ثالثهم، ولكن خالجه شعورٌ فجائي غريب، ساورته الشكوك والتقمته الخيبة، كلمة تذكَّرها يومًا وهو جالسٌ وحيدًا ارتعد وابتعد عن نفسه وتملَّكه الذهول والذبول، ما معنى ما سمِعه من قِبل التجار عند حضوره؟! لقد تأكَّدت لديه الكارثة عندما عاد واسترجع كلامهم في عقله كلمةً كلمةً: "احمد ربنا إن الحكم مطلش حد منكم"، هل هي حقًّا كما سمعها؟ ولماذا لم

يحدِّثه فيها صديقه عند الخروج ولو قليلًا؟ فمن أين يستعد لأن يشاركه في الأعمال جميعها -كما قال له-؟ ومن أين له من إخفاء الحقائق عليه؟! تأكَّدت الآن بعض شكوكه من الكلام الذي يضطرم في القلعة بأزِقتها وعطوفها، وسيرتد سريعًا ذلك الكلام في صدره أو على رقبته ليزيحها ويقطعها، ربما كما فُعل بصاحبه ولكن ما الحقيقة الآن؟! دخلت عليه زوجته قطعت عند دخولها المفاجئ أحبالًا سميكةً تِلمةً من أفكاره الحارقة، كاد يقطع بها رقبته وهو يعبث غاضبًا؛ فاستثمرت صمته ولطمته -بإشارةٍ أمام عينه- بخفةٍ، لما بدا كالمتسمِّر مناجيًا فأزاح همه بخُفه جانبًا، وتناول منها الشاي المغلي وأردف كعادته:

- تسلم إيدك يا مفتونة.

(٤٥)

جلس بمفرده في فناءٍ مُتسعٍ يتسِع لكل شيءٍ إلَّا شيطانه، اقترب المُخبئ أن يصعد ويرقى ويتسلمه مَن يستحقه، بلغ مبلغ الصبر حتى جزِع ثم تفوهت حنجرته بما لم يتفوه به لسانه، وانحنى له رضوان الجيَّار -أسد القلعة الغادر- المُهاب بطلعته المُشرذمة؛ ماضيه كحاضره فهو مُنذما وُلِد لأبٍ كاد يُصنف أكبر تاجرٍ في العهد السابق، فكان الخليفة واثقًا تمام الثقة أنَّه سيُعيد الأمجاد، فارقه الأب بعد أن أرشد عليه أحد صبيانه؛ فتعثرت قدما رضوان بعد أن جاءه خبر وفاة والده في السجن، تخلص الأصدقاء من صديقهم

لتفادي جذب الأرجل واحدةً تلو الأخرى، القصة المعتادة، تلك ما استخدمها سلامة وضاحي، في نظر الجميع الحقيقة غير ذلك؛ رضوان الجيَّار استجلب الخطة بإحكامٍ ليلصقها بسلامة وضاحي، إن كان الأخير لا يعلم عنها شيئًا ولا يعلم عن كثيرٍ ممَّا حدث تفصيلًا، وسلامة أيضًا ربما يعلم أنَّه بات مُدركًا لكل خطوةٍ مع التجار، رغم أنَّ رضوان لن يعطيه سوى ما يريد، ليترسب داخله أنَّه معهم في كل كبوةٍ، ولكن هل الحقيقة تمضي مع مَن غدر بصاحبه هكذا؟! أم تمضي مع الجيَّار المُستلهم تلك الرواية ممَّا حدث مع والده؟.

(٤٦)

الماضي والحاضر ليسا وجهان لعُملةٍ واحدة، بل هما على الوجه نفسه ولكن ثمَّة بُعدٌ بينهما يجعل مَن يراهما مُشوشًا يجب منه الابتعاد، والابتعاد لرؤية الصورة كاملةً، لا تُغمي عينيك عمَّا يدور خارج الإطار، انظر جيدًا وحدِّق ولا تسأم ما بالخارج أشهي وأغرب. ما جعله يرسو في مكانه مُحدِّقًا هو استدعاء الشذرات، تيمن مُتشبثًا بالذكرى، ولكن للأسف تفوح الريح العطِنة والنفثة الملبدة من روائح الخفقان المستمر والاندفاع المُمنهج، خرج من إهابه وارتمى فاقدًا للروح مُحملقًا في تُخوم السنين، نظر في تقصٍ لحركة الحشرة المارِقة تلقم صغيرها واستجلى لنفسه حياته، أعجزت أن أكون هكذا؟! يا ليتني كنت! تحدَّث بمقدارٍ فائضٍ من

الجزع، ما فعلَه بنفسه غير مُستساغٍ حتى إليه وليس عمَّا قريب، ولكن منذ القِدم يبيع ويشتري أقرب من له مقابل مَن يدفع أعلى، هي الحقيقة، سأل نفسه مُتفاجئًا بالدموع النافقة: "نسيت يا خرَّاص .. نسيت ابنك؟ قبضت تمنه قبل ما يقولك يابا! مسمعتش صوته! كان نفسك يبقالك أهل ولمَّا جالك رميته ودوست عليه! خُفت عليه من الدنيا، خُفت يترمي في الشارع، إديته للي يقدره، مكنتش هعرف أربيه بعد أمه ما اتجوزت وشافت نفسها وباعتني! شغلانة وسخة القاتل فيها حي والضعيف مقتول".

أربد وجهه عن تباريح الفزع وطمس الدمع جفنيه، تنكَّر لحياته، انشغل بها وشُغل عن بحثه فيها، خشع فضوله وانكمش عندما رآه في حضرته، عينان ترمي كلٌّ منهما بشررٍ، لا هذا ينفع ولا ذاك يجيد، انتمت القلوب ولم ترغب الأقنعة، تعانقت الأحزان وابتعدت القلوب، شيءٌ ما يلوح، يبوح بسرٍّ دفينٍ، شيءٌ ما ليس إلَّا.

- ليه سموك خاطي؟

- عشان أنا خاطي، الماضي حباله واسعة ومواضيعه مليانة، سيبك من دوبانه وانسى.

- بسأل نفسي ياما، أنا ليه اخترتك؟! مع إن ممكن تجاريني وتشد مني وتروح تبلغ.

- اللي خلاك تختارني نفس الحاجة اللي خلتني أساعدك، إنك حسيت بذنب ونويت ترجع من طريق آخره ضلمة.

- مين اللي قال إني هرجع، مش يمكن باخد منك مصلحتي وقريب أبيعك، حاكم البيع والشرا لعبتي من زمان.

- لا لا لا، غيرك سابق وسيطُه واسع، إنت معروف عنك إن ملكش حد وكله بيهابك، وأنا معروف عني إني خاطي، فمحدش هيقدر يتكلم لو الخاطي مرة بقى خاطي مرتين. أما إنت غلطتك (فورة)، غلطة بوجع قلب.

نظر له بغلٍّ مُشتعل ووجهٍ مُنفعل، كمَن عاد من انهزامه من غير حربٍ، شنَّ هجومًا خاطفًا على خِصمه ورفع سبابته:

- متقلقش، اللي بيني وبينك ده بس و...، واتفرقوا الأحباب.

ابتسم له بغشامة ورفع الكُلفة المُقدّرة، هضم تفسيره مُتمنيًا السلامة، أسرع لئِلا يُساء فِهمه:

- اسمع الأمر اللي جالنا أنا وإنت واعقِل الكلام، كله هنّفذه بحذافيره، كل واحد فينا ليه مصلحته، ومن مصلحة الكل إن سلامة يروّح وإنت عارف إني بساعدك عشان كده بس، وإنت بتساعد اللي بتساعده عشان ده رزقك، بس مصلحتنا أنا وإنت نكون في أمان، مفهوم؟

(٤٧)

عاد فايز من شروده وبهتانه بمشقَةٍ، تغتاله صورتها في الأبيض الزاهي، وتبيح سفك دمه ببراءةٍ، تعجز ذاكرته على التمييز فقد العديد، رسب في محطات حياته باستمرارٍ، استفحلت الأمور كعادتها وبالكاد مرَّت، شدَّ من عليه بُساط الماضي واستغاث بالأيام المُتلاحقة، ما يربو بداخله هي الذكرى رغم قسوتها، وما

يعيره اهتمامًا أحدٌ سوى أخته التي عادت لطبيعتها معه، انخفضت رقعة الأمواج بينهما منذ فترة، أصبح فيها على حالته، فترفقت وفتُر حزنها، لسرعان ما صدمها زواج حبيبته مثلما ابتلعه فلا ينته، وحاذرت ذكِر ما فات، فأشاحت بنظرها وترجمت الصمت بالكلام. انتظرت كثيرًا لتُفاتحه، فهو لم يخرج من غرفته منذ دخوله ولكن لن يطول ولن ينتظر هِرمه، موعد دفع الإيجار قد تعدى المسموح وعليهما إما بالدفع اليوم أو بالخروج نهائيًا.

استلزم الأمر أيامًا للبوح، رغم إصرار المالك على الطرد، والآن جاء يوم الفصل، فلا دفع ولا انتظار، الطرد اليوم أصبح واجبًا، تراكمت الأشياء على الرصيف بخِسةٍ، واضمحلت الرؤية وجذبت علية من رأسها تلك الليالي. تجهَّم فايز وذهب للبحث عن حلٍّ سريع وما باليد حيلة؛ فنزَل على قهوةٍ قريبة، جلس مُتجهِّمًا من فوره جلس يبحث في العيون عن سكنٍ ويستبيح المآقي شاردًا علَّها تأويه، لم يتحدَّث بدايةً أنصت لمَن يجاوره أحنى جبينه؛ ليستمع فما استعد إلَّا وانشغل الكُرسي جانبه كان هناك جالسًا كعادته في مكانه المُعتاد، يرتشف ويفكِّر في العرض المنوط، لم يعطِ الرد حتى الآن للحاج سلامة، منذ آخر لقاءٍ جمعَهما، كيف له أن يفعل ما سمِعه؟ ولكنها فرصة العمر التي تأتي مرةً عادل شداد .. الشهير بالعيرة، كثير الأوجه، لا ماء لوجهه ولا عنوان يملِكه، يسبح تجاه الماء الراكد ربما يجد فريسته أو فرصته، ينقض عليها ويمُص ما بها من رحيقٍ، القلب داخله ليبقيه لا للشعور، عاهد نفسه منذ تخرجه ألَّا يسير بخُطا قويمة، فما أكثر المُتعرج في زمانٍ يمُوج لم

يجد له قرينًا؛ فقِرن ذاته، واستحسن لنفسه صديقًا خفيًّا، صار يعمل تحت غطاء بالغ الستر، فحفظه شر النباشين رفع فمه واعتلاه الكوب منزلة، فما برأ من طعم القهوة اللاذع حتى استعادت الذاكرة الميتة تلك الندبة على الوجه البريء، فأفلحت رؤياه وصدقت وعدا الخطوات نحوه في وجومٍ محملقًا، أفزعه الصدى فأسرع تجاهه ينظر حين ابتهج وابتسم فجأة، وما صدَّق عيناه. أما فايز كبَّلته الصدفة وألجمته النظرة، والآن تذكَّرا .. كثيرًا ما تذاكَّرا أيام الجامعة، على الرغم ممَّا يعانيه فقد آنس وحشة غيابه عن الحياة كثيرًا.

- فايز السعدني، يااااه .. أيام، فين أراضيك طول الفترة اللي فاتت دي؟

- في الدنيا، بنشوف العجب.

- ليه مالك بس؟ احكيلي!

- الدنيا ملخبطة معايا حبتين .. بس أهوه نحمده.

- لو محتاج خدمة أخوك سداد.

- مستورة، وفي نعمة، المهم أنت شغال فين دلوقتي؟

استمر الحديث ساعةً، وما فتئ الماضي ينفتح حتى استثقلته النفوس، وعاندته الشروخ لئلا تنفتح بعدما تداوى جُرحها، وانتهى اللقاء بالوعود الحارة لتكراره قريبًا، لم تخلُ الجلسة من ذكريات الجامعة وأول الدفعة .. فايز السعدني.

وعند الوداع، ابتسما وتصافحا، كان الطابع الودي قد سحب من الحياء ما سحب، ما جعله يحاول، فاستعاد الثقة واستعد القبول، وسرى في المياه الجارفة، علَّه ينجو وتنجو معه عليّة.

- عادل، ملاقيش عندك مكان أبات فيه، لبكره؟ بكره بس!

قالها وهما على مشارف الافتراق، استمع إليه بحذرٍ وكأنَّه يخفي ابتسامته الماكرة وفرحته الخبيثة، وسريعًا ما رد إليه وجهه وأعطاه الإجابة وما أعاده خائبًا.

(٤٨)

الضوء الخافت يخفي الوجوه، وبالاقتراب تتضح كالأفكار يضعفها الركود، وحين استدعائها تتعاظم، على قمة جبل المقطم كان الموعد ولأجل المعلومات الواردة كان المُلتقى، تسرَّب الضوء من فوق الرؤوس ونما، واندفنت في خبأ الظلمة أجسادهما، اقترب كلٌّ منهما شيئًا فشيئًا حتى اكتمل الاقتراب، سبق الجميع "طه باشا"، وهو الآن يجتهد في الصبر مُنتظرًا بغبطةٍ، الساعة الآن الخامسة صباحًا، ستأتي المعلومة المُنتظرة اليوم، سعى من أجلها بحِثة ستهز تلك القضية الخليفة بأكملها والقلعة والإمام والجمالية، سيتحدث عن طه باشا من الصعلوك إلى المعالي، القبض على سلامة عسران، يا لها من مغامرةٍ محمومةٍ! ابتهج لجل خاطره واستند على صمت الحِملان، دوى في عمق الظلم ضوءٌ

خافت، سرى كسرابٍ حتى اقترب فتبدى على هيئته، هبطا هما بالهرولة.

- اتأخرت ليه يا خرَّاص؟! مين اللي معاك ده؟ آه .. إنت الخاطي؟

- معلش يا طه باشا، كُنَّا بنأمِّن بس، القلعة مرشقة فوانيس بتصور، واللقطة جاية .. جاية متستعجلهاش!

- المهم، امتى وفين؟

- لسه يا باشا، الدنيا حصل فيها قَلَبان.

- يووووووه، كل يوم لسه، لسه، أنا زهقت، خلَّصني يا ابني أنا مش فاضيلكم، أنا ورايا هم تاني، عايزين نروح بدري.

- هتروح يا باشا، هتروح وتنام وتدفى وتدعيلنا، بس ساعتها متنساش بعد الترقية (اقترب منه وتحدَّث همسًا) التجار هيجتمعوا وقريب هنترحم على الجمع.

- سلامة، سلامة هيقابلهم؟

- المعلم رضوان والمعلم سلامة، واتفرقوا الأحباب.

جلجلت الضحكة من فِيه والدموع من عينيه:

- هاهاهاها، دي احلوّت أووووي.

تحرَّك كلٌّ إلى مقصِده وانزوى طه السيوفي يسارًا مُلتحِفًا بالظُّلمة الكاسية.

- أنا جبتك معايا بس عشان المُغامرة تبقى مكتملة يا شريف بيه، أديك حضرتها من البداية.

- العيلين دول هما اللي هيوقعوا تجار القلعة؟

- أصلك مش عارف مين دول، اركب ونكمل كلامنا في المكتب.

كان مُنتظرًا في الخلفية يشاهد على مرأى ومسمع، استعد ماضيًا في حقول الخطر لأكبر سبقٍ صحفي له ربما في حياته.

(٤٩)

مُلتفًا بالتحفُّز وساعيًا للسر الدفين، تُحرِّكه الأيام والسنين التي شرب منها الأمرِّين، جهر بالظلم ولطم حائط سبيل أم عباس مُدركًا شارع جانبي، مُلتجئًا لصديق الغدر، دخل عليه مُرتبكًا أدرك عينيه تائهةً فألقى السباب، عاجله صديقه بالرد قبل أن يبدأ بالكلام.

بتروٍ وسرعةٍ فائقةٍ في محاولة إضفاء الهدوء وامتصاص الغضب:

- هقولك اللي عايز تعرفه يا ضاحي، بس مش هترتاح بردو.

ما زال احمرار الوجه ساريًا:

- وأنا من امتى كنت مرتاح! هو اللي يعرفك يشوف راحة.

تأمَّل الوغد في قبحه والرمال المتحركة على وجه الآخر تتجمد:

- اتقتل .. آه، وأنا اللي ساعدتهم، وعملت كده عشاني أنا وإنت بس، كان ممكن اختاره وأبيعك، بس ضاحي حبيب مين.

ثم غفا وجهه بعمقٍ واندفن في قاعدته:

- ضاحي؛ ما تفِرّش في اللي فات، خلّى الأيــام تنام. ضاحي .. ضاحي، خلي بالك من نفسك لتوديك عنده.

غادر من شدة الحيرة أرضه، وتمادى في الابتعاد عن نفسه، قتلته صراحته الوقِحة وفرَّ من شرر الماضي البئيس، تحسس الخيبة في وجهه حتى ثقُلت على ملامحه، وما شعر بروحة حينها إلَّا وتحمله إلى الحياة الأصلية .. مقابر الإمام.

استدعى صورته وجسده هنا جوار مدفنه المليء بالرياحين المنعقدة، قبل أن يقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة ويُحدِّثه بما لم يبُح من قبل، وجد مَن اقترب ليُسلم عليه ويترحم على صديقه، تمادى في البكاء داخله كما تمادى في الجلوس حتى لفحت الشمس رأسه عند المغيب، غادر وقد راحت روحه إلى الراحة، واستراح من همٍّ كبَّل رأسه لما أحسَّه من يومها أنَّه سببٌ في موته، استشعر حزن صديقه، تعذّب لعذابه، قاسى لما تذكّره، هرولت دموعه مرة أخرى، اجتهد في النسيان طوال مشيته، ولمَّا اقترب على مشارف الطريق المُمهد توعَّرت خطاه، واهضوضبت ملامحه بعد أن كان الإشراق يملؤه، تكاثفت عليه الأضواء حتى هرُعت مفاصله، ارتعد، احدودبت قسماته، انفرجت مُقلته، عبث به الشرود، اغتالته الثقة، تسمَّر مكانه كشجرةٍ بلا جذور، مُرتديًا هدوءه حتى قارب الانقباض، حوته من مختلف الزوايا الأضواء المُتلهجة الكاشفة، حوصِر بالبنادق والأسلحة الصماء، جذبه من جلبابه مُخبرا القلعة، أُمسك به في صمتٍ غزيرٍ، قُبض عليه غير متلبسٍ، غير مُصدقٍ أو

مُهيأ، ولا يعلم كيف وماذا ولماذا؟ وما زالت الإجابات غير مُتضحةٍ بالرغم من ارتياده للقسم زجرًا.

(٥٠)

منذ ذلك الحين ومن يوم أن استضافت القهوة صداقتهما المبرمة، لم يفترقا ولو فتيلًا، دخلا منزل العيرة، فارين من عناءٍ لازمهما ومن جهدٍ قاوماه، استشعرا رغم القسوة الضارية الطمأنينة الخافتة، انهمرت دموع علية من الوهلة الأولى؛ لمَّا استشعرت الأمن في بيتٍ يحيطه جدرانٌ حقيقية تحمي ضآلتها، أي شيءٍ أفضل ممَّا كان، التزمت الخنوع داخل غرفةٍ صغيرةٍ تكوَّمت بها ملتفةً كالقطة الوليدة، أثمرت الأيام عن تحسنٍ عميق الأثر، ولكن تُرى هل الحياة تمضي دون مُكابدة؟ شيءٌ ما عنيد، ربما لم يترك لشراع الأمل أن ينهمل ويعربد في المياه المالحة المُوحلة، خفقت القلوب واستثمرت العيون صمتها في البكاء، والعِراك على أهبته، لا تعلم ولا أحد يعلم! كيف؟

في صباح تلك الأيام التي يبقيها الناس خاوية، مُغتبطين بعُنق الراحة، الدعة، الاستسلام، الركود والسكون، تحرَّكت الأهداب عن نفحة روحٍ تصدح بالجنبات؛ فشعرت بوخزٍ ينبح، ينبلج النور مع ترامي الأنين، ويُسفر الإشراق بين ثنايا الفجر، والذهول يأكل من رأسها ويستبيح أن ينهش بنهمٍ، وتساؤلات العبث تضرب نواصح الفقر والخوف. استيقظت علية على اهتياجٍ كلي، وقيءٍ حادٍ ملازم

لغثيانٍ مستمر؛ فاستمر الوضع إلى أن قررت البحث عن السبب، فتذكَّرت وتناسيت وأسرعت تجاه الطبيب ترغب في التكذيب لا الإيضاح، فصدق شكَّها الذي أصرت تكذيبه.

- حامل في شهرين يا علية .. مبروووك.

أصدر د. ميلاد حكمه دون أن يستمع، دون أن يراجع، دون أن يعي، لطمها بفمه واتجه يعدد لها النصائح وهي هائمةٌ على منبعٍ من فتور. كان معها خالتها شادية التي لم تخفِ ضرب صدرها بغنجٍ، تلبَّد على إثره وجه الطبيب في حلمٍ، وغزا يسرد لها كما اعتاد كيف أنَّه في مقام والدها، فهو من ولَّدها وأخاها منذ سنواتٍ، فلترفع الكُلفة وتبوح بما تريد، فاستندا على مائدته بفتورٍ وضياعٍ، وغلبهما السير إلى الخارج مُزمعتين بالخزي.

علِم فايز بخِلسةٍ، أثناء محادثةٍ بين علية وخالتها استمرت لنصف ساعة، تحدَّثا باستفاضةٍ رمزًا، لم يتضح ما يحويه الكلام إلّا أن تستنبطه، وتبعثر عنه في ركام الكلمات المُتناثرة، يحتاج الأمر لمُعجزةٍ لتُخرج لُبها ببراعةٍ، استند على بابها، تصنت بجديةٍ، شيءٌ ما كانت تحمله المُحادثة يفوح منه "الرضيع الذي لم يُولد"، ظلَّ يستمع لصوت شادية وينهمك في التصنت لرعشة صوت علية، يدفن أذنيه ليُصغي بقلبه، لم يعِ شيئًا إلى أن استمع سهوًا "د. ميلاد"، فكانت المفاجأة، الآن يبدو الاستماع مُفيدًا انتظر حتى فطن، غادر على مهل، ظل يتذكَّر و يستذكر ما جعل باله غير مُستندٍ على دعامةٍ، نهش الفضول حواشيه، جذب ساقيه إلى الطبيب مُستفسرًا، وتحجج أنَّه كان مُسافرًا ولم يأتِ إلَّا الآن، فجاء

ليتساءل عن حالة خالته هل مُطمئِنة أم لا؟ فتبادر الطبيب بالإجابة مُستعجبًا:

- الحاجة شادية زى الفل، مفيهاش أي حاجة، علية هي اللي كانت بتكشف.

- علية! مالـــها؟

- هي الحاجة شادية مقلتلكش؟ علية حـامل!

- حـــامل!

غادر أرضه غير مُكترثٍ غير عابِئٍ بأي شيءٍ، يحوُم وسط دوامات الحيرة، يسبح بلا عوامة، يلطش وجه البحيرات هكذا، لا شاطئ يرتضيه ولا أمل يحمله. علية حامل؟ كيف؟! أيعني هذا أنَّها كانت توبِخه وهي تخبئ في جوفها وليدًا؟! من السبب في حملِها؟ صابر! لكن كيف وهو عقيمٌ؟!

(٥١)

الصور التي تنبش الذكريات قاتلة، إن اشتبكت مع الذكريات الأليمة، تلك الذكريات الفاصِلة، تفوح منها الروائح النفَّاذة، لتتداخل مع الدم إلى المخ وتُبيح الفتك توحي بالتناسي أو الندم، وهي ما فُتحت الآن، وربما في كل الأوقـات إلَّا التي يتواجد بها زوجها .. سمير وهدان، ينبض قلبه جوار نهاية العقد الثاني يفوح فيه رائحة المِسك طوال مشيته، محكى المنطقة عن روعة تسريحته الشبابية الطليقة أعظم من محكى القلعة، مُبتغى الفاتنات من

الشابات حتى بعد الزواج، قوة جذبه تفوق نيوتن ذاته، يتبختر كما المُهر، لا يزدري سوى الأسفلت الذي يحمله لكنه يقترب ويقترب منه كل شيءٍ يحوم في الملكوت، عنفوان ضيائه الصداح ينذر بالإشراقة العجيبة، وكأنَّه الشمس تفور أشعتها من كوةٍ في مرفقيه؛ لذلك وجب التنبيه على العذريات أن يبتعِدن عن سِكة سمير وهدان؛ حتى لا يُشعلن المُراهقة في صدورهن قبل البلوغ، على الرغم من سمعته الجارفة بالعلاقات المُمتدة جرَّاء القصص التي لا تخلو منها موائِده، لا تنظر عيناه إلى الحرام نظرةً ولا تهفو في صدره هفوة خيانةٍ عابرة؛ فهو تزوج لأنَّه أحب بعُمقٍ دفين، انتظرها رغم انتظار العديد له وافتتان النفوس به، حينما يتحدَّث فهو بارعٌ في الإلقاء، شديد الجذب للانتباه، مُلفتًا للنظر بلباقته، ومن ثَم لا يخبو شيءٌ عليه ولا يُندفن سرٌّ إلَّا في جوفه، فيستريح الجميع بالبئر عميق القرار المحفور منذ زمنٍ بجوف سمير وهدان.

بطول سعيهم نحوه تبتعد عنه، يخفق قلبها خوفًا عند اقترابه، وتزدهر النبضات عند غدوه، وعند تذكَّرها لحبيبَها الأول انكمشت العروق قبل اقترابه، زحفَت عليها وسَنَات الحزن المُخيفة، تملَّكها الذعُر البغيض؛ فتارةً تحِن للمفقود وتارةً تلعن الآتِ، في كنفِ الوغد تلوذ، وهي الأوقات التي لا تمُر هي الأوقات التي ظلت بتلك الصعوبة، واظبت أوقات على الكوابيس المعتادة، قفز على وجهها الوهن فهِرمت قبل منهلِها القريب، فاقتاتت خبز الصبر، ريثما يُلحق بها كنهُه، شرِبت من ينبوع الحب يومًا، فلم يزَل طعمه عالِقًا بشفتيها، الآن وقد أوجب العطاء لم تستطع، تذكرته اليوم عند

دخول زوجها، فأخفت حُزن ألمها في قلبها قبل صورةٍ خبأتها أسفل كفيها، تلك الصورة ذاتها التي اشتبكت مع الذكريات الأليمة .. صورة فايز السعدني.

(٥٢)

تصارحا في غرفة علية وعلا صوتهما وأصدر صريرًا مسموعًا؛ فدخل يهجو الصوت الحاد مُحدقًا أخاها، وهو لا يجد بُدًّا من تحمُّل المُلازمات، فتثاقل في البداية ولكنه تشجَّع ولأول مرةٍ لم يهرب كعادته، البكاء يعلو وتئِن جمراته، فلهث على انهيارٍ قائمٍ في مُنتصف الغرفة، وأَلِق يزدري الوجه ويُنافقه، ولما استمع منهما ما يخبِّئه القدر، برز الغضب يعصُره، تحسس الندبَة وكأنَّها لتوِّها حدثت، عانق فيها براءة الصبا وغفوة الأيام عنه، تمادى في الأُلفة إلى أن تذكَّر والديه واشتعل رأسه من الهول شيبًا، اسثقل الحِمل بمُفرده فغدًا يبحث عن مُنصفٍ لكثرة ما استقرأ الخزي في أعينهم الدنيئة؛ فتبدى الانغلاق يحلو وعاد إليه يحيطه بلهفةٍ، ولمَّا استفهم لم يفهم، فخرج يبحث عن ما يصول بصدره، وعزم على قتله بلا رجعة؛ صابر النردي زوج خالته شادية، لن يرهب اليوم أحدًا، سيقتل صابر النردي ويقتل فيه نفسه، يقتل الأيام التي نكَّلت به، والظروف التي استباحت فقرهم منذ أن كان طفلًا، وتسبَّبت في موت والديه. سيقتُل فيه كل الخواطر والبواعث النفسية الكامِنة، سيقتُل اضطرابه ويذبح خوفه ويثأر لجُبنه، يبذر ضعفه

على الأرض، يسقيه بماء الذل كي ينبت شخصًا مثله ثم يقتُله مرة أخرى.

ولما أفضى لعلية بعزمه؛ اختلجت بحذرٍ، قاومت برقةٍ، احتجَّت بصمتٍ، وانتظرت هالات الهدوء أن تسبح وسحابة الاندفاع أن تنقشع، كيف تغيَّر حالها هكذا؟ أهي ذات النفس التي أشعلت غضبه الآن تسوقه إلى التخلي! بعد عزمه على قتله أخرجت الحل المُبين، وأشعلت فيه بارود التناسي ونعتته بأقدر من يُخرس أفمام الجميع؛ حتى لا يُضيِّع ثمرة شبابه هباءً فإلى مَن تلجأ حين يتركها ويفضي إلى قتله؟

ولما فلح ما أضمرته وأخرست توقعاته، هدأ، وما إن هدأ حتى غادرت شادية على الفور، وطمحَت علية في التفكير المنطقي والحل الأسلم، وأبعدته عن الهزل غير المُتحقق، وسريعًا ما أوجدت حلًا يُضفِّر كل الأحزان ويربِطها في نفس مربط الحُلم بلا بقعة دمٍّ أو ثأرٍ وبلا ذم.

كوَته بكلامها الرقراق المُحبب لنفسه:

- الحل عندي يا فايز، أنا فكرت فيه بس التنفيذ عليك ومن غير أي تهور زي ما بتحب.

بحور الحيرة تتمادى في الاتساع:

- وساكته ليه؟ إيه هو؟

هوت على رأسه بمَطرقةٍ ثاقبةٍ:

- جوزني صـاحبك!

(٥٣)

نزلت عليه الصاعقة قاتلةً، زلزلته في مكانه وخرج عن مداره شاردًا، لم يُدرك وعيه شذرات الكلام، وحسِب أنَّها توقِعه، فأثلج صدرها ورفض أصرَّت على الحل القاطع؛ فلم يكذِّب وأكَّد عليها أن تتحدَّث بجديةٍ، فاستفاضت في الشرح، وما فرمَل سردها المُتسع سوى رفضه، حياؤه من صديقه الوحيد الذي ساندهم فيما كانا يعانيانه، فساومَته على ضعفِه فانحنى؛ علِم أنَّها ستُطالبه بالثأر استرجع، ولمَّا استحدثت طُرقًا في الحديث واستنجدت به عند صمته بالأخوة التي توثِقهم من دمائهم، فاستأثر وأعاد التفكير وما لبث إلَّا أن وافق فورًا وأسرع في صياغة زمام الحديث معها؛ فأسهبَت وانتشيت وكأنَّها انتظرته يرتضي، وكأنَّها كانت في سابق علمِها تعلمه، والآن أصبح الاقتراب وشيكًا وتسهلت عليها المهمة.

حاول فايز أن يُفاتحه عديدًا لم يفلح، صَمد حتى انتفض، جذبَته النخوة، صرعته كالفاغر كمجاذيب السيدة، يرتكِن في الأزقة ينشد العطف، يؤول الأحلام وينتقص العقلانية، يغرز أظافره المُميتة في نحره عل أسنانها تذبحه، استثقل الكلمات وزادته أسى كالملعون، اتسع تفكيره، لسع عقله، مسَّ جنونه بيديه، انتظر أن يأتيه ليجده فريسةً ثمينةً رابضةً كالغزال التائه عن القطيع، فيلتهَمه برِفق بتؤدةٍ، يلتهمه ببراعةٍ وانسيابيةٍ حانيةٍ، وهو يتآكل مُستمتعًا شغوفًا برحلةٍ تذهب به إلى العدم، تقضي عليه بالنزف، تخفق روحه وتذبل أوراق حياته، ثم تتطاير ذرات الماضي إلى

الأعلى؛ لتنتشله من وجوده، ويجهز الجنون عليه بلا شفقةٍ أو رادعٍ، ولا يعي ما سيكون عليه، سيضرب بيديه المستقبل الأصم المجهول، سيضرب مائدته السوداء التي تحمل صورة والديه، وينهي فقرة إعجابه بالماضي وينقضي معها المستقبل والحاضر.

(٥٤)

ترفَّق فايز في حديثه مع عادل كي يستبقيه إلى أن يشاء ويأتي الحديث الفارق، بالغ في الثناء على ما فعَله معهم، عاب عليه عدم بقائه معهم في شقته، تعجَّب السامع، بالغ في الاندهاش، ورد كلامه بعِفة، استفهم منه بخجلٍ أينقُصهم شيئًا؟ ألم يعجبهم المنزل؟ فلمَّا شرد الحديث جُذب من بدايته مرةً أخرى، وعاب عليه المتحدِّث أن يقول مثل هذا، فهما لم يملِكا منزلًا من قبل من الأساس كي لا يعجبهم القصر الصغير، ولكنهم على تمنٍ بإهدائه أثمن ما يملِكونه، ولكنه الحال ..، فتلَّمس الآخر الضحك، واستنجى من أفكار البُغض التي شوشته، وما لبث أن أدرك ما يحيط الحديث؛ فتبرأ أن يكون إلَّا الصديق المخلص، لعلهم الخير الذي ساقهم القدر إلى طريقه ونفذ سهمه. تكالبت المواجهة على رقبته وزادت من شكوكه؛ فاضطرمت في صدره النيران لينفد صبر فايز، ويهتدي أن يعرض عليه الزواج كفكرة، فاتسعت الأسارير وتبلَّدت الحواس، وأجابه بما معناه أن هناك للوقت مُتسعًا، عندما يلوذ بعملٍ ثابتٍ ودخل مدر؛ فأجابه الأول بأنَّ الرزق على الله، وهو

الميسور حاله فلِمَ التأخير؟! فانبسَطت الضحكة من فيه المُنادَى، وسأله:

- عندك عروسة ليا ولا إيه؟

فأجاب بشيءٍ من التعجل:

- طبعًا.

سكت فأسرع الصديق المُخلص أن يكمل:

- علية .. أختك؟

فتجمَّد من الذهول وأردف فاغرًا عيناه:

- وعرفت منين؟

رشقه بنصف ابتسامةٍ مع رمشة عينين ونظرةٍ فاحصةٍ للأرض، أعادها لعينه بعد صمتٍ:

- علية .. أختك جايبالي عروسة؟

استعجب وتلفَّت مُلتفًا كالأفعى زافرًا رياح الغضب، عادت ملامحه في الانكِسار؛ فأجابه بعُمقٍ كمَن افتضحت مفاجأته:

- وليه العروسة متكُونش علية!

جاءه على استحياء مُلتمسًا فيه الطيبة ومؤازرًا لهيبته المُندثرة كأخٍ للعروس:

- دي حاجة تشرفني، إنتم ناس محترمة وأنا عاشِرتكم، وأنا متمناش أناسب حد أحسن منكم، وبصراحة من ساعة ما عرفتك وحسيت إنك أخويا.

بظفرٍ بالغ التيه إثر تفجُر بئر الفرح:

- يعني نقول ألف مبروووووك، نضرب زغروووووطة؟

بهدوءٍ ورصانةٍ واستجماعٍ لشطوط الاندفاع، تعقَّل وأجاب بعقله:

- بس عندي شرط.

انعقد الحاجبان وافترش الحزن بئره، واستعاد بعضًا من نوبات هيجان جنونه:

- طبعًا، حقك تُشرط.

(٥٥)

الفرصة التي يتحين وقتها، لا بد من التأكُّد من انكماش الأذرع عليها؛ لئِلا تنفلت وتضيع هباءً، ربما لن تأتي في العمر سواها، وحتى لا يتفاقم الأثَر تواجبت المُوافقة السريعة كان شرطه الوحيد هو .. عملهما معًا، هو بالقضايا المذهبة -ذوات الأموال الطائلة والوقت الوجيز- وفائز بالعقل الخارق المُدبر، مَن يفطن الثغرات بتعقُّل الفلاسفة لا بقلوب العوام؛ فوجب النفاذ ووعد بالزواج خلال الأسبوعين لا أكثر؛ ما يمنع التفرُّس في بروز الحمل مع الأيام، وتبادرت الأذهان على العمل بجدية، فلازمه فايز وتفكَّر بمُفرده، هل حقًا سيُعاونه على تلك الأعمال غير المشروعة؟ كيف؟! هو لم يُخطط لشيءٍ سوى إتمام الزيجة للحفاظ على علية وعلى شرفه ألَّا يُهان، ولكن ماذا أودى به إلى هذا؟ وهل سيخترق القانون

حقًا؟! لطالما عاش حالِمًا بكم الأبرياء المحظوظين، مَن خبَّأ لهم القدر فايز السعدني لينتشل فقرهم ويأويهم بعقله.

دخل عليه في ثوب الاستعداد للمُغامرة الأولى، لم يحدِّثه بالنبرة المعتادة ولكن وجَّه إليه الأمر بالحديث، ما جعل فؤاده مُهتزًا مُهترئًا؛ ففُقد الصواب وتجاوبت الألسِنة تناوبا على الهذيان حتى اشتبكا، وما أسرع العودة إلى الواقع بعد الصعود للحُلم! جلسا مُترقبان اللغز فككاه ببراعةٍ، رسما الأيقونة، تجاذبا أفرع الالتحام ونقاط القوة قبل أن تُطمس بيُسرٍ نقاط الضعف من بعد رشفة كوب الشاي المُعكرة بنسيج الثقة من فم أبي صيرة.

أبو صيرة والعيرة هما العُملتان؛ فالأول فايز والثاني هو عادل شداد، تلاقيا قبل البدء، يتناسب الاسم طرديًا مع الاقتراب أو الابتعاد على الألسن والعيون وهو المطلوب، تناطحا كالثيران المُنشغلة بالطعن وما زال الأسد الرابض مُقتربًا، ولا أحد يعلمه، هدأت النفوس وتناثرت الشكوك في الصدور كغبارٍ عالقٍ أو ميكروبٍ ينتشر، اصطدما بالنزعات الداخلية، لم يُدرك فايز أن صديقه الأقرب الذي يحادثه بالليالي والأيام يحمل داخله كل هذا القُبح، ولكن في الوقت الحالي لا يهم، الأهم هو سداد الدين، المُساومة ما زالت مُتقدة، لُعن مَن أشعلها، وبعض الوجوه تُخفي خلف أقنعتها ما تخفيه.

- الله يمسيكي بالخير يا خالتي شادية، كان عندك حق في كل كلامك، يظهر إني أجيب حقوق الغلابة وأرد المظالم .. مش هو

السبب اللي يخليني أحب الحقوق في حقوق ردها بيبقى صعب أوي، وحقوق بتضيع، وفي حقوق مجبرين نسدها.

أفزعته الحياة لمَّا عاد إليها بعد إفراغ الخيال من ذاكرته، لملم شتاتها واستعاد الألم واستعد على التخطيط وسداد الدين المركوم؛ فزكَّى نفسه وتحدَّث بجديةٍ غير معهودةٍ منه، وكأنَّ القناع تحوَّل من هذا لذاك، تغيَّرت ملامحه بشكل أوج، نبرته داخلها الحزم، والهدوء تهادى، وانقشعت عنه أحاسيس الخوف والجُبن والذل المُنعقدة داخله، فكَّ لجام لسانه القوي، وداعب الكلمات بفمه، استساغ الحديث وانبرى في ذرا الحدث، وهطل الفكر وكأنَّه انتظر على الأهبة، تصيَّد المُراد من فم العيرة، رسم الحبكة ببراعة الرسام، وحكَمها بحكمة الطاعن، ووتَّد من دعائمها وكأنَّه مكاريًا أبًّا عن جدٍّ فكانت كما قالها.

مُتناولًا القلم وهو يرسم على بقعةٍ بيضاءٍ:

- هتبعت حد يحطله في بيته الكمية دي من البودرة، وبكِده يتقلب الحال من تعاطي لإتجار، ومبروك عليه التأبيدة.

تسهم بإجلالٍ رفيعٍ وتفاخرٍ بابتسامةٍ فاحمة، وما أسرع من تلاطم يديه في تصفيقٍ منمقٍ:

- الله .. الله عليك .. فنان يا ابني، ده إحنا هنعمل اللي ما يعُملش، من النهارده إنت ملكي أنا لوحدي وبس.

أغمض عيناه مُترنحًا للخلف عن آخر رؤياه وضمَهما معًا إلى جوف خواطره، تلك الأيام التي ما زالت تلفِظه وهو يقرِّبها إليه لتحمله معها إلى آخر أراضي المستحيل لعلَّها ترضى.

(٥٦)

هكذا سجن سلامة عسران صديقه الآخر ضاحي النمر، هكذا دفعه شيطانه للموت وحده دون صديقٍ يسانده أو غدرٍ يطرحه، لمَّا تلألأت الفكرة بخياله، استمع لها بعذوبةٍ ووجدت طريقها بسهولةٍ داخله، فازدوجت في نفسه وتطعمت بخياله وأجهز عليها تفكيرًا، عندما جاءه ضاحي النمر واستشعر من عينيه التحدي، غرر به قبل أن يتمادى في التفكير، قبل أن يحثه عقله على استكمال فتح المغاليق؛ فبعث إليه مَن يضع في جلبابه "بودرة تِعبان" وأبلغ عنه مَن يبحث عنهما معًا، فأوضعوه بالحجز على ذمة التحقيق، وما أسهل أن يبعث إليهم خاطرة، أن بيته يمتلئ بـ"التعابين" ويزدهر بالبودرة، فاخترُق بيته مساءً وعُثر بداخله على كمياتٍ لا حصر لها من "جراكن الموّن" غير مُحزمة بأي بياناتٍ على غير ما تُباع، ما آثار الشك في نفس معاون المباحث وقتها يستلزم الأمر شركاء، لن يحدث كل هذا بفضل أضعفهم ولكنه القانون، وثَّقت الجراكن وتحرزت بما تحويه ونُقلت تجاه القسم ومنه إلى المعامل التي أكدت أنَّها "مسحوق كوكايين مخلوط".

جلس سلامة بفرعونية عميقة ورجله اليُمنى تعلو يسراه، ناظرًا إلى أقصى ارتفاع شاردًا في الوحدة، مُتأبطًا الشيشة، وصدره يفوح بالأبخرة الكثيفة، نفثَ في امتداد وجهه الدخان العظيم، فكوَّن طبقةً سميكةً يتعذَّر معها الرؤيا، ولم تطُل المسافة إلى أن تفتت الأبخرة وانطويت في أحشاء الهواء، غمرتها بالصفاء العذب حتى

ازداد الصفاء وتوهَّج وظهرت أمامه في صمتٍ رخيمٍ مفتونة في منتهى التوهُّج والانبلاج.

ابتسم ببرودةٍ:

- إيه اللي جابك يا ولية؟

جذبتها الكلمات فأسرعت الخُطا، وربضت أسفل نعليه:

- أنا نفذت اللي عليا، نفذ اللي عليك.

تفحَّم وجهه وأربد:

- يا ولية مش اتفقنا، لمَّا الموضوع يهدى؟

تكاثفت الأشواق على وجهها:

- حاضر، همشي يا سيد الناس وهختفي، ولما يجيلي الحُكم هتلاقيني قدامك.

باستشاطةٍ وغضبٍ:

- لأ، لما أعوزك تيجي تيجي، يلا اخرجي بسرعة.

تواربت عن الأنظار واندست بقلب الخِسة، يلعنها الغدر، ويمتعض من براءة عينيها الكاذبة، ما أسهل خيانتها القذرة! وما أعتى شيطانها الأهوج، ولكن تُرى.. هل يقع عليها الذنب وحدها؟ أم على مَن خطط ودبَّر كل الخيوط ليلضمها معًا، تُحاك المؤامرة بلزوجةٍ ويُسرٍ من عقله الألمعي، ليوقع كل هؤلاء بسلاسةٍ وفُجرٍ.

(٥٧)

سحب بساط الفضول من على مائدته وألقاه أرضًا، الآن وقد تعاظمت لديه التبعات، نما إلى مسامِعه النداء فتجاهل، شيءٌ ما يلوح بالغموض؛ فتهادت الأسئلة كما يتهادى المطر في ليلةٍ غائمةٍ.

- تعالي يا شادية عايز آخد رأيك في حاجة.

- خير كف الله الشر.

- بقولك إيه، أكتر حاجة تزعلك مني غير إني أموت، إيه؟

- إيه الفال الوحش ده بس، تف من بُقك، فيه إيه يا صابر؟ مالك.

- جاوبيني يا ولية.

- مفيش حاجة تزعلني منك أبدًا!

- بجد، طب الحمد لله بقولك إيه يا شادية أنا .. هتجوز.

- تعمل إيه يا روح أمك!

(٥٨)

تزاكمت الخلايا، فانسدت طُرقها الممهدة، تناهى إلى المسامع بالقبض على شريك المعلم سلامة، التحم الجمع من فورِهم، قصَد بيت المعلم رضوان كل من "المعلم مجاهد الشاهد، حلمي هوادة، سـالم الدايم" يتقدمهم المعلم عربي النحَّاس، تأملا المسابح قبل الدخول، عانقهم الخوف والترقُّب، ضرب الخبر القلعة وما

يحيطها، وفي قرارة الأنفس تتلألأ الأجواء، تنحنحا همًّا بالولوج، تعالت السلامات قبل الابتسامات ومضَت تُزين الوجوه البائِسة، فترت الكلمات فتُورًا عنيدًا، اقتربت الأكواب الملتمعة بالشفاه الغليظة، ارتشفت الشاي المُزخرف بنعناعه الزاهي، حرَّك المعلم رضوان خاتمه العقيق بعذوبةٍ وبدأ الحديث المُعطر يمطر.

- منورين يا معلمين.

- ده نورك يا معلم رضوان.

تبادر المعلم سالم:

- إيه اللي سمعناه ده؟!

جاهد المعلم مجاهد الحديث لئلا يتضح ما يخفيه:

- أكيد الموضوع فيه إنَّ.

تهادى المعلم هوادة:

- حلمكوا يا جماعة بس لما نسمع إيه اللي حصل؛ لعله خير.

تشدَّق رضوان بدءًا للحديث وأضرم:

- الأمان قل ولازم نستعجل ونوزع واتفرقوا الأحباب.

لملم سالم حواليه مُتداركًا:

- دلوقتي يا معلم رضوان في الظروف دي!

أفصح شاهدًا:

- العيون مفنجلة علينا والقلعة متعرية، وشوشنا مكشوفة للأعمى يا معلم رضوان.

تهادن المعلم حلمي:

- بالهداوة بس، المعلم بصيرته حدادة ومش هيضر حاله.

نطق عربي كمَدًا:

- مبقاش فيها صبر، البكرة بتتكَر ولازم نستعجل ونمد ليحصلونا.

أكمل رضوان على كلام صديقه:

- ومش بعيد نتدفى كلنا في حضن بعض قريب.

أسلم سـالم:

- قصدك إيه يا معلم رضوان، هو ممكن يلطش.

وضعها رضوان داخله بعُمقٍ:

- وهيبقى على إيه ولا على مين! على العموم أنا عامل لليوم ده من زمان، وكل شيء متخططله صح.

أنهى بحزمٍ وقدرة المعلم عربي:

- نتوكل على الله ونتفق على اليوم والساعة ونحضر نفسنا للميعاد.

تملَّكهم الذعر مُتخوفين من تسرُّع الأحداث بعدما ظلت سنواتٍ دفينة مُتبطئة، فآثروا التفكير والتعقل، ولمَّا صارحوه بما يعلَق بالأذهان نهَرهم بتذاؤب، توجس مِنهم خيفةً، وطرح عليهم الأسئلة علَّ الخواطر تفسد عليهم الخطط، فعلِم بتجلي نواياهم وعز عليهم السؤال الأخير؛ فأجابوه بتعرُّجٍ باهت فلمح من تعابير

الأجساد خيانةً مُقتربة، فتملَّى الصمت وعاد إليه مُستوحشًا، وأجهز رضوان الجيَّار على مسبحته مُبادرًا بالحوقلة.

(٥٩)

دبرا معًا لسجن ضاحي النمر، كما أمره المعلم سلامة، أتاه يلهث يبحث عن سبب احتياج الأسد للثعبان، فكان الاحتياج لهذا السبب "تلفيق التهمة وتوقيع أقصى عقوبةٍ عليه"، بدأ العيرة بالتلميح إلى أن فتح عادل شداد مع فايز الحديث دون تردد:

- فيه معلم تقيل في السوق اسمه....
- مش مهم، مش عايز أعرف.
- براحتك، المُهم المعلم ده اتمسك إمبارح بحاجة لا تُذكر.
- بسيطة، عايزين تخرجوه صح!
- لا ده في المُسلسلات والأفلام شُغل سرقة محضر الضبط والتحريات، إحنا مش هُواه، إحنا مُحترفين يا أبو صيرة.
- أبو صيرة!
- ده اسمك من النهارده، إنت مش من عين الصيرة يبقى اسمك كده.
- وإنت هيبقى اسمك إيه؟ أبو القلعة ولا أبو....
- هاهاها خفيف.لأ أنا العيرة، مفيش مني أصل، كله تقليد ومحدش هيعرف يوصل لوشي.

- ماشي يا عم الفالصو، كَمل كنت بتقول إحنا مُحترفين أومال عايز إيه، مدام مش عايزه يخرج؟!

- عايزين نزود مدة سِجنه لتأبيدة، عن طريق تعديل بسيط في محضر الضبط والتحريات، فكر إنت بقى، نشتري أمين شرطة، نشتري موظف.

- نشتري أمين وموظف، إحنا مش هواه إحنا محتُرفين يا عيرة، التعديل هيتم من جوه وبإيديهم .. إنت لسه جديد ولا إيه؟

- مش فاهم.

- ركز معايا، الإذن خارج بمحضر تحريات في الجاني، مش مسكنه. صح؟

- صح.

- إحنا هنرمي كلمتين للمباحث بعد ما المُتهم والمحامي يكونوا خلصوا إجراءاتهم وهيخرجوه منها، نقول في الكلمتين دول، البيت عمران .. بس.

- هيطلع أمر بتفتيش المسكن، يلاقوه عمران وياخد تأبيده، بكده تتحول من تعاطي لإتجار

- دماغك سم يا أبو صيرة.

(٦٠)

واضِعًا سبَّابته على المنضدة يُحرِّكها بصورةٍ عشوائيةٍ مُتسارعة، تحامل عليه التفكير حتى خلا من التعابير وجهه، سبقَتهم الحيرة راكضةً من داخِلهم إلى المنضدة كفأرٍ هاربٍ من مَكمنه، عبث بهم الصمت فبدأ شريف الكلام واثقًا من عدم جدواه.

- إيه يا طه بيه، هتفضل ساكت؟

- هتكلم أقول إيه، في حد بيبوظلنا اللي بنخططله بقالنا مُدة، شغل شهور بيضيع، نفسي أعرف مين اللي بيساعدهم من جوه القسم ولا من بره، إزاي عنده معلومات؟ ليه عايزين يخلصوا من ضاحي؟ ليه مش سلامة؟ أكيد التجار هما اللي بيرسموا كل ده، أكيد شحنة كبيرة بيحضرولها وعايزين يقللوا العدد، بس ضاحي! سلامة هو العقبة دايمًا مش ضاحي!

- ما يمكن ابتدوا بضاحي عشان يهتوا سلامة، يتدارى ويتكِن شوية أو ييتجهزله خارجة زي ما عملوا مع صاحبهم بتاع زمان .. اللي اسمه تقريبًا .. عبده.

- كل ده أنا معاك فيه، بس مين اللي بيخطط، اللي بيخطط قاعد بره الصورة؛ لأنه ماشي صح أووي، لدرجة محدش يتوقعها، ومُستحيل يكون سلامة؛ سلامة مش بالذكاء ده والتُجار مشغولين باللي جاي.

نظر إلى الأفق ذاهلًا مُتفكِّرًا في حديثه:

- أنا معاك بس مين اللي هيهتم يخططلهم وهيستفيد إيه، مُستحيل يعني يبقى واحد بيخطط بدون مقابل.

ابتسم واتسع ثغره في وجومٍ:

- وممكن يكون بمقابل.

نظر إليه باحثًا في رؤيته، تحالف معه داخليًا فقط:

- مستحيل.

- مُستحيل ليه يا شريف، عادي أي حاجة واردة لازم تسبق كل اللي حواليك وتفكر في اللي مُستحيل يحصل قبل المنطقي؛ عشان على ما توصل للمستحيل هيبقى هو المنطقي.

- والله عندك حق، المهم تعالى أنا عازمك على أكلة هتاكل محاضرك وراها.

غادرا هادئين بعدما أعادا سريعًا الفئران السابحة داخل بحور الحيرة المُتسعة، ضم شريف كفه بيسرٍ وانزوت سبابته جوار إخوتها في قطيعٍ واحدٍ متناسِقين في التفكير والخروج عن المألوف.

(٦١)

بعدما حققت ما أرادته إلى الآن، جلست تنفض غبار الماضي الضعيف من على لوحتها الباهتة، استثقلت الأيام حتى الآن، حتى بعدما تواصلت للحلول بمفردها، لم ولن تكون هشةً يطويها الريح في ليلةٍ قاتلةٍ، ستصير يومًا إلى ما أرادته، تخرجت علية من كلية الإعلام وسعَت في الوصول لفرصة عملٍ بكل الأشكال، وما

يئِست قط فما أرادته مُتحقق ما دامت إرادتها، غاصت في وحل العمل الحر، وتشبثت بثكلى الأحلام، ولكن عيناها لم ترى يومًا سوى هذا المكان، هذا الكُرسي، الأضواء تلهب الجفون، الشهرة تثير العيون، مضت مُطمئنةً بسهولةٍ الوصول مع اتباع المُنعطفات وعدم اليأس، مهَلًا ما حدث في الصغر لن يأتي ما بعده أقسى، ولكن هنا يخبو السِر، لا بد لها من إنهاء تلك الموضوع في أسرع وقتٍ، الطفل الذي سيولد! لأبٍّ ليس أباه، وأمه ساومت على أخيها في ديار الخطر، وأقنعته بالدخول جوف الفخوخ وهو سعيدٌ من أجلها، والآن يتدبر لها ترك الأخوة وترك الحب وترك الزوج، والتفكير لحياتها الآتية. يومًا ما ستمَحق كل تلك الخواطر أسفل نعلِها حينما تكون بصدد المُستقبل، تلك الأنانية العنيدة التي تجذب الكُفر من أذياله، عزمت على التخلص ممَّا تحويه داخِلها في أسرع وقتٍ وبدون علمٍ أقرب مَن إليها، وبعد ذلك فليعلموا أنَّه قدر الله وما شاء فعل.

(٦٢)

القُضبان الحديدية لا تخفي سوى الحقيقة، وهو الحقيقة المُخبئة على الرغم من الظلام القاتم، النور بداخله يصدح يتلألأ، الجميع ظنَّ أنَّ خسارته فادِحة، ولكن المعلم ضاحي راضيًا بكل ما وصل إليه؛ لعل في سجنه راحته، ظنَّ الجميع أنَّه مسجونٌ، ولكنه على يقينٍ أنَّهم الخاسرون، فكأنَّه ينتظر يوم ابتعاده عن طرقهم

المزدحمة ويقترب من الطرق الخاوية، طُرقٍ تزدهر دون خوفٍ من الأيام؛ فها هو الآن لا يعبث سوى مع أفكاره، ربما هو الآن ابتعد عن الخطر، وهما ما زالا يُناطحوه، ولا أحد يعلم إلى متى؟ لازم الصلاة وابتاع إليه الأصدقاء في الزنازين المجاورة كُتب العقيدة والفقه المُيسر والقرآن على وسادةٍ لم يبرحها، أما المسبحة اليُسر المُهداة إليه من أحد مريدي السيدة هي الشيء الذي افتقده ولم يستطع طلبه، تذكَّرها مع السجادة الخضراء المُختلطة رائحتها بالمسك الأسود الكثيف والعود العتيق، تمادى الدخول في أسِرة الانغلاق، وعباءات التدُّين، ومكث بين جدرانه غير مُستعِدٍ للخروج، تمادى في الوحِدة الصماء عندما وصلته أخبار تشيع بضرورة تطليق زوجته .. لماذا؟! كيف؟! طلبَها ولتُكن إرادتها على طريقٍ مُتسقٍ مع إرادته، طلَّقها بدون مُشاغبةٍ، الكل تركوه في منفاه دون ردٍّ يأتيه أو سؤالٍ ينهره، وهكذا سقطت كل الأقنعة في عينيه أكثر فأكثر.

تسفد الفِكر، خمَد البال، تحشرجت الأنفُس وانقطعت الأوصال، فلا زوجة ولا ولد، لم يُرد الله له أن يصير دُبره موصولًا ولا اسمه مُكتملًا، سيرته ستنقطع رغمًا عنه، ليعلم أنَّ من أعماله ما لحق به، سيصير رُفاتًا مجهولًا لا أثر له ولا نداء يتبعه، سيصير كما لم يكن، حتى العمل الذي سيلحقه ملعونًا، انهالت عليه التساؤلات تضربه براحتيها، لن ترحمه ولن يرحمه ما علم به، ربما عبده سببًا للزج به هنا، ولمَّا علِم لِمَ قتلوه ترحَّم عليه، سرى في نفسه نشوى الندم، لم يكُن يعَلم! الآن علِم .. ماذا سيفعل؟ هل

كان سينتقم لو تحيَّنت الظروف وكان يقبع حولهم؟ هل سيثأر لعبد النبي؟ هل سيثأر لنفسه؟ مَن الذي فعل به هكذا؟ سلامة صديق عمره، أم التجار؟ ولكن سلامة غدَّار، أوَ نسيت ما فعل؟! أم زوجته هي التي دبَّرت له المكيدة لسببٍ ما يعتَمِل في صدرها؟ نعم، فهي لم تنتظر سوى أيامٍ وعاجلته بطلب الطلاق، أهو عشيقها الذي دبَّر له المكيدة؟! ربما يكون هناك سرٌّ لم أعلمه بعد! سيأتي حتمًا دون سعيٍ خلفه.

(٦٣)

نظر إليها في خُف الجمال وارتادتها عيناه ليالٍ في خشوع، استكمل الهوى فلفِحه بنسيمٍ من فحوى الذِكرى، على الرغم من صبره الذي ضاق، لم يهتم إلَّا بالتروي مُتأملًا حاله المُزري، كم حزِن سلامة لسجن صديق عمره لحظةً وتناسى وأكمل في الدقيقة اللاحقة! هل يحمل قلبًا مُنكفئًا على مصلحته فقط وليذهب الجميع إلى الجحيم؟ حينما رآها معه يومًا عاديًا، صمم على الزواج منها بأي طريقةٍ كانت فتلاقت الخطوب، لمَّا أحس منه الغدر يوم أن جاء إليه مُستغيثًا من تساؤلاتٍ التفت حول عنقُه؛ فطرحَها أمام عينه، وأشفى ما أربد وجهه، كان ذهوله أقوى من الإعصار، حين علِم لماذا قرروا قتل صديقهم عبده؟ وكان يظنه مات من قهره وسلب جدران عُمره؛ فأضاءت في خيال سلامة فكرةٍ ماردة، أن يسجن المعلم ضاحي؛ فتارةً كي يُخرس عِنده، وتارةً لتخلو له

الأجواء فيلتقي المفتونة ويتأهَّب لها. وكان ما أراده بعدما أسندها لمُحامٍ خريـجٍ يُحب المال أكثر من أنفاسه، وعليه فتم تنفيذ مُراده، ولكن بعد الزج به في السجن، هل يأمن لسانه؟ هل يأمن غدر مَن غُدر به؟ بالتأكيد سيضرب الحائط رأسه حينما يصل إليه خبر الزواج .. زواج سلامة من زوجة ضاحي.

(٦٤)

علِم ضاحي في محبسه بشيءٍ ما يتجهَّز له، وعندما وصله الخبر انهار في الضحك، ضرب الحائط رأسه ممَّا كان ينتظر، ويكأن تساؤلاته تواصلت واشتبكت وانجلى حلها له دون سعيٍ منه جاءته الإجابات كما ظنَّ؛ فكان الذي دبَّر المكائد له هو بالتأكيد، فراجع ما بينهما من مواقف خالجه شعور الندم حينما تذكَّر وقت أن حايله بسداد ديّن عبد النبي وزمَّ شفتيه، الآن وقد أصبح الأقرب إليه هو الألد عدوًا، وأثناء الغوص في الماضي، انتشله صوت النداء:

- يا معلم ضاحي .. زيـــارة.

زحف بخطىً مُتثاقلةٍ كمَن يتجه لباب إعدامه مُتسائلًا: يا ترى مين اللي لسه فاكرني!

طالعه وجهٌ مُندفنٌ في الخطيئة مُلثمٌ إلى حدٍّ ما، لا يرى منه سوى ظهره:

- مين؟!

أدار وجهه في حركةٍ سينمائيةٍ وكأنَّها المفاجأة، تهدَّجت الأنفاس واضطربت، أفصح الوجه عن شخصٍ يألف وجهه ولا يألف مرجعيته:

- خـــــاطي!

- إزيك يا سيد المعلمين.

- جاي توَّصل رسالة ولا ترمي شماتة .. ولا تدفع تمن خارجة؟

- جـاي معـاك مش ضدك، من يوم ما سمعت المعلم سلامة وهو بيتكلم في حقك مصدقتش، بقى الراجل الدون ميكفيهوش اللي عمله فيك، لأ ويروح يتجوز طليقتك.

اصطدم ضاحي بحائِطه الخرساني المُميت ظنَّ أنَّها النهاية، تسارعت ضربات القلب في خضم الحديث؛ فصمَت غير مُستجيبٍ للصمت أو البكاء استمع للحديث دون استيعابٍ، قبل أن يدخل الزائر وصله الخبر مؤكدًا أنَّ التجار وسلامة يجهزون له خارجة تليق به، فانتظر فالموت على المحك، سيدخل إليه الآن أو في أسرع وقتٍ رجلٌ من روائح التجار، يستل روحه من جسده ويتبخر كما لم يكُن، ما جعله مُنتظرًا أن تأتيه الروائح وتهل عليه الغيوم الدنيئة.

التفت ضاحي لزائِره قبل رحيله إلى الزِنزانة ورمقه بسؤال: السِبحة دي إنت اللي باعتهالي؟

اقترب الخـاطي بهدوءٍ من كُرسيه وقفز أمام عيناه، مُقتربًا أكثر فأكثر: أنا مبشِلش سبح، أنا بخطي البِرك بس، بِرك الدم. ربما يكون هذا الزائر هو رسول سلامة، وربما أتى ليمهِد له قُرب نهايته .. لا يعلم لما الآن قدّر!

(٦٥)

أعلنا منذ ساعاتٍ التحرُّك؛ سيتحرَّكون تِباعًا يسبِق المعلم رضوان والمعلم عربي الثلاثة في هدوءٍ؛ حتى لا يشعر بهم أحد، ولا تُثار الرِّيبة في النفوس دون داعي، الوِجهة ستكون على المنزل المهجور منذ زمنٍ أو بالأحرى "منزل عبد النبي السعدني" الشامخ على مقربةٍ من ميدان القلعة، ابتهج الجمع وسمع المعلم سلامة بميعاد التحرُّك؛ فلزم بيته علَّ المرسال يأتي استدعاءً لحضوره، وتقسيم الغنيمة التي طال الزمن وشاب الشعر في انتظارها، البيت الذي اشتروه بثمنٍ بخسٍ، البيت الرهين بات أثقل وأثمن من القلعة، المنزل يحوي أسفله آثارًا تعود إلى عصرٍ سحيقٍ، تماثيل مرصعة من الذهب الخالص، توابيت مُثقلة، مُتحف صغير يخبو داخل صدر الخليفة الفاطمي، ابتهج المعلم سالم يليه حلمي ومعهم المعلم مجاهد، أكثر ما طمأنهَم هو الثقة التي لمَسوها من كلام رضوان، وقرر أن يسند إليهم مهمة الدخول أولًا.

- البيت بقاله سنين محدش دخله، والحفرة محدش فاكر مكانها، الراجل ده يا إما واثق فينا .. يا إما هيدفنا فيها.

- ميبقاش ظنَّك وحش يا سالم، الراجل لو خِلص منا، الموضوع هيتكشف وهتيجي رجله معانا، ولو مش واثق فينا مش هيبعتنا إحنا التلاتة وممكن نغدر بيه ونبلغ، ونستناه هناك نوقعه، أو ناخد اللي نقدر عليه ونخلع.

- حلمِكوا بس يا جماعة بالهداوة كده، خلونا نفهم؛ الله يمسّيك بالخير يا معلم ضاحي، لو كان حوالينا دلوقتي كنا عرفنا منه كل حاجة على المكشوف.

- مش يمكن هو جوه عشان قرأ اللي هيحصل!

- الله أعلم يا سالم، أنا قلبي مش مطمِّن، وحاسس إنها خِلصت.

- بشويش بس يا مجاهد، ربنا يجيب العواقب سليمة.

- لا يا حلمي، مفيهاش هوادة، الغلطات كِترت، الحساب قرَّب، سِكتنا على ظلم ضاحي، وقتل عبده، فاكر عبده؟ اللي مات هو ومراته، عشان تَمَن علاجها، وخدنا منهم البيت بتراب الفلوس، وقولنا لسلامة وضاحي اللي هيساعدهم هيموت، لا رحمناه ولا سيبنا رحمة ربنا تنزله، وساب عيلين ملهُمش حد، هما راحو فين صحيح، لازم نروح نشوفهم، أهوه نعمل خير في آخر أيامنا.

- يخلص اليوم ده بس يا عم مجاهد ونروح كلنا نشوف طلباتهم وننفذها، وربنا يسامِحنا بقى في اللي حصل زمان، كانت وزَّة شيطان، أهو واللي هنعمله معاهم يغفرلنا.

همُّوا بجهدٍ تجاه المنزل المرصود، تحرَّكت عزائمهم وتراجعت خُطاهم، انطرح القلق في الطريق على الجانبين، استدعى الرهبة ومعها الجلبة، وبدآ من شرفة باب المنزل المهجور نظرا، تلك الشرفة التي خرجت منها آخر روحٍ فارَّةً للسماء قبل أن تنغلق إلى الآن، وينغلق معها فُتات الضوء وبراءة الحياة.

(٦٦)

قبل موعده كان حاضرًا، ينتشي في زيه المَلَكي، وروائح الجِد تفوح من جنباته، تضيء ناصِعته بضياءٍ غير مُعتادٍ، وحذاؤه يرنو في لمعانٍ فائق، وابتسامة حية تعلوه وتكسوه، قبل أن يأتي لم ينسَ المُكالمة في الميعاد المُحدد، ليلى هي الحياة وفيها الجنون وعلاجه، لا يمر العُمر دون لحظات استنشاق صوتها واستلهام حضور صمَتها؛ فهي الحنان وسط غابات القُبح والشدة، هي اللينِ وسط طوفان الميري وقسوته، ضمَّ قلبه صوتها في بهجةٍ وحُلمٍ زائد، كم من الأعوام أُثخنت رغباته واضمحلت وحدته بفضلها، تمادى في الانتظار على أملٍ، تربَّع على عرش مفازة الصابرين، تفنن في الغدو والرواح، وغشيته الفُرص السانحة، فكان حظه وفيرًا، وتدرجه سريعًا؛ لعل هذه القضية هي الأوسع والأعتى وعند اجتيازها سيصعد إلى الشرفات الشاهقة دون سكونٍ على الأعتاب، أنهى مكالمته ولم ينتهِ تفكيره حتى استلم صوتًا أمام عينيه وهو واجمٌ مُطرقٌ...

- هاااا
- لا، ده إنت في دنيا تانية، اللي واخد عقلك.
- إنت عارف إيه اللي واخد عقلي.
- مفيش جديد.
- ربنا يكرمنا ونروح في أسرع وقت.

نطقها واستلزم الأمر دقيقةً رنَّ فيها هاتفه واستدعى فيه القلق، نظر لمَن أمامه وردَّ على الفور، تنحنح وتحدَّث برموزٍ مُلغزةٍ نفث في الجو الوجوم، وعاد بلا موالاةٍ ثم أفصح عن رمزه.

- فيه حاجة غريبة؛ التجار هيتحركوا على بيت مهجور أكيد فيه تسليم هناك، بس الغريب إن مش كلهم رايحين، أكبر تلاتة مش هيروحوا وده معناه حاجة من اتنين: يا إما هيوقعوهم وهيجيلنا بلاغ بالتسليم، يا إما...
- يا إما إيه؟

نظر إليه وعيناه كادت تخرج خلف فضوله:

- ربنا يسترها.

انتظرا البلاغ بالتحرُّك والوجوه المُمتقِعة المُنتكِسة ظلت واهيةً، حدَّثه شريف نصر بما يجوب بساحات الصحافة قليلًا، وسرد إليه قليلًا عن حياته جرَّاء زحف الصداقة بينهما، حدَّثه عن زواجه الذي اقترب ميعاده، وأثنى على صداقتهما وألزمه بالحضور وإلَّا، فربَّت على كتِفه شريف مُبارِكًا ودعا له بالذرية الصالحة ودوام السعادة والصحة.

(٦٧)

لم يكذِّب ما تلفَّظ به؛ في نهاية الشهر تزوَّج امرأةً يرتج صوتها في دار اليُتم، في بداية الثلاثينات اختارها من سِلسال الرجال ولَّادة كأخواتها الشقيقات، وكأنَّه عثر على كنزه الثمين الذي يدعكه يخرج له من البنين فدادين؛ فتعاظمَت هِباته بعدما عاد لعمله منذ الحادثة المشئومة، لم يستطع تناول الأحاديث والزج إلى ممرات الأبوة الخافِقة قبل أن تهوى به الأيام إلى مرابض السافلين اجتازها بعمله هربًا .. صابر النردي، ربما تلك شجَّ رأس ذلك النرد الحجري تفاتن بالتصابي فأكمل، وإن كان جُرمه حرامًا فزواجه حلال، ولمَّا علم بقدرته على الإنجاب فمَن يمنع الخير إن أراد النزوح؟ تُرى.. من يوم أن أبلغته أنَّها ستصير أسفل قدميه خادمةً، ولعبت في نفسه الحيرة وتساءل وعاد خاويًا، كلام الطبيب له أنَّه عقيمٌ، اليوم صار زائفًا، من الممكن أن تكون شادية هي مَن خططت لئلا يتركها ويرحل، ومن الممكن أن تكون لعنةً وبرأ منها سبحان الشافي المعافي، يخلق من العدم يقول للشيء كُن فيكون! رُبَّ ضارة نافعة، لو أنَّه لم يثُر ثورته النورانية تلك، ربما ما زال لم يعلم أنَّه ينبُض شبابًا سليمًا، ربما ظلت شادية تداعب قدرته السالبة وترميه كحجر النرد ليرسو على اللا شيء، بعدما أزالت طوال السنين كل أرقامٍ مسَّها حدسه وخبأها له قدَره، تلاعبت به الأمواج فتارةً يظلمها وتارةً يخلي سبيلها وهو التائه الغريق؛ يبحث عن موجةٍ شديدةٍ تضربه، تقتلعه، تأتيه بما يريد، روحه ما زالت مضطربةً،

لن تندمل إلَّا بعد تسعة أشهر تمر في هدوءٍ وتطرح نماءً وتكذِّب الماضي.

عادت خطواته على التجاسر والسير في الاتجاهات المعكوسة، دأب على الممرات المجهولة فسارت به عنوةً إلى الأشد إظلامًا؛ زيارة مهمة احتاجها قلبه واجتاحها هواه، في ساحة الانتظار جاهد نفسه ومكث في فضولٍ، خرج عليه في ثوب الظلم ودفء الرضا، ما لفت نظره في الزائر السبحة المنمقة والعطر المضمخ به جلبابه، تراءى له من بعيدٍ عن استفهامٍ مستندة عليها الأوجه:

- وشك مش غريب عليا.

- شدة وتزول يا معلم ضاحي، أنا صابر النردي، اتقابلنا على شباك المقام وقولتلك ساعتها.

- أيوه .. أيوه، إزيك يا حاج صابر، كلامك مهوِّن عليا كتير أوي.

- أنا أول ما عرفت قولت واجب على رقبتي، اصبر صبر أيوب ولو ظلموك، مسير الحقيقة في يوم تبان .. شِدة وتزول والهم يهون، واللي باعك بيعه كلها أماكن هنسيبها، متفرحش بألوانها، لو احتجت حاجة ابعتلي يا معلم. (وعندما همَّ بالخروج تبيَّن له النسيان فتلفت) الحاجات اللي ببعتهالك بتوصلك؟ السبحة فين مش في إيدك ليه؟!، ضاعت منك؟، خد دى مكانها، حاكِم اللى معايا أصل، اللى معاك عيرة ؟!

أشار له دون حديثٍ، شرد الوعى تجاه السر، وعادا كلٌّ إلى اتجاهه.

(٦٨)

تكدست الفقرات بأكملها وطاشت بالحبل الشوكي إثر حمل الذنوب والخطايا، سيقت مفتونة للموت دون رادع، ومن يمنعه إن جاء وينفُره، صِرعتها الذلل فكانت كالتائِهة البلهَاء، لا هي رأفت برحيم عليها ولا إلى جلادها العاشِق ارتضت، القط الذي يتوق العذاب ..لا يُدلل، باشرت ما رصدته، ولزمت جوار عسران بعد أن وضعت الأيام مغاليقها على البرايا، فلم تجد منه سوى ما تألمه، هو ذاك العِشق المَجنون، الذي وإن دام تعفن، لكنه رائع في الخطفات السارقة، لا هو يتمادى ولا يفوح، ظله ظلام وظلامه أسود، نفِرها مُطلقة، وعشِقها مُتزوجة، ولمَّا جاءَها الاختيار، قررت وباعت حياتها بالأبخَس، ونفَّذت المطلوب منها وساعدته على دفنه في سجون الجدران كما دُفن معها في قبو الزواج، ولمَّا استلم طلبها بالطلاق، فاستهلَّه بانشراحٍ ولم يُعقِّب، طلَّق قبل أن يستخير، وفارق بعد افتراق، استقرأ الأحداث جيدًا بعد ذلك فابتسم، وبما أنَّها أجادت الدور فاستلزم الرضوخ بما أُمرت وإلَّا الانتهـاء، وكأنَّها اتكأت على جدارٍ مائل وسفحٍ زائل، بعد أن انطفأ لهيبها فيه، وتبخَّر هواها داخله، وتكاثفت الأيام حتى مثُلت على الأرض الميتة ذكرياتٌ صفراء ذابلة، فداسها وهشَّمها بحذائه؛ عاندت، لطمها بعنفٍ، وبخته، بصق في داخل وجهها بتسلُّط، ولمَّا هددته بالإفشاء وتبادل الفتن صُدم، ورآها على غير هيئتها؛ فبعد

أن كان فيها نشوته صار منها الرياح الصاخبة تنداح وتتقلَّب، فأَصر على إغلاق الأبواب المفتونة في أسرع وقت.

تشبعت بالغِل أسبوعًا، مرَّ عامٌّ، جذبها الندم وتمام الانفلات، أحرق جفنيها دموع ظُلمها لمَن راعاها وآواها إلى أن تفتنت، وعندما فُتنت هو أول مَن استطعم الفتنة، تغيرت في لحظةٍ وضُحاها رؤيتها الضاربة، واستشعرت خيبتها وهشاشتِها أمام الرياح الشتوية العاتية؛ فتشجعت وعزمت، صعدت الشمس في بيتها فصعدت معها إلى الإفشاء، باحت لمَن أباحت له نفسها يومًا أنَّها ستُبرئه أمام الدنيا ولو مُزقت؛ فجاءت على تمام المُضي والرضا، فطِنت لمَن ساند على زجره، بعد أن سيقت إلى هنا كشاهدةٍ اليوم سيقت كمتهمةٍ شريكة، لن يجدي الصمت ولم تجد للظلم منفعةً؛ أفشت اليوم لطه باشا السيوفي بما حدث تفصيليًا ولم تخبئ ولو همسًا، أبرأت ساحته فعِلم منها خيرًا لما بدا منها رجوع إلى الحق، ونظر إليها بتفحصٍ وخالجه شيءٌ من الارتياح، لمَّا علم أنَّ رؤيته سليمة وأنَّ النمر كان كبش الفداء للحيتان المُنتظرة، استفسر منها عن كل شيءٍ فلم تُكذب، وأشارت بدون إشارةٍ لسلامة وأعوانه التجار، كما استزادت وأفصحت بما لم يخطر له يومًا ببال، سلامة عسران والتجار سيلتقون اليوم بالمنزل الآيل للسقوط القابع بصدر القلعة اتجاه السلطان حسن، والسبب تقسيم الكِنز، فلمَّا سبح وسط الغرفة إلى أن حدَّجها باستعجابٍ رحيم .. أيُّ كِنزٍ؟! فأجابت بإيماءةٍ ضاحكةٍ عندما رأت سلامة يُصفد بالأغلال في منتصف باحته: كِنز عبد النبي السعدني.

(٦٩)

لسرعان ما يفوح الخبر في الأجواء كما النسمة في الفضاء؛ انطلق للتو غُبار الخاطي يُخبر سيده بما رآه، لم تعِ مفتونة وهي تخرج من قسم الخليفة وصوتها يلامس كنف طه باشا أنَّ رؤيتها على الملأ طاغية، وكأنَّها اشتمت فيه الأمان، ولكن هل يدوم الأمان في غياب الكنف؟! تبخترت مفتونة بمَن جاورته، أملا عليها وسجَّل أقوالها، اعترفت بجديةٍ وبطلاقةٍ ودون فقدٍ، وانزلقت على كلمة "شاهد ملك"، وعدَها بالكِتمان، وعدَته استعدادها بالنُطق بالحق أمام النيابة، وعدها بالعودة صباح الغد لإنهاء المُهمة المُوكلة، وعدته بالحضور منذ البكور للإدلاء بالشهادة، وعدها بعد أن يتم الإفراج عن طليقها والإمساك بعشيقها في نفس اللحظة، وسيتم توقيع أقصى عقوبةٍ على المُدبر بعد اعترافها، وينغلِق عليها الباب المُخبئة تلك الرياح خلفه. أمَّا الطلاق فكان بالإجبار وما يقع تحت التهديد فهو باطل، ويلتزم هو بنفسه بتوضيح الأمر برُمتِه للمعلم ضاحي بعد فرحة خروجه سالِمًا، والقبض على سلامة والتجار في آنٍ واحدٍ متلبِسين. أمَّا إلى الكنز فآثر الاستماع منها تفصيلًا ما تعلمه ولكن ليس اليوم، بعد إتمام القبض لئِلا تنفلِت الزمام، عليكِ اليوم بالاستظلال بالظُّلمة والتدثُّر بالسماء الكاسية والتخفي أسفل النجوم الزاهية إلى صباح الغد، ولا تذهبي لمنزلك مهما حدث، سمعت منه الأوامر وانجابت لتنفيذها على الفور، سارعت الخُطا في الممرات فسيحة الضيق، وأزمعَت على الذهاب إلى أبعد

الطُرق وأوعرها في الاختفاء، فقط تحتاج من القدر الابتعاد تلك الساعات القليلة القادمة إلى أن تنهي كل الأزمات عند عرضها على النيابة، اختبأت بعدما ابتعدت واستظلت بالغروب ومكثَت مُطمئنةً سابحةً في عرين الذكريات المشتعلة، إلى أن انزعجت بفتورٍ واستعدَّت باهتياجٍ للقاء مصباح الأمل، ضاحي الذي أمسى مُضحيًا لها دائمًا وكافأته بما فعلت، ولكنها عادت الآن إلى وعيها وستعوض كل ما حدَث، لم ترد سوى فرصة، والفرصة ستسنح غدًا، لهجَها الشوق وأضرم في خيالها السرمدي الطلاقة والإصرار؛ فاجتهدت على التفكير فيما يُرضيه، فما تذكَّرت شيئًا إلَّا مسبحته المُزخرفة، ما يجد فيها حلاوة الذكر وطمأن القلب، تأكَّد الحنين فانجابت على الفور لبيتها رغم المُعوقات والموانع، رغم نبذ الطاعة وسُقم الأوامر، شارفت على المنزل دون درايةٍ ولم تُحدِّث نفسها بالخطورة، أرادت إسعاد عينيه ووئد غضبه فور رؤيتها، أن تُمتزج أحاسيسه فتزداد مشاعر الفرحة وتفتر مشاعر الغضب ويئن النسيان بينهما.

(٧٠)

عرج الخاطي بقدمه الزاحفة بقيادة قدمه الأخرى، آخر منضدة القهوة كانت بانتظاره استعان بالاعتياد سعيًا، جذب كُرسيه وكأنَّه كرسي العرش ذلك الذي دام مُهلك قاطنيه، جلس بثُقلٍ وتأنَّى بشرودٍ وبلاهةٍ، وضع الشاي المغلي أمامه بمُزحةٍ، لوَّحت له عيناه

لا يعلم لماذا؟ فضَّت أمامه بكارة ذكرياته، نافورة ماضية مُدممة، انتظر والأيام تُفصِّل له ماضيه، توجَّس سريعًا في ساعته، ثمَّة وقتٌ على الموعد، ولكنها الذكريات تداعت دون موعدٍ، جاءته ليلة الموت قاطبةً زحفت داخله النشوى كساقِه، استشعرها فتحسَس جسده، بصر تجاه قدمه الزاحفة، حرَّكها فلم تستجِب، فاستعلم عن السبب فمضى إلى طريقه المُتعرج ساريًا "عبده، الله يرحمك يا عبده" قالها دون سببٍ، واستحب المُداواة في الدعاء، كان يوم شتاءٍ ثقيل، والمطر الجارف التشريني ينفرد بالأرض ويلطمها بعِزة، جاءه الأمر فأتبع سببًا، كان الأمر بالقتل والنهب، قتل عبد النبي وسرقة حقيبةٍ بها حقه في خلو منزله، دخل عليه من بين الليل وهاجسه، فوجده مُلقى على الأرض وكأنَّه الجثة، والحقيبة ترتع خلفه في توهُّج، فجذبها برقةٍ ترقَّقت له، ورفع السكين في شموخٍ وهبط قبل أن يتوثب من علوٍّ ويذوب ويختفي دون التفاتة.

زفر نفسًا عميقًا وارتشف رشفةً بعُمق مُستلذًا قبل أن ينظر لكفٍّ وضِعت على كتِفه للتو، لتعود إليه روحه بعد خروجها من قلب الذكرى وقبل أن يزدرد ريقه:

- إيه يا خاطي ، بتخطي الحبل ولا إيه، مالك بتنهج كده ليه؟!

- افتكرت أيام سودا، الله لا يعيدها أيام، المهم إنت إيه أخبارك؟

- أخباري عندك، وأخبارك مش عندي.

مَدَّ يده إليه بظرفٍ مُغلق:

- الظرف ده مرسال بالبريد المِستعجل بعلم الوصول، أبلغ إنه وصل؟

استلمه بعد صمتٍ:

- وصَل يا خاطي، بلَّغ إنه وصَل وهيتفتح قريب.

- الليالي الجاية كلها شغل، فتَّح وقول للي معاك، اللي جاي كعبه عالي، اللي مش قدَّ يسدّ يمد، واللى هيمد ويصد مش هيترد، والرسالة الرد عليها جد، هتلاقيه في المرسال، اقرأ قدامي آخر سطر.

- كله بخير، إنت إزاي ناسك! يلزمنا أوردر توصيل، شبعنا أكل في المحل!

تحرَّكت ساقه بعنفٍ، الآن علم لِمَ لوَّحت له عيناه بالماضي، وكأنَّ التاريخ يُعاد، تلك مُتلازمة القتل .. قتل عبد النبي وقتل مفتونة.

(٧١)

مرَّ العمر في استقرارٍ غليظ، ظنُّوا أنَّهم خالطوه، وتناسوا واندثروا وسط فناء العمر مُستظلين بعيون العامة، والتفت أغصان الأيام فوق رؤوسهم، تناجيهم في شذى العِطر الهفيف ومَن يدري أتحييهم أم تسقط على رقابِهم فتسحَقها؟! فضَّ الرسالة بالأعلى بمنزله ورفضها بشدةٍ ومن قبله أبو صيرة، اشتبكا حتى تلاينا عديدًا ومرَّ الزخم والقذف يجمعهما كشظايا نافرة، أعاد الرسالة -بعد يومٍ

تفكيرًا- للخاطي، بأنَّهما لا يصلحا للتنفيذ هما يخططان فقط ليس إلَّا، ويخططان السهل، كما قال أبو صيرة ولن يدخلا إلى لعبة القتل الخاسِرة، تلك زنا التجارة غير الرابحة للطرفين؛ فأعاد الكَرَّة عليهما بحرفيةٍ، أبلغ الخاطي سيده؛ فلطمه وأفرغ له على الأرض توًّا مليونَ جنيهٍ، رجع إليهما وأفرغ لهما نصف مليونٍ بعد أن وضع في جيبه نصف المبلغ وكأنَّه لم يكن، في عقل الجنون والاحتياج لا كلام يعلو فوق صوت الحاجة، قررا التفكير أعلن العيرة أنَّ المبلغ سيحل لهما العوارض بكامل عتادها، رفض أبو صيرة بحزمٍ، أضرم في عرقه الطاعة بعد أن وعده بكتابة تلك الشقة باسمه وباسم أُخته؛ ليرتاحا عن التململ والتلاطم مع الحياة، فذهلا وتجاسرَت قلوبهما كما لم تحدث من قبل، وقعت العقول في شاطئ الهذيان، لم تُصدق أو تعي أو تقترب؛ فمهَّد لهما أنَّ تلك النزوة الفارقة ستغير رغمًا عنهما حياتهما معًا، وذكَّرهما بما نسياه، لن يتم الزواج إلَّا بعد هذه العملية، صدَمه العيرة بتلك اللافتة، بل وهدد فضح أبي صيرة وأخته بالخليفة بأكملها، وإفشاء السر بل والتمادي في الإعلان عن عدم معرفة مَن والد المولود، تصادم الكابوس والحُلم معًا، زفرا الضيق والتحمت الشفاه وارتفعت الجباه ذهولًا، أهذا هو العيرة .. إذًا؟ ردَّها بصدورهم قبل أن ينطقوها: "آه أنا وشي عيرة ومكشوف ويا اللي أنا عايزه .. يا اللي أنا عايزه!" انفردا بعد صمتٍ، رصدت أخته الحالة له على الفور وربما أقنعته بكل شيءٍ، مُستقبلها الآن بين يديه إمَّا أن يسوِّده أو يزيِّله، استعلمت داخله عن الرجولة؟ فتعجَّب قبل أن يتحسس ندبته! أصير قاتلًا أو أدفن

في مرابض الإبل منبوذًا! أوضحت له أنَّ الطرق الملتفة حول عنقه يسيرة التعقيد، وحلَّها بيديه وحده، القبول من أجل التستر على الخيانة، تساءل ولم يجد الرد داخله! أقنعته بالنسيان بعد رؤا الثمن، أوهمته أنَّ الجدران المحيطة ستُزلل العقبات أفضل من الشوارع المفتوحة والشحذ من الغريب وربما السجن! رُبَّ السجن أحبَّ إليَّ ممَّا يدعونني إليه، جلجلت ضحكتها بعد رده أنت لست نبيًا ولا مُرسلًا! أنت لا شيء دون مالٍ! دون سكنٍ يؤوي جسدك وجسد أختك التي ستنهشه الكلاب إن لم توافق، وإن وافقت؟ سأتزوج من العيرة وسيكتب الطفل على اسمه أولًا، تلك الشقة التي وعدك بتملُّكها ستكون باسمك وليس باسميْنا وإني راضية، تعود إليك نفحات الرجولة والشرف دون مشقةٍ، وأخيرًا ربع مليون جنيهٍ في حسابك، يؤمنانا غدر الأيام ولكن لا تنسى لي منهم نصفهم.

(٧٢)

"تِخسـَر".

هكذا ألقاها بدهـاءٍ عتيدٍ دون وعيٍ منه، تعوَّد عليها فمه، فسَال لُعابه بها دائمًا، تصبَّغت خلاياه بمعانيها الرديئة، وشُلَّ وعيه عليها، فظلت أمام عينيه -مقولته- بَندُولًا يداعب أفكاره، يُزحزح ما تراءى له من أفكارٍ، ينهش حواشيه المتآكلة. يجلس وحيدًا كما اعتاد من صباه، لا يلوذ سوى بالأيام القاحلة، يسري بطيفها في

الممرات المظلمة، لا يعلم في أيٍّ منها يأتيه أفضلها، أم تُرى.. أذهب أفضلها حقًّا منذ زمنٍ سحيق؟

جلس وحيدًا وقد تغيَّرت هيئته، ذهب عنه رداء الخوف، الآن وافق قطعًا دون رغبةٍ، خطَّط لمقتلها بالفعل، إذ طُلب منه في الرسالة قتل "مفتونة" بأقصى سرعةٍ كانت؛ ستزور منزلها الليلة بعد إشارة الخاطي، أنا راقِمها ومأمن على خط سيرها، هكذا قال الخاطي؛ أفلحت تطلعاته، طلب أبو صيرة من العيرة طلباته ورسَم خطته بعذوبةٍ، فنفَّذ العيرة، تعاقد ليلتها مع نصر الفصّ الشهير بتصديرة على القهوة، وأبلغه بأنَّه سيحضر له مطلوبه فورًا، وكان طلبه كالتالي: قاتل أجير مُحترف، ومجمّع معلومات سرية، فبدآ العمل؛ تشابكت الخيوط فتجاذبا، الخيَّاش والميَّاس، الأخير هو خزينة المعلومات السرية والأول هو القاتل المُحترف، الآن وقع اختيار الأفراد وما بقي سوى الخِطة. جلس أبو صيرة والعيرة على المائدة السوداء ذات الأرجل الخرساء مع ورقةٍ بيضاء تلتمع بالمنتصف، تحدَّث وكأنَّه القاتل برر وكأنَّه صاحب الحق، لم يئِن صوته أو يكُف، بل ازداد عزم صوته جرَّاء المال المُنسكب في معِده، القتل .. الرقصة .. شنقًا بحبلٍ مجدولٍ تِلم، قبل خمس طعناتٍ غادرة داخل القلب برعونةٍ مع سبق الإصرار، الحادثة سببها الخيانة الجمع بين زوجين والقاتل الحقيقي هو الزوج الأول بعد وصول ورقة زواجها من سلامة إليه، ضـاحي النمر أو بالأحرى رجالة ضاحي النمر.

صمَت العيرة وكأنَّه القتيل، حدَّق في السقف وكأنَّ روحه تفارقه، أو الطعنات أخطأت مرماها، وتحدَّث وكأنَّه كان حاضرًا يقلّب الحبكة في رأسه، مين القاتل؟ تساءل في وجومٍ وأَلِقٍ وقد جفل الحديث من فمه، رماه أبو صيرة بنظرةٍ مُهيمنةٍ وأعاد ظهره للخلف في شموخ الفرعون وابتسم له من طرف ثغره، العبد لازم ينفِّذ أوامر سيده، هو ليه سِيد غيره! ذُهل العيرة وجمُد في كُرسيه، تلك الخِطة الشيطانية المُشرذمة لا تخرج إلَّا من رأس ذلك الشيطان اللعين، مَن لا يفقه عُمق إبداعه وبراعته في التخطيط.

(٧٣)

التم الشمل متأخرًا كعادته، الساعة الآن تداعب المنتصف بعد الثانية صباحًا، بطون الجفون مُتشحةٌ بطبيعتها بالسواد المُظلل لكليهما، ألقى "الجوكر" أرضًا ثم استدار فجأةً تجاه الجالس نائمًا خلفه وهزهُ في حزمٍ بليغٍ:

- صحصح يا روح أمك، ورانا شغل.

وبِفمٍ أذابه المخدر حتى استجلب انفلات الأعصاب أجاب:

- أنا صاحي يا عز، بس مريح.

أجابه بنفس قدرة الحزم السابقة دون نقصانٍ أو امتلاءٍ:

- مفيش حد هيريح، الموضوع هينتهي الليلة قبل القمر ما يفِر.

سُحب الليالي العابرة تمُر الآن بثقلٍ تخفي ضوء القمر الخافت، ربما الغيوم تُحاصره في أسى، وتستعجل الخروج الآمن من تلك الليلة دون خرير المياه المنهمرة، وعود زائفة يقضيها الليل في جدالٍ دون جدوى، ذنوب البشر تهفو لن يغسلها ذلك الخرير الطاهر، في موعدٍ مُقدرٍ أتت في مشيتها -المُتعرجة- المُفتعلة "مفتُونة" تُسابق نصيبها، تقترب دقيقتها من اللحاق بها، تلهث وراءها كالريح الغادر الذي يقتلع ولا يهدأ لتهنأ بما تمناها؛ إذ يفصلها عن الراحة خمس طعناتٍ ستُقضى وتنقضي معها إلى الأبد.

- أنا عارف هي بتمد ليه؟

- هتموت.

هتموت .. نصيب بيصيب.

- اقفي بقى .. فرهدتينا يا بنت الرافضي.

- مِد إنت وراها وأنا الحاجز.

نظرت خلفها لتستبق بابها، أعاقها وقع ارتطام السكين المتغلغل جوار قلبها، لم تُسعِفها حبال صوتها فألحقها "الخيَّاش" بحبلٍ مجدولٍ جوت تِلم .. لم تفلِته، فصفَى ما تبقى من صوتٍ منها، كانت تنوي استخدامه في انـهاء الرقصة. فشل الليل في جداله حيال الأمر، انهملت المياه المُسربلة بدماء "مفتونة"، غطَت بثور الوجه، أذابت من عينيها رحيق البقاء، وازرورقت قسماتُها قبل أن تجف ذرات الخوف المُرتعدة أعلى وجنتيها، ويجِف حلقها ويتحجر وتمضي في سُباتٍ أخيرٍ قبل أن تنفرط

المسبحة -تلك التي احتاجتها بزيارة ضاحي من أجل الشفاعة- وتنفلت من يدها لتغوص في الطين المُوحل وتندس أسفله.

جلس أبو صيرة أمامه قهوته النرجسية على كُرسيه في انتظار غلق الشط، أمَّا العيرة مع تصديرة على منضدة القهوة في انتظار انتهاء الرقصة، الخيَّاش والميَّاس تأخرا على غير ما تم الاتفاق عليه، مغادرتهما الخليفة بأكملها ستتم الساعة الثالثة فجرًا بعد إرسال رسالة تأكيد الحجز إليهما من قِبل "سيد فيش"، بعد تأكيد إنهاء الرقصة وغلق الشط؛ ليتم إخبار سيد بإرساء السفينة أو إرسال الرسالة.

(٧٤)

مرتديًا ثوب الخزيان، الهِرم والندم، جالسًا يأكل في وعاء الاضطراب ويتجرَّع كؤوس الهلوسة، سلامة عسران عندما أخبره الخاطي بخط سير مفتونة، ترددها على القسم، طه السيوفي يحدِّثها، اختفاؤها المُريب، عجز عن التفكير، إلَّا أنَّها تبرهن وتبرم الصفقة لإثبات نسب رقبته بحبل المشنقة، فهل يوجد إلَّا القتل رحمةً لها؟ جزاءً وفاقًا، كلٌّ يعزم على النسيان، تلك المفتونة بحبها هي مَن ساعدتني ووضعت كل تلك البودرة المخلوطة في كنف ملابسه، تلك الزوجة المُخلصة هي مَن سلمتني مفاتيح زوجها بكلمات الحب الكاذبة! تلك المسكينة هي التي في نفس وقت طلاقها أثبتت زواجي منها بعقدٍ مزور، بعدما جلست قِبالة "سيد

فيش" لترحيل تاريخ التطليق إلى الماضي البعيد، هل تُستأمن الحدأة؟! فكان الموت أولى والغياب أوجب لها ولزوجها الطيب ضحية جشعها .. درب السلامة.

أمَّا الآن وقد آن وقت الحساب؛ الطرق مُهدت، انزاح منها الأثر؛ فقط استلزَم الأمر محو الخاطي من الطريق، تلك الحفرة التي لربما تتعثر بها قدمه، ويُداس عليه بالخِفاف المُنفرجة ليطبق عليه ماضيه، مصيبة تلو الأخرى تناوش حدقته، تنبش حلقه وكأنَّه يشعر بالغدر، كان يعلم منذ أن كان جوار جسد السعدني أنَّها أيامٌ مهما استطالت تقترب؛ لتثأر منه عن ماضيه المُستتر، هل إن تحالف مع الشيطان سينجو؟ مع مَن سيتحالف بعدما ضعفت الخيوط وتفتلت روابطها حتى انفلتت من عروتها وتهدَّل الثوب حتى تعرى الجسد! تجهَّز سلامة بعتاده لقتل الجمع بأكمله، ولكن بعد التخلص من خاطيه، تُرى.. مَن سيساعِده أو سيساعد غريمه؟!

(٧٥)

استعد طه باشا مع أفرع القسم وبالتنسيق مع مصلحة الأمن العام لتجهيز الحملة للقبض على المُشتبه بهم بجلب المواد المخدرة بقصد الاتجار، وهمَّ كلٌّ من المعلم سلامة عسران، ورضوان الجيَّار، عربي النحَّاس، سالم الدايم، مجاهد الشاهد، حلمي هوادة. قضية "تجار القلعة" التي أُشتهرت منذ فترةٍ ليست

بالقريبة، ما إن تجزأت القطاعات لبحث خطوط التحرُّك، استشعر طه السيوفي القلق يخبو في ضوء عينيه عند إمعانه قليلًا في مرآة مكتبه، مع ارتياب الصدور وصبرٍ لاذ به حينًا، كم مرَّ من قطع الصبر! كم انتظر من الأيام واستدرجته الأمنيات حتى ألقت به في حضن الحقيقة! يتملَّكه الأمل بشراهةٍ، ذلك استحقاقٌ يستحقه إذًا، وتلك ثمرة الفوز ونشوته، القبض سيتحقق وحينها تكون كل الأطراف اتصلت بالنهاية والتحقت بأخيها ضاحي النمر، ستنتهي تلك القضية اليوم وتُغلق إلى الأبد، سيسعد بالانتصار وسيعلن زواجه الأسبوع القادم.

أحس باقتراب موعد التحرُّك قبل أن تتحرَّك عيناه لا إراديًا على ساعته، لم تفِر منه الليلة دون ليلى، مكالمة خطيبته قبل الحملات واجبة، لم تكن يومًا من السُّنن ولكن تلك المرة كاد الكلام يختفي مع كثرة الدعاء، امتزج البكاء بخفقان القلب في سيمفونيةٍ عذبة، تلك أولى العمليات له في تلك الدائرة، حدَّثها بعمقٍ باهتياجٍ ونظَّم في رأسها الحب، أودعها قلبه لتبقى على انتظاره ريثما يزداد الترقُّب، فلا تصيبها لعنة القلق المزمنة، أودع في أذنها برقةٍ سلامه لعائلتهما جميعًا، وكان عليه إنهاء المكالمة بعد أن طرق بابه خبرٌ عاجل بانتظاره.

- فيه واحد بره يا باشا بيقول عايز يقابل معاليك .. خبر مهم لازم تعرفه حالًا ميتأخرش.
- خليه يدخل.
- إزيك يا باشا!

- الخـــاطي!

اتكأ على الكلمة المُميتة لربما كان يستمع لاسمه للمرة الأولى، ثقلت جفونه على عينيه فانغلقت وأشرقت مع زفر الضيق والضجر:

- مش هيفضل خاطي يا باشا؛ لازم تعرف الحقيقة كلها، هَم شايله جوايا من سنين وتعبت من الشيلة، النهاية لازم تيجي وكل واحد ياخد حقه وعلى رأي المثل "إبطي ولا تِخطي"، وأنا تعبت من المشي، وعايز ارتــاح.

بفضولٍ وترُّقب:

- اتكلم، أنا سامعــك.

جلسا ما يعدو الساعة، التزم الصمت بعد الاعتراف رويدًا، وجد الاستعِجاب في الممرات الضيقة مَسلكًا، لم يترك بابًا للماضي أبدًا مُنغلقًا، واسترد الحقيقة من جذورٍ تعفَّنت، أفلتت شكوك السيوفي مرةً أخرى في جليسةٍ، أدركها فجذبها بعد سماع كيف تم الغدر بعبد النبي ومن بعده ضاحي، وكيف تم التخلص الليلة الماضية من مفتونة، تلك التي أمرها السيوفي بالابتعاد عن المنطقة بأكملها حتى اكتمال الأسبوع، ما إن سمَع الاسم حتى ارتعد وتلجلج وجمدت خواطره قبل أطرافه وعزم على الثأر لحقها، والعمل على براءة ضاحي. أما الجناة تساءل عنهم، مَن هم؟ وما الداعي لفِعلتهم؟ فلمَّا سمَع دائرة ضحكِه تعجَّب السيوفي؛ فأشار إليه بالأسماء تِباعًا وتبرأ منهم أجمعين.

- واحد اسمه العيرة، محامي متخرج، ومعاه عيل كمان هو اللي بيخطط، وسلامة واخدهم تحت باطه.

- دي الحكاية كِبرت وعايزالها قاعدة، تخلص مأمورية النهارده على خير ونشوف حكاية العيال اللي عاملين فيلم أجنبي دول.

انطلق دون رجعةٍ كرصاصةٍ في فراغٍ، جاءه الأمر فانسكب في طي التنفيذ، اتصالٌ هاتفي ضرب هاتفه أجاب قبل أن يقابله شريف سيف ويلضم خطواتهما معًا دون استئذان.

- متروَّحش يا باشا، المأمورية مكانها اتعدَّل، ولو عملت نوش .. مش هيتقفش. تعالى لوحدك وسيب رجالتك بعيد على إشارة، هستناك على المقطم جنب أول دخلة عند الاستراحة.

في لحظاتٍ انساقت الخطة مع معلومات المصدر فتتبع الأثر، ذهب وحيدًا تدثِّره ظلمة السَماء والقوات على استعدادٍ وتحفزٍ، صعدا الجبل بعدما تلاقيا، استفزهما هدوء الجبال أسفل نظر السماء وحركة الحياة في المنتصف .. هي الدنيا، انتظرا فوق الانتظار لا حركة في جنون الأشياء تُرى، لفظ حركة العقارب تئن الثواني وصوتها كخفقانٍ مضطربٍ، رنين هاتف الخرَّاص قطع الهدوء بطعنةٍ، أغلق الهاتف بعدما أجابه بكلمة:

- كله بخير، إنت إزاااي ناسك

أغلق الخط بوجه مغاير لخلقته ثم أردف:

- تعرف يا باشا الواد الخاطي يظهر عنده حق، دايمًا يقول النهاية قربت.

ليسأله السيوفي ويقترب بهمسٍ:

- قربت ولا إيه!

ليجاوبه بعدالة:

- قربت أووووي، أهم جُم هنـاك.

قالها وأزاح حزامه الثقيل عن نصلٍ حادٍ وضعه بحِكمةٍ أسفل صدر السيوفي، عدة طعناتٍ كانت كافيةً لإزهاق روحه البريئة، تجاسر على الوداع بشرفٍ، نطق الشهادة بعِزةٍ، أخرج زبده من فمه، صادف دموعه ابتسامة الخرَّاص بوفـاء؛ فأحيانًا يكون الغدر وفاء حينما يسطع من جنبات الخِسة، ودَّع السيوفي قبل رحيله لياليه، وأمانيه، وعائلته، وصور أبيه وأمه وإخوته تنوح في سماء المقطم وتتلألأ لتنير ظلمة السماء في عينيه؛ فأشرقت سماؤه وذهب هدوء الجبال مع حركة الحياة وصياحها الكاذب.

في ظل الظلمة، سكن على جانبه شريف سيف، مَن أصرَّ لحضور مشهد القبض مع السيوفي ولم تتهيأ صورته في الصدور على مسرح الجريمة، فشاهد بعينيه تلك الجريمة، لم يلحظ أنَّه قُتل إلَّا بعدما هجر القاتل ساحة الظلمة؛ فتقهقر لئِلا يلحظه ثم انجاب في سرعةٍ مهولةٍ على صاحبه القتيل، لم يُصدق مشهده أحرقت الدموع مُقلته حتى جفلت روحه، أتيا متوحديْن وتُرك بمفرده، لم يعِ أو يصدق، أفلتت الكلمات بحشرجةٍ من فمه الثقيل، حدَّث الإسعاف سريعًا ثم أدار الاتصال بمأمور القسم قبل أن تحضر القوة بأكملها

وتحظر السير في الأنحاء المجاورة تسهيلًا للتمشيط، بالرغم من تجمع غفيرٍ من الناس حوله لم يطمئِن، غادر شريف أرضه إلى المستشفى مُنتظرًا على جمرةٍ عندما خرج الطبيب وأبلغه بالوفاة، كان في حالةٍ يُرثى لها، انغمر في السكون وطفح الوجه المُظلم يشكِّل تعابيره.

(٧٦)

لم تسكن حركة المديرية بعد قتل مُعاون مباحث القسم، استنفارٌ أمنيٌّ يتغلغل من الأعلى حتى نفذ إلى هنا مكتب رئيس مباحث الخليفة، مَن وعد بالثأر للداخلية بأكملها "ابننا محدش هيجيب حقه غيرنا" نطقها بحِرصٍ وقدرةٍ، أسوأ الحظوظ تلك التي تقترب من العبث معه، مُصطفى الذَّكر رئيس مباحث الخليفة، مُتعكر المَزاج طيلة الوقت، حاد النظر، كثيف الحضور، مُتزن القرار، حليف المواعيد المُنضبطة، غزير الهيبة، وفير الطول، صلعَته الأمامية الخفيفة تنحني أمامها الخِبرات، وبشرته القمحية تنُمُّ عن التصاق الشمس شيئًا ما على جبينه، قليل الكلام، كثير التواجد، ردود أفعاله قوية، تخشاه في غيابه وعند مرور الاسم على أذنيك، عادةً ينتظر تجميع التحريات من قِبل المعاونين ويتم بحضوره رسم الخطة، لكن الأمر جَلل والعيون ما زالت مُتسعةً، تنفض غبار الزمن لتخرج من جوف الأرض خلال ساعات الجاني، على الرغم من تعدد آليات البحث زاد الوقت مع الغموض، أدرك

مصطفى بيه توًّا أنَّه يبحث في الاتجاه الصحيح بعد أن استعان بشريف سيف، آخر مَن تحالف مع المجني عليه وآخر مَن رآه.

- الخيوط كلها مرمية في عبّ سلامة والتجار، الموضوع بسيط والواد هيتجاب الليلة.

قالها ثم زفر الهدوء وتلَّهف على الموعد، تماثل البرود في الهيئة والتدابير في داخله، لم يخلُ شارعٍ أو زقاقٍ من مُخبر، لم يخلُ الجو من أنفاس ذوات الرُتب، مع عدم اتضاح الرؤيا إلى الآن تتلمس في الجو اقتراب الأجل، في الوقت المُنصرم يجلس مصطفى بيه في مقهىً في خضم الزحام، على كرسي اعتاد الجلوس عليه الجُناة، جلس عليه منذ يومين فقط العيرة، ظلت آثار حركته تطنُّ وكأنَّه ما زال هنا، في لحظة دخول العيرة -مارقًا كعادته دون وعيٍ كافٍ- إلى كرسيه، وقع نظر مصطفى بيه على هاتفه توًّا للوقوف على آخر التحديثات، ولكن على غير المتوقع جاء الهاتف من ابنه، اعتاد ابنه عليُّ على تلك المكالمة قبيل نومه، تلك قُبلة الحياة التي يستشعرها في صوت أبيه، جذبها وذهب في تباريح النوم مُبتهجًا.

(٧٧)

دخل التجار الثلاثة يتقدَّمهم المعلم سالم وفي أسفل ركبهم يتناول المعلم هوادة حُلمه، يجاهد الشاهد خطاه وكأنَّه الجبل الشاهق يصعده، ما إن تعدَّت خطاهم داخل البيت الهرِم إلَّا ورائحة الماضي باتت في مقدمة العقول، تناوشهم ثقةٌ مجهولةٌ

وتحدٍ زائف، لعنة السعدني، ربما هي رائحة الغدر به، أو رائحة الزمن الزاحف على الحوائط بشرايينه، استعدا على قبض الباب دوَّت طقطقته كسلاحٍ بُرمت أنبوبته، زقزقت مفصلاته كإنذارٍ على التعدي، براعة الزمن في إخفاء الآثار يضيعها الإنسي في لحظاتٍ خاطفةٍ، استرسال التراب على الأشياء .. هكذا تعدَّت رسوماتٍ عالمية بأثمانٍ باهظة، تجلت الإضاءة خافتةً وعظمة الأحلام يسيرة، وصلا إلى الردهة التي يقبع في نهايتها باب السرداب الذي يبدأ بسبع درجاتٍ وينتهي بالكنز، بعد اجتياز باب غرفةٍ سري من بابٍ رئيسٍ، تكسو فوهة الباب بقايا أخشابٍ زانٍ مُلقاة وكأنَّها صُدفةٌ، تلزم لعدم اقتفاء الأثر، خشخشة الفئران قويمة تأكل من النفس أمانها، وتترجم العقول الظلال كأشباحٍ عقيمة، وكأنَّك تفتح بيديك عرينها، صمَتت الأفواه مُستعينةً بالوجوم والزُّهد، باب السرداب عتيد القِدم، عظيم السُّمك، غزير الارتفاع، وهو كالبشر مع مرور التقلبات عليه .. يئِن، فما إن انفتح بصعوبةٍ وتحرَّك بالكاد اصطك فتهلَّلت القسمات وذبُلت الحواس، دخلا مُعتمديْن على ضوءٍ كهول، طفقَت الرؤوس مُتناطحةً والأفكار مُنبعثةً على حممٍ، ولما تحسسَا الذهب تيقنا من ملمسه، واستبقى الوهم الأحلام في الوجدان.

دخل الخاطي بخفةٍ مُتناهيةٍ، أضرم مَشعله في تباطؤ، تحرَّك على أطراف أصابعه، انجذب حيث الصوت، تتلاعب أضواء المشاعل في السرداب كأشباحٍ فِرحة، ولمَّا اقترب وتلاعب كالأفعى في الظلمة العميقة، يجذب ساقه خلف حُمقه وتداعيات القلق

تخضَّب أنفاسه، سيذعن التنفيذ أم يتقهقر للتخلي، إجابته بعثت داخله -في ذلك المكان منذ سنواتٍ مضت- رائحة عبده وكأنَّها روحه تحدِّثه بنغمٍ خفي، أصرَّ على النظر على مكانٍ كان يومًا يجمعهما، فتراءى له طيفه يلومه .. يسأله، يستدعي مآل الأيام، لم يخطر بباله أبدًا أن يدخل ذلك المكان ثانيةً، شعر بظلم تجاه صديقه منذ حين، إزداد عليه الشعور فى لحظات خاطفة كان لها عظيم الشعور فى هذا المكان، عزم على الثأر له لعله يشفع، أذعن التنفيذ واقترب إلى باب السرداب بثقةٍ، وكأنَّها عزيمةٌ مغوارة في سبيل الحق، استمع إلى الحديث النهم بتعالٍ وهُم يقسمون التِّركة مُستثنين منها جميع الأركان. أمَّا الخاطي فهو ليس بالحسبان، علم الآن كبش الفداء من يكون؟!، بشدةٍ وقوةٍ كان رابضًا على مقبض الموت، ذلك السلاح الخفي للثأر سلاحٌ بلا نصلٍ أو طلقة، أغلقه بتمهلٍ وحذرٍ مع تحدٍّ وافر، جُذب معه إلى أن منع الحياة داخله، وما إن أغلقه وتعالت الصيحات مُقتربةً، وهو في عالم موازٍ يزفر الرضا ويستنشق التعجب، الآن ثأر ولن يوخزه ضميره إلى الأبد، هؤلاء التجار مَن أجمعوا على عدم سداد دينه، والآن سدَّد لهم الخاطي أو بالأحرى سدَّد عنه، علموا إذًا أنَّها رائحة الغدر في أنوفهم، السعدني يحاورهم، يأخذ بثأره رغم موته وكأنَّها لم تمُت روحه الطاهرة.

- الغلطات كِترت، الله يرحمك يا سعدني.

(٧٨)

همَّ الخاطي -ولم يلتفت- بالمغادرة، ما إن اقترب من الباب الخلفي ليعلن فوزه أضاءت السراج -في البهو الرئيس- يدٌ ترتدي خاتمها العقيق فوق ثقة كالأخشبين.

- إيه اللي جابك هنا يا خـاطي البِرك؟! لسَّاك بتتصنّت؟!

تساؤله ردَّ كالطعنة الغادرة في نحره، يتذكَّر تلك الطعنة -في نفس المكان الذي يقف فيه سلامة عسران- بجِدة.

- جاي حسب الميعاد يا معلم.

أجابه بذكاءٍ استدل عليه من عادته، لمَّا علم الخـاطي باجتماع التجار ليلًا لتوزيـع التِّركة بعد تقليل البَركة، وذلك عن طريق تقليل عدد رؤوس التجار، فأجابه بما منَّ عليه عقله، ما تحدَّثا إلَّا صمتًا، وما اجتازا في الحديث وقتًا مُتسِعًا إلَّا وتفاجئا في باحة المنزل بضيفٍ لا هو موعده أو مكانه، تصاعد كالبخار من بينهم وعلى فقر من بهائه المُعتاد تتلهّج أنفاسه مسمُوع أزيزها، يضَطرم في عبوس، مغلوبٌ على أمره، مغبونٌ في ذكائه يلهث الخوف، ويرتعد كالجيفة، ويحملق كالمُرتقي، ينظر في الوجوه وكأنَّها تزهده، تخلت عنه الممرات بجدرانها الشاهقة أن تخبئه، النفوس المُستعرة أن تبرده، تخلت الوجوه أن تتعرف عليه، حتى يداه تزدريه، اقترب إليه الخـاطي مذهولًا، مسَّ عرقه، مسح عنه الفتور، وخزته بخِسة عينا عسران، انبلجت ابتسامةٌ طافحة على ثغره كالأنصل الحادة لم يخبئها عنه صراحةً، أفرز منها العديد عنوةً، بحث الضيف في

الوجوه وكأنَّه يبحث عن المجهول، لا يعلم أين الوجوه المرجوة، ما إن اقترب وسقط يُقبِّل خف سلامة بنهمٍ

- الحقني أبوس إيدك، احميني، مش لاقي مكان أتدارى فيه، عملتوا فيا كِده ليه؟!

رماه بزجرةٍ من ساقه كادت ترديه ميتًا:

- عملت إيه يا خرَّاص الكلب؟

فأجابه:

- قتلت ظابط المباحث.

نطقها وهرع بكاؤه كالمحموم رد عليه سلامة بشيءٍ من فزعٍ:

- نهار أبوك أسود، وجاي ليا هنا عشان تاخدني معاك في الرجلين جاي تخلّص عليا؟

صمت الخرَّاص حتى ارتدت هيئته الجنون:

- هما فين؟ هما فيـن؟

قالها وكأنَّه يعاني من الارتياب، جثم على وجهه الخـاطي وأشار له بذهولٍ وكأنَّه يخفي أسفل كُمه كارثةً وأخذ يحتضنه مُستفهمًا ويبعِده عن اتجاه السرداب "مفيش حد هنا غيري أنا والمعلم سلامة" نطقها الخاطي وأشرف على الابتعاد قليلًا، ليربو الخرَّاص على جبهة سلامة ثم يسقط رأسه على يده مُقبّلًا، وينتظر منه ردًّا صارمًا، تأخر سلامة في الرد فخشع بين يديه وكأنَّه من مريديه ثم، أجهز على قدميه وكأنّه يقدِّسهما مُنتحبًا.

- أبوس رجلك يا معلم سلامة، مفيش مكان أروحه، وعدوني ورقي هيكون جاهز عند سيد فيش أستلمه وأسافر، خرجت ملقيتش حد عايز يبُصلي، جيت جري على هنا يحموني، عرفت إنهم هيتجمعوا هنا، أنا كده هروح فطيس، هاتولي ورقي ومحدش هيشوف وشي تاني، ساعدني يا معلم.

نظر أسفله في رضا مُنتظرًا رده الأخير، استشعر سلامة من تلك الكلمات ضعفه يأسه مع خيبته وغبائه المُستوي، اقترب إليه لامَس انهياره، مسَح وجهه في رقَّة أبٍّ، عذوبة أخٍ، والتياع أمٍّ، قَرُبَ من وجهه، نفث في وجهه غبار الزمن، أغمض عينيه في دفءٍ فسيحٍ واطمئنانٍ بليغ، لم يشعر سوى بوخزةٍ بسيطة كانت تلك الوكزة من صديقه، وأبيه، وأمه الراكدين أمامه في أناةٍ، جذب النصل ثم زرعه داخله ثلاث مراتٍ بحِكمةٍ من مطواة "قرن" كان ينتظر سلامة استخدامها، ولكن لم يدرك أنَّها ستكون بنحر الخرَّاص! شردت عينا الخرَّاص في رحيلٍ مقتربٍ ما سمعه آخر الأمر من فم سلامة جعل رحيله مخزٍ، فتر في وداعٍ راضٍ، ابتسامة ثغره دلَّت على ذلك، إمَّا من رضاه وإمَّا ممَّا استمع له من فم سلامة:

- تؤ تؤ تؤ، مواعيدك لازمــاك يا خرَّاص، ربك رحمك مني، الجمع هيتلم عندك، إبقى اذكرني بالخير عند ربك، أنا كان في نيتي أهربك من عيونهم قبل ما ننفضّ.

(٧٩)

وجهه بدا شاحبًا كالقنفذ التائه، مُختبئًا كالسلحفاة حول صدفته، مُهيئًا للقاء الانتهاء، الأفعى التي غازلت عينيه إلى أن اقترب لها في وداعةٍ، ثم لدغته بخِسةٍ لم يصدق المعلم عربي النحَّاس ما يستمع إليه من صديقه فاستسمحه في الإعادة، ما جعل المعلم رضوان يضرب أكفه زافرًا ضيقه في ضجر.

- بقولك الموضوع هينتهي الليلة، قبل القمر ما يفِر.

- معقول يا رضوان، مقولتليش من الأول ليه كل ده؟

- محبتش أوجع دماغك، وكمان خفت منك، إنت قلبك ضعيف وهتتعِبنا.

- يعنى إنت يا رضوان اللي عملت كل ده، أنا هتجنن، إزااي؟

- إزاي إيه، هو ده اللي كان لازم يحصل من زمن، التلاتة كان مواعيدهم وفاتت، اتأخروا أوي معانا، من أيام ما كانوا معارضين على قتل عبد النبي، وأنا ناويلهم بس أهيه أعمار.

- والخاطي ذنبه إيه والخرَّاص؟، طب سلامة ماشي، عايزين نخلص منه، إنما.....

- إنما إيه؟ ده تخطيط على كبير أووي، سلامة مش هنخلص منه إلا بالطريقة، الخرَّاص طِمع وبعدين ده ميّت ميّت، ده قتل ظابط المباحث، فكان قطمُه أسهل من نحته. أما الخاطي هيفضل خاطي، موَّاله كبير، بير ملوش قرار، بس الحكومة سهل توصل لقراره، باع سيده، واللي باع سيده بكره

يمد إيده، وبعدين بات في عبّ الظابط مدة، رايح جاي على القِسم، بالمفتشر إتلط فكان لازمله نهاية تليق بيه، بالذات إنه مُخلص.

- مُخلص؟

- طبعًا مُخلص، والخرَّاص مُخلص، إنت فاكر الداخلية هي بس اللي بتعرف تزرع جوانا مُرشدين! ده أنا مرقد العيلين دول للظابط من ساعة ما جه الدايرة، وبتوصله أول بأول أخبارنا، وكأنه معانا خطوة بخطوة، من ساعة موت عبده والعيون مفتوحة قد كده علينا، كان لازم يبقى الحل فينا ونلعب مع الحكومة السهل.

- كل ده ولعبنا السهل!

- طبعًا، دي قضية متقشّرة، الواد الخرَّاص كان هيعمل عملته ويروح لسيد فيش يستلم منه أوراقه عشان يكُت بره، فيش اختفى بعد اتفاقي معاه، الخرَّاص وصِله إن التجار هتتجمع فين؟ في بيت عبده، طبعًا هيطلع على هناك، هيلاقي مين بقى...

- هيلاقي سلامة؟

- سلامة أنا باعتله مرسال بلَّغه إن نصيبه الليلة هيستلمه، راح وحاسس بالغدر، مرضيتش أخيب أمله، الخاطي هيكون نفذ الاتفاق وقفل الباب على حبايبنا، هيطلع يلاقي سلامة في وشه، الخرَّاص هيروحلهم يتدارى، نبلغ إحنا بقى إن التسليم هناك، يروحو يلموا اللي مات، أه ونسيت أقولك زي ما الخرَّاص واخد

أمر يقتل الظابط، الخاطي واخد أمر، على الله ينفذه وميعملش زي زمان.

- أمر إيه؟! أوعى تقول هيقتل سلامة! دي تبقى لعبة الموت وهتكشفنا بسهولة كِده.

- لعبة الموت إن حد منهم يعيش، الحاجة اللي هناك اتلمت من بدري، اللي فاضل يا دوب ياخد العين، لو كله مشي زي ما أنا مخطط، محدش هيحِس باللي تحت.

- ولو انكشفنا!

- متقلقش كله متدبر.

- إنت كده خلصت على الجمع، مفاضِلش غيري.

- لا، لسه، اتقل على حالك، ضاحي في السجن، الله أعلم بعبَع بإيه!

- ده كمان هتخلص عليه؟ بس ده ميعرفش موضوع عبده، ملوش دعوة بحاجة.

- هيعرف قريب، بص يا عربي، كل واحد لازم يتحِشر في موته مع اللي بيحبه، العدل أهم شيء، التجار والخاطي كانوا معارضين على موت عبده، روحهم هتروح في بيته، الخرَّاص كان ندمان على اللي عمله، خليتهم مع بعض يتصافوا. أمَّا سلامة بقي؛ فحلال فيه كوابيسه، اللي يوافق بقتل صاحبه شيطان، تبعد عنه ليلدغَك، عمره ما هيبقى عليك، كلهم كان لازم يتجمعوا في سلة واحدة، بيت عبده هو السبيل.

(٨٠)

أرهقتهم الذِّلل، فخشِعت أبصارهم، زاغت الأبصار بحثًا عن نهايةٍ تقترب، استعدَّت النفوس للموت مُقتربةً؛ فازدحمت الخيبات على الأعتاب تمتَثِل، استجدت الذكريات بالدموع ذاهبةً، فانهمَرت من التجاويف سيولًا، وطفَق كل منهم يحتضِن حائط رحيله مُنصِتًا لصوت ضمير يستيقظ، الآن وقد عصيتم، لاذ حلمي إلى الشهادة العالقة والندم الخالص، استحال الدوام إلى الأبد فكان سالم ليس دائمًا سالمًا، فيما جاهد مجاهد ضعفه وانكساره، كان شاهدًا على الأحداث منذ مولدها، كان صدره يجيش مُنذرًا باقتراب النهاية المحتُومة اللاذعة، نظر إلى الأعلى في انتهاء، تمتم ببكاءٍ خافق:

- عدلك يا رب، هو ده عدلك يا رب، الله يرحمك يا عبده.

ما أبكى ثلاثتهم في خشوعٍ وضمةٍ كضمة القبر المُنظرة.

على صعيدٍ خارجيٍّ، اقتربت العيون ولصقت على الباب الرئيس لبهو المنزل، صفقت أيادٍ عديدة الباب بشدة، دخل مُصطفى بيه في هيبته المَعهودة مُلتقطًا غُبار الموت، مُستنشقًا عبيره الأخَّاذ، قرأ في أعينهم الفزع، تصفّد العرق من على وجنة الخاطي كالجاني الخائب، اقتربت النظرة تلدغ سلامة، فبهُت في كِبر، حدَّجه الآخر بنظرةٍ كادت تقتلع لحم وجهه، قبل أن يلتفت لجسدٍ مُلقى أرضًا نزيفه يأكل من قلبه، فتحدَّث ببلاغةٍ وجيزة:

- جريمتين قتل في ليلة واحدة يا سلامة؟

- لا يا باشا، مقتلتش حد، أنا طول عمري ماشي سليم.

- سليم، إنت ليلتك الكبيرة جاية، متقربهاش (تطلَّع إلى الجثة بنفورٍ) الخرَّاص، طب كويس وفرت عليا كتير، ليه يا سلامة قتلته؟

- أنا؟! ده الخـــاطي .. الجبان.

حوَّل بصره قبالة الخاطي، مَن طفحت وجنتيه رذاذٌ كالمطر، وعلامات الغموض ينغمس بها وجهه عن صراحةٍ وشرودٍ:

- أنا .. أنا ما قتلتش حد، لا يا يا باشا، ده كداب ده اللي خطط كل حاجة وهو اللي قالى أعمل كده و...

- خلاص، خلصت، كله هيعرف اللي ليه واللي عليه .. هاتوهم.

(٨١)

غادر من تيهٍ إلى دنيا، يفارق الحياة فيها حسيًّا، خطت ساقاه مئات الأمتار دون إدراكٍ، لا يعلم أين هو؟! إلى أين اتجاهه؟ إلى سلسلة جرائم لا تنتهي، إلى مَكتب مُحاماة شهير يشذِّب شرفه يعير صقل عقله اهتمامًا، تزوجت علية بالعيرة، وما فتئ الماضي ينحسر، تقلَّبت النفوس والنوايا، وها هو مُعذَّب مع سبق الإصرار، كلَّما يشتم للحل نسَمات يُخبئها الخوف، يُقلِّبها مع أبخرة الأوجاع السَامية، فيُعاد عليه ما سعِيا إليه وما بَقِيا فيه، تمَادى القَلق والذهاب إلى المَجهول وحيدًا، كلَّما ظنَّ أنَّ النهاية السعيدة تقترب

يدمغه السراب ويلويه تحت إبطيه، وها هو يضربه الندم والخزي، لمتى سيظل الجُبن هيكله يقتله الضعف ويؤده التردد، عزَم فايز على التوقف الآن، لن يعود للجريمة، لن يُدمدم بابها ولو دُفن، سينهي ما بدأه ويقطع علاقته بالعيرة حتى وإن ردَّ ما ربِحه؛ فالربح خاسر لا محالة حتى وإن طُلقت أخته وإن قتلته عيناها، قد خسِر الآن كل شيء، خسر حبيبته، خسر طيبته، خسر نفسه، طريقه الذي بدا متعرجًا شديد الانحدار، وآخره يسود الألم، أمَّا الطيبة فآخرها الثناء والسماحة، وحَسُن أولئك رفيقًا.

عاد الآن إلى منزله، ملكيته الخاصة زورًا، أغواه بها الشيطان ليثنيه عن الاعتراض؛ كي تظل عيناه أبد الدهر مُحناةً، دخل على مُتسعٍ من الصمت، وهناك صوتٌ يحبو من أسفل العتبات يشتمها وكأنَّها الكلمات تطير، اقترب لم يجد بُدًا، ينهشه الفضول؛ أخته وزوجها يتناطحان كالعَجزة، أكمل الحديث وكأنَّه يستمع منذ بدايته ضرب الحُمق وجهه وعاد مُشرئبًا يلطم غباءً يلفح هواء عينيه.

- لا يا عنيا، إنت قولتلي هتديني نص المبلغ لما أنفذ اللي اتفقنا عليه، وآديني نفذت كل حاجة، والاتفاق تم وأكتر وبخِطة مكنتش تتوقعها أبدًا.

- لا، لسه، لمَّا أخوكي رجله تغُط في العميق وما يعرفش يرجع، ساعتها تبقي نفذتي الاتفاق، إنما طول ما هو فاكر نفسه سهل يحِن للماضي يبقى الاتفاق ضاق، وبعدين على رأي المثل يا لولا .. الاتفاق يفتح أنفاق.

- بقولك إيه يا عادل، أنا تعبت وزهقت، كل اللي عملناه ده عشان نتجوز وآدينا اتجوزنا، وبقى معانا اللي يسترنا، وفايز بقى معانا ومُستحيل يعرَف اللي فات.

- لا، هيعرف ويمكن يكون عارف، إنتي فاكرة جوز خالتك هيفضل طول عمره جدع وساكت، المُصيبة إنه ما صَدَّق وراح اتجوز، وافتكر أنه سليم ومنه الرجا بجد، الظاهر التمثيلية قلبت جد معاه، وخالتك يمكن لما تلاقيه اتجوز وارتاح مع الجديدة تفضحنا.

- ما هو أكيد لمَّا عرف اللعبة اللي عملناها سَاومها، يا تديله تمن السكوت، يا يفضحنا!

- عشان كده بقولك، خلينا نكمل وأخوكي رجله تيجي في الخيَّة، ساعتها مش هيلاقي طريق غيره، أخوكي ده دماغه ألماظ، مَرجع قانون، هو ده اللي أنا كنت مِحتاجه، مش عايز أخسره عشان لعب العيال بتاعك ده.

- لعب العيال، لا يا حبيبي ساعة الجد، أنا اللي هتكلم وأفضح الدنيا.

- هاهاها، هتتكلمي تقولي إيه؟! هتقولي إنك اتهمتي جوز خالتك كدب، وهو مقربش منك، وإن اللي في بطنك كان مني، هتقولي إنك عرَّفتي خالتِك تتفق مع جوزها يلم الليلة ويلبِسها وهتديله اللي هو عايزه عشان شرفِك ما يبقاش لبانة في بُق الخلق، طب متنسيش تقوليله كمان إنك إنتي اللي دبرتي وخططي لكل ده، حتى معرفتي بأخوكى وأول يوم جيتله على

القهوة، فايز مكنش بيطيقني بس لما اترميت قدامه وساعدت، بقيت.....

- خلاص، خلاص، أنا مش هتكلم، بس ربنا يستر ويفضل زي ما هو.

- لا متقلقيش هو هيفضل طول عمره كده، جبان وخايف رجليه تخطي خطوة زيادة، بس متقلقيش أنا هعرفه السِّكة، والفلوس تغريه والشقة تسكته، وعلى رأى المثل اطعم الفم تستحي... علية وأخوها.

- طب وإنت هتعمل إيه، فيه شغل تاني؟

- شغل إيه؟! ده فيه مصايب، المعلم اللي بيجبلنا الشغل اتعك في قضية قتل، وربنا يستر ميجبش رجلنا معاه، لازم نتكَن ونشوف مكان نبعد فيه لحد ما نشوف السفينة هترسي فين.

- ينهار إسود، يعني ممكن تتحبس؟!

- نِتحبس، إنتم شركاتي ياختي، هو أنا هروح واسيبكوا لمين؟!

- طول عمرك ندل، صدق اللي سماك عيرة.

- العيرة ده هو اللي عمل منكم أصل يا ناكرين الجميل، من غيري كان زمانكم في الشارع، دلوقتي معاكم فلوس تتغطوا بيها، وشقة تداريكم، ولا هو العيرة حلو بس لما يدينا؟!

غادر قبل انكشاف نوره على أعتاب ظلمتهم، استهزأ بما استمعه وكأنَّه الكابوس يضرب حُلمه الواهي، لحقت بأسئلته

إجاباتٌ عابثة، تمرَّد على نفسه، لطم جبنه وتصديقه لنداءات البشر الكاذبة، هام على الأرض الثقيلة، جلس على الأرصفة المائِلة، تغرَّب عن حياته ونادى والديه كي يعاوناه على الحِمل، انقسم إلى شطرين نازع نفسه وهو فاقدها، كاد يسقط في بئر الوهم لولا إرادة الله في توقيت دخوله وإنصاته، لم يعِ أن يكون هناك شرٌّ في مثل هذا ومعه هو، الوديع، الهادئ، الآن أصبح قاتِلًا، ومن الممكن أن يتم القبض عليه في أي حينٍ، خدشَت الحماقات عقله في وقت الضياع فوجدته صاغِرًا، يمكنه أن يفعل أي شيءٍ ليجدَ نفسه، انزاح إلى حياةٍ أخرى اضطر إليها في رأيه ولكنه هو الذي أرادها.

علمت علية حقيقته وقتها وارتمت ثقتها الزائدة في نهر الوعي؛ فاستردت وعيها حينها وجذبت حقيقتها من داخلها واستيقنت حماقتها، استبقت وداعتها واستودعتها في آنٍ واحد قبل أن تعزم تمام العزم على الهروب والانتحار إن استلزم الأمر. في تلك الآونة تزامن تعيينها صحفيةً تحت التمرين بجريدةٍ مغمورة، ولكن إصرارها الذي اتخذته منبرًا رمقَها عن قربٍ؛ فقرَّبها إليه وارتمت في أواصر العمل حتى تشبَّع جوعها المُحتدم، ارتقت على مشارف الأعتاب العليا، بفضل دلالها وميوعتها النافذة، ما أدار لها بمفتاحٍ خفي كافة مكاتب السُلطات العليا، فتقلَّدت مناصب ليس لمثلها أن يتقلدَها، فارتفعت كشأن الشمس وتجمَّلت بلون القمر، فجذَبت إليها العيون ولفحها عطر هيئتها الواعِد، ومن ثَمَّ تعود لهيئتها العاطبة جوار الزوج الخانِق والأخ الكهوُل.

(٨٢)

حضرا معًا في نفس التوقيت والساعة القتيل جوار قاتله، السيوفي والخرَّاص يفصِلهما حاجزٌ بسيط، في بهوَ المستشفى تصادف المشَهد الأعجب، وكأنَّ روحه لن تهدأ إلَّا ومعها مَن سلبها، اجتازا معًا الخروج والدفن، ولكن هيهات يكمن مَسلكَهما. أفاق شريف من شروده رويدًا رغم أنَّه ظلَّ مُطرقًا، إلى أن وارى جسد السيوفي مسَكنه، شعر أنَّه هدأت صيحاته المكبُوتة إلى حدٍّ معلومٍ، أما عندما تنهَّدت الخُطا في الجنازة العسكرية المشهودة فعلِم أنَّه اطمأن. " إلى رحاب الله يا أخي الشقيق الذي لم تلِده أمي" هكذا حدَّث نفسه رغم إفرازات العقل المشبوبة بالتيه، غادر سيف إلى بيته مُحلقًا في سماء الانعزال السامي، رفض كل ما آل إليه عدا هواء الصدور المُلتهب، لم يَقرُب سوى الأيام الراحلة ولم يلُذ سوى بالنهاية المقفرة. استلزم الأمر أيامًا مُنقضيةً حتى عاد لمجرى الحياة الساري، عزم على إيضاح الحقيقة، عزم على إسقاط الحاويات في بحرٍ يرتع فيه الحوت الأحدب، عزم على المُساهمة في القبض على الجميع والزج بهم في طي الإعدام المُروع بصفته شاهد.

(٨٣)

خطا أبو صيرة أول خطوات الخطر بعد أن خسِر نفسه، وتبختر بين الأيام المُظلمة، في أسوأ وأفضل أيام عمره سواء تحدَّى المجهول، تعثرت قدماه قليلًا، تبطأت، فتطيّنت، وانزلقت إلى ضحلٍ لا فِكاك منه، فما عاد شيءٌ ليخسره، فقد من حياته كل الأشياء التي لها معنى، المُغريات لا تستهويه، لا يستعنيه معاني الحياة ففقدها، وتأذن بالسير ضد تياراتٍ جارفة، منذما كان صغيرًا وحيدًا، منذ سماع أصوات أبيه وأمه يتباكيان على كسرة خبزٍ، أو يحتسبان مجمل ادخار الشهر الذي لا يُحتسب، عند مرمى الفجر خروجهما بات مرهونًا على عتبته إذ ناداياه ولم يتحيَّن الخروج، نهَر طفولته وسبَّ نفسه، ولعن وحدته، ولمَّا استوجدت الأيام شيئًا لبقائه حتى وإن كان لأبي صيرة، فلينتمي الآن إلى ما أرادته له الحياة أن يكون.

نفض غبار الماضي من يديه الباهته ووجهه العاري؛ فاحدودبت قسماته ولانت خطوط الزمن وشُدَّت، أما إلى ندبته جذب ما حولها ليجليها فانجلت وتلألأت عن حقيقتها الخفية، ولاحت له في مرايةٍ مقعرةٍ فانجذب وتساءل بخفةٍ، كيف له أن يكون مُحاميًا رفيعًا ويدخلوه إلى قاع المحكمة؟ فله أن يزج بقاع السجن بهذه الفقاعة؛ فابتسم ولمَّا اعتدل في هيئته ونظر في وجهه لاحت عيناه إليه بالبداية المُشرقة، واستأذن في الانصراف من داخله إلى شخصٍ

آخر لا يعرفه، من فايز عبد النبي السعدني سابقًا إلى أبي صيرة البيـــاع وهكذا غدا.

فرَّ من طيفه واندفن تحت أفكاره الخبيثة المستمرة في التفلُج، فتفاجأ لنموها سريعًا كخليةٍ سرطانيةٍ شرسة تضرب معتقداته وتحثه بعزمٍ على الإقدام وكأنَّها تدفعه بقوةٍ خياليةٍ مُحتقنة؛ فانتشرت وأضرمت النيران في وجهه، فتلهَّج واهتاج ووهج على أوج فورانه فكسَته وأفسَدته، وكأنَّها نشوة الهيروين مُنذرةً بالاقتراب، تشتعل رأسه بمُفردات الخِسة، وتندرج رأسه تحت روابط الكتمان والقدرة، فتُرتسم أمامه اللوحات دون ريشةٍ فالمعالم تكسوها الأزقة، وهو القابض على قبضتها بعنفٍ يلتقط خيوط الجريمة من رحيق دمه ويربطها بعُروتها بعناية طراز جاوز السبعين، على الرغم من تشويشٍ يعبث بجفنيه يسلب رؤيته جيدًا ولكنه ما زال يلضُم ببراعةٍ فائقةٍ، يرسِم ويخطط ويحبر حتى تختفي الآثار فلا معالم ولا خيوط ولا جريمة.

ذهب إلى غرفته وقبض على مراجعاتٍ واستنتاجاتٍ، كان يعلم أنَّه سيزورها يومًا في قضيةٍ يتعثّر في حلها كمحامٍ، لم يعلم أنَّه سيلقاها بهذه السرعة كبائِعٍ، فدس أصابعه في عمقها أخرج أحشائها كذبيحةٍ هائجةٍ التوت في يديه كلمة "قانون العقوبات" المادة (٢٣٥)، سقط من بين الكُتب وكأنَّه يناجيه من ظله، كتاب "علم نفس الجريمة" فالتقطه من بُعدٍ وميَّز عنوانه باللون القاتم؛ فتغلغل اللون داخل نفسه وطعنه بحِدة، حتى انتشله وابتسم له في زفرةٍ كادت تزيحه، فكان الأول أساس والثاني دعامة، فأفضى بما

فيهما عن كثبٍ واجتر المراجع ورصَّها بجُهدٍ داخل أروقتها في غرفته، قرَّب منه ما سوف يقرب إليه قريبًا ويقترب ويلدغ، فتجهز بعِندٍ وولعٍ شديدين وآثار الفضول كيانه، فقبع بينهما يبحث عن نفسه، وعن طريق شقّته له الدنيا رغمًا عنه، ولكن ما عاد اليوم اختيارًا، فما كان له نافذ والسيف يخفق على رقبته فليكن الآن ما كان، ولينظر لغدٍ، عسى أن يعيده إلى نفسه مرةً أخرى كبائعٍ أو فائزٍ.

(٨٤)

قابلته الطرقات كقاتلٍ محترفٍ، حاصرته المباحث نفسيًا خضع الخاطي وتململ من النيابة وعينا الوكيل الحادتان، فلم يجد بُدًا من الموت اعترف على سلامة بكافة السُّبل، ولكن بعد أن دبَّر عسران لقضيته الرابحة باستماتة.

- سلامة عسران هو السبب في اللي أنا فيه، هو اللي دبَّر وخطط وأنا نفذت، أنا مقتلتش حد هو اللي قتل الست مراته، وقتل الخرَّاص قدام عنيا.

- بس بصماتك هي اللي لقيناها على السلاح الأبيض يا خـاطي، ومفتونة فيه شهود عليك بيقولوا إنك كنت مراقبها فترة قبل موتها، إعترف مبقاش فيه حل تاني.

كبش الفداء ذو اللحم الطازج استدرجته الخطايا؛ فوقع في شِباكها بعذريةٍ، تعذر البكاء فابتسم بخوفٍ، بجنون كمَن يريد أن

تعود به الحياة ويقرأ المشهد، لفظ خوفه واستدرج وعيه وأجهزعلى الكلمات وما ظنَّ أن يُخرسه أحدٌ؛ تفوه لذاته وقبض على فكه بكلماته:

- ربك سترها معاك زمان، الوقعة هتيجي مدروسة، مبعدهاش قومة، الخطايا كِترت، النهاية قربت.

أُطلق سراح سلامة بعدما استمر التحقيق أيامًا، وهو على جاهزية للاستدعاء لإغلاق المحضر، على الرغم من براءته الفعلية إلَّا أنَّ الشكوك ترتدي وجهه كندباتٍ ظاهرةٍ، حدَّث هاتفيًا العيرة ولقنه الذهاب لزيارة الخاطي صباح الغد وإقناعه بالاعتراف على أنَّ مَن دبَّر كل هذا تجار القلعة، وأنَّه سيقوم بتهريبه قبل أن يُغدق عليه بما يرتضيه تأسُفًا، استطاع العيرة أن يبلغه لكنه رفض الأمر بعِزةٍ، وسُكب على وجهه نار الرضا، فما كان منه أن لملم ما يحويه من عطايا، ولوَّى شفتيه وأطبق على كتفه كوعيدٍ، واندفن في خفوق وفشل ما جعل الرابض يتوجس وينبس:

- النهـاية قربت.

(٨٥)

الغلطة عند البشر تدوم مر العمر، ربما تُغتفر ولكن لا ينساها البشر، هل وإن كانت عابرةً كالقمر وسط سلسلة نجاحاتٍ كالشر! نعم، وإن وُلدت في الظهر ودُفنت في العصر، ربما يؤكدون عليها بإلصاقها بك حتى الكِبر. هذه هي الحياة وسط صراعٍ أشر، جانب

ينبوعٍ أمرَّ، داخل غابات البشر. تستسلم تعابير وجهك برؤياه إلى الإذعان رغمًا عنك .. هو الوسيلة، أداة القتل التي لا تُخطئ مرماها أبدًا، يجيد كافة الأسلحة بكافة العتاد، جيش بمفرده، سلاحه يديه التي تتكون من تِعداد الأنصُل الحادة، يقبع حول خِصره حزامٌ يحمل من الأصغر حتى الأحدث ومن الأكبر حتى الأقدم، تفوح في ملابسه رائحة الموت الكلاسيكي ذي الرائحة النفَّاذة، تنظر في عينيه يتغلغل في نفسك النهاية وتستعيد تاريخ حياتك كاملًا بنظرةٍ إليه. مهمته في الحياة مُحددة كملامحه البارزة بروزًا حادًّا مُخيفًا .. القتل وفقط؛ يقتل لأنَّه يقتل، يحبه، يعشقه، يتمادى في العشق حتى أنَّه يتذوقه، يُبدع في عمله لدرجةٍ شاقة، يتعلم منذ هداه إلى صباه كيفية أن يجيد القتل دون ألم، فتفتحت عيناه على السونكي والقرن، وشبَّ على الآلي والنصف والمتعدد، وهوى الإعدام شنقًا حتى تفنن في استخدام الأنواع طبقًا للمطلوب تنفيذه، أمَّا إلى قلبه فهو يتواجد داخله نبضًا، يشعر، يكره، يحب، يموت، ولكنه يعمل، الموت عمل، لا يحبه ولا يكرهه، هو يبدع في عمله كما يبدع بعض منا ويعمل به رغمًا عنه كما يعمل كلٌّ منا.

كثيرًا عضَّ على شفتيه، كثيرًا بكى، كثيرًا بات معذبًّا، ولكن بمفرده، بعيدًا عن الأعين الكاذبة، بعيدًا عن السلب والتشفِّي، بعيدًا عن الحياة القاسية التي أفرزته على وضعه المتآكل، فلا عيش كالبشر ولا موت كالقتلى، بلا بداية محببة أو نهاية طبيعية .. مُتوقعة. خطأه لا يُغتفر؛ فهو العمل الذي يتحمَّل سفك أرواحٍ حوله، حيث المهارة الحادة والتركيز الذي لا يُخدش، يداه الصلبة

لا تهتز مقدار الذرة، حيث تموجها يحدث خطأً فادحًا وعيناه الغائِرة ترمي بحدتها إلى هدفها فلا يسكُن سواها في مرماه، سوى تلك المرة التي أخطأ الرمي وماتت الزوجة وتثكل الأطفال، لا يعرف إلى الآن كيف رمى بها القدر أمامه هكذا؟ كيف طفح الموت اقترب منه؟ فعاش بذنبٍ لا يتركه، كما عاش دومًا "طباخ السمِّ" لم يكن تذوَّق، فما إن تذوَّق فخَشَع كالمُرتد، يشحذ من الأيام التناسي، يلعن العمل ويسبَّ الإرث؛ مادت به الأرض، فما رده سوى الانهماك في القتل، بعد أن فكَّر وقدَّر، ثم قُتل كيف قدَّر، ثم عبس وبسر وانتظر، وعاد كالقدر، فما إن عاد فما تذكَّر أحد خوارقه، وتذكَّر الأقربون، الخطأ، "التخييش"؛ فمنذ يومها صار عز الدين بابل شهيرًا بـ"عز الخيَّاش".

(٨٦)

ينزاح بتجلٍ يُعانقه الأسى أحيانًا فيما ترك، يخرج رويدًا من عمق مأساته بالتملُّك، بعدما كان ضعيف النفس خاويًا، الآن يزداد في جمع المال مُستقويًا، علم مغزاها فعمِل بما أدرك، تهب الحياة لقويها حياةً، أمَّا الضعيف ففي سجونه مُستلقيًا، تناسى الماضي بزيفه وحماقاته السوداء، أعلن أبو صيرة أنَّه البائع الأوحد والقانوني البارع، ارتطمت بعمق عقله القضايا المُستعصية؛ فلاذ لندب الجريمة حلًا لها، كثيرًا ما ضاعت حقوقٍ لنفوذ جانيها؛ فالآن أعلنها سينصر ضعيفًا لم يجد مأواه، وسيسقط قويًا قد صار جلادًا،

تناطحَت القضايا إثر قدمه بعد أن استجلب له العيرة ما لذ وطاب، جرت الأموال بما لم يجُد به الشرف، فاستلذا الحرام وعملا بمقتضى حاله.

- شوفلي الموضوع ده يا عم تصديرة وهتاخد اللي فيه النصيب.

- نعم! جرى إيه يا عيرة؟

- خلاص يا عم اللي فيه القِسمة.

- آه، إذا كان كِدة معلش، الصُّحبة العيرة ما تسيبش نسيرة.

* تصديرة أو نصر الفصِّ: عمله ينحصر في نقطتين لا ثالث لهما، مِن – إلى، موِصل معلوماتي كشبكةٍ عالمية، يدرج في منطِقته (تصديرة جوجل)، يتمتع بذاكرة السمك ما يدعم سرية المعلومات؛ فهو ينسى المعلومة فور إيصالها، المال وسيلة رائعة لشرائه تكمن أهميته في التخفي، زئبقيته الجنونية تجعل من الصعب العثور عليه، يأمنه أصحاب السوابق والمجرمين لتعاملهم مع العامة، فلا يرى هذا – ذاك، المراقبة وكرٌ لا يخرج منه إلَّا الأشباح، والمسجلون لا يتمتعون بهذا المزية هناك مَن يتمتع بها ويحترفها بجديةٍ ويصنف كشبح الظلام.

- عيد تاني، عشان نسيت.

- يووووه، إحنا هنفضل طول الليل في القِصة دي، مش ذنبي إنك بتنسى.

- نسياني رحمة ليكم، ونسيانا رحمة لينا.

- جهز حكاويك، هانت وهتدلع، ركِّب أفيونك والحملي لسانك عشان فيه سهراية جاية.

- إبعت ياللي بتبعت.

- العقل بيخطط، هيخلص ونظبط.

- نفسى أشوف العقل ده، دماغه بنت حرام.

- ما يتشفش غيري يا تصديرتي، أنا موصلَّاتي زيك، ملناش لا في تخطيط ولا تنفيذ بس المرة دي غير، صدرهالهم صح يا تصديرة، أوعاك تنسى ولا تفوت، لو عقلك ضاع هنعيش في صراع، وريني فلوسك، وحشني روايحها.

- ماشي، اتفضل يا عمنا، آه نسيت أقولك، الصُّحبة العيرة.

(٨٧)

عاد للمنزل ما وجد إلَّا الفراغ جليسه، انتظرهما لم يأتيا، ظل أيامًا حتى اقتنع أنَّهما غادرا على غير رجعةٍ، صدَّق هذا عندما بحث عن ماله ما وجده، لم يستسلم أو يحزن؛ ربما ظنَّ أكثر من ذلك بعد أن أزيلت الغشاوة السوداء، عزَم على البدء بعيدًا عن عيون الماضي وهباته الخانقة، ابتعد بعد أن ابتاع قبوًا يقبع فيه بعيدًا عن أعين الجن والشياطين المحمومة، وعلى مقربةٍ من الساحة انساق تجاه مسجد تغري بردي وأردته الأيام حارة الألفي، قريبًا من الأحداث بعيدًا عن الأغصان المُلتفة شيئًا ما، عانق الجدران السُّفلية وغاب خلف الخفايا المُستترة، لم يواجه الحياة أسبوعًا

سوى خروجه لإحضار ما يسد جوعه، عاش كما عاش والداه زمنًا، نبَّأه فؤاده بقدوم زمانه، وضع خيوطًا وتشابكاتٍ، خططًا وطرقًا عديدة، أبرع في جميعها وغاب عن العالم بسيله الجارف وأخباره التافهة، انتظر أبو صيرة من الأيام مرورًا سريعًا؛ علَّ اليسير يُقبِل والمسرات تحبو، سيقبل بأي ثمنٍ كان؛ إن كان هو الذي سيُحرِّك بِركته سيقبل بلا تفكير، سيتحدَّث إلى نفسه في داخله بالقبول، سينحني أمام ما يعانيه، رحل في وجوه الناس لم يجد سوى الألم، النفاق، الكذب، الزيف، كل شيءٍ في عينيه أمسى زائفًا؛ فانعزل، وانعزل انخرط في عمق الانعزال فبات مهزومًا، ضعيفًا، هشًّا، فما جُذب إليه سوى مَن يريده .. بائعًا.

ظل هكذا إلى أن خرج من قبوه على غير ما دخل، حاصرته الغيوم الراكدة والوجوه الجامدة، انحشر وسط الزحام كبشريٍ وهو الروح الغائبة، مارقًا إلى مكانٍ خالف حدسه، ولكن ساقيه جذبتاه عنوةً؛ حزم قبضته وألقى خوفه القديم وجُبنه الذي تركه جوار علية، دخل وأضاءت طريقه قوةٌ خارقة، سحبته إلى هنا كالمجذوب أو كالملعون قهوة الصُّحبة الحلوة، وعلى كُرسي العيرة جلس عن جهلٍ، صعَّر وجهه كالأبله وصفَّق في عنتلة، انطلقت إليه بعد دقائق قهوته النرجسية قبل أن يقرب إليه "الزمبلك" ويفرغ توًّا على مائدته جميع أنواع ري المزاج، استعلم منه على الصُّحبة وأشار إليه وسبابته يطيحها على فمه -كمَن يثرثر- عن مُصدّر معلومة، ليرد عليه بعد أن يجذب كرسيه بخِفةٍ ويقترب عن مكرٍ منصرمٍ ويناوله الحديث شخصٌ آخر.

- عايز تفيش؟

- يعني إيه؟!

- محسوبك سيد فيش، اللي مفيّش القلعة تِمًا، الأيوبي قعد قدامي زيك كِده وقالي أسجله القلعة.

- في الشهر العقاري؟!

- هاهاها (أضحكته المُزحة فجلجلت صيحاته) لا، أنا ليا مصلحة خاصة، متقلقش مُعترف بيها، الجن الأزرق ميعرفش يفرق الأصل من العيرة.

- لا، شكرًا يا عم فيش، ربنا ما يحوجِنا ليك، إحنا ماشيين سليم.

ينظر له الضيف ذو الوجه الأسمر المطعون بخطوط العُمر المحفورة نقراته بدقة رسَّامٍ، مع غزو الشيب المُعمر على شعره وكأنَّه على أهُبة البصق على وجهه، ليدرك وِجهته ويستبدل كرسيه ضيف آخر وكأنَّه هبط من السماء.

- خُمسمية أهيف قبل ما نتعرف.

- إنت مين؟

- مش عايز تنقل سلامات لحد في الحصالة؟

- حصالة! قصدك في السجن .. هاهاها، لا، أنا عايز أنقل سلامات لحد قبل ما يموت.

- مش فاهم.

- مش فاهم إيه؟ إنت حتى شكلك من الصحبة العير... آه، قصدي الأصيلة.

- آه ، فهمت، إنت تبقى مين بقى.

- شوفت العقل! أنا هو ودراعاته إنت.

- لا، أنا كده عايز أستوضح كلامك قبل ما أنساه؛ حاكم أنا مش دراع أنا لسان، من – إلى فقط يا أستاذ.

- المقابلة الساعة ٤ الفجر، تيجي بالزي الرسمي، ولو نجحت التعيين هيبقى في الحال، معندناش وقت، فيه شغل كتير متراكم، يلا على ميعادنا ومفيش حد عالم غيرنا بمواعيدنا، وصلِت. الصحبة الع.. الأصيلة.

استدركه قائلًا:

- هو أنا رايح أقدم في شركة الميه.

غادر أبو صيرة بعد أن ألقى في وجهه الغموض قبل أن يُثنيه عن مجالسة العيرة أو يناطح وعده أو مواعيده مع الصُّحبة، ثم نثر في وجهه مقدم القضية التي هرب بها العيرة سدادًا للدين، وإقرارًا للجودة وتعزيزًا لعهد أبرماه معًا.

(٨٨)

تبدلت النفوس بعد أن انتهى الحب أو ربما نضجت فأصبحت كالجائعة تلقم أوقاتها بأقواتها، أمَّا إليه فأصبح .. أبا صيرة. هي مَن أقرَّت الزواج منه، نجحت خطتِها للفوز به وجنحت جوانحها

باطمئنانٍ على أرضه الخضراء، حاولت رغم كرهها له حبه، اقتادت للود يومًا طريقًا ضلها، واقتاتت بفتورٍ من الأيام ملاذًا فغلبتها بقسوةٍ؛ ما جعله اليوم ينفرها يهجوها بين نفسه، يُساوره الشكوك بحبها الخفي، ترك محمود وهدان عيون العاشقات وجاء إليها مناجيًا؛ فلام نظرتها إليه شزرًا عانقه التخلي، فأمسى مُداومًا على التخبط، ما بين القلوب مُتسكعًا، فتنته الأعين المُوردة فترامت إليه الأشواق واهتاج لشوقها؛ فنهل من منبعٍ كينبوعه وهو البئر عميق القرار؛ فاستثار وانتثر كالعطر في الرياحين البحرية العاتية، مضى من هذه لهؤلاء ما جعل أوقات تئن في كل الأوقات، وغدت كالمخدوعة المكلومة، وهي مَن بدأت بالتجاهل وعدم الاهتمام، عزمت طلب الطلاق ولكن بيديه روحها العالقة؛ فهي تحتاج منه أوقات وليس جميع الأوقات، تحتاج منه الثروة التي يحملها بين جنباته، تخبُطه وتسكعه يضيعها هباءً، أمَّا لذاتِه فليركض مع لذاذاته إلى الأبد.

تذكَّرت حبها الأول .. السعدني، تذكَّرت علية .. أيام ذهبت برونقها، رغم ضعفه كان رؤوفًا عليها، رغم قلة حيلته فهو الطبيب الرقيق، فازت به الأيام وخسرت هي حبها الأزلي، الآن تجملَّت في عينيها الأيام السابقات وهفهف عليها الشوق كالندى، هيهات الجشع أن ينساق كالمبدأ، كما فاز فائز بنفسه فازت هي بـ... وهدان، وتجرَّعت من ماله كالمَمسوسة، وما يظنها أغلب الظن أن تشبع.

(٨٩)

تقاطعت الطرق، فكثُرت الملفات، وازدادت علامات التحذير، حُوكم الخاطي وعاشر المشدد لتضارب الأقوال وتعدد البصَمات، وقع الشك في قلب مصطفى بيه وأصر على بروزه، لماذا يقتل الخاطي – الخرَّاص دون سبب؟ لماذا يقتله سلامة؟ لماذا لم يقتل سلامة – الخاطي؟، اختفاء تجار القلعة! صمت رضوان وعربي! تعاظمت علامات التعجب ولم تسَع ضآلة المكان، نفث في الهواء غيمةً دُخانية مبينة، استشرت كالمد في هيجانه، ارتطمت صورته في مرآته فرأى الوهن يضربه والعجز يُكبِّله، لم يتحرَّك عن مكان معاونه ولو فرسخٌ.

طَرَق الباب ثلاث طرقاتٍ وانتظر مُتأهبًا إذ تأذَّن له، لم يأتِه الجواب؛ فأذن بالانسحاب والمبادرة بالمغادرة، قبل أن تتحرَّك ساقاه بالاتجاه القبلي، انفتح الباب على مصراعيه على وجهٍ يبدو غير أليفٍ، شديد الضياء، تفوح منه الشذرات الرقيقة السابحة، عينان تَلتمعان بإشراقٍ حانق، وفمٌ مُتشدق يضيء اللؤلؤ من فيه ضياءً مذهلًا، شاربه الرقيق يعكس بهاءً عامًا على هيئته، ظهر ذلك جليًّا على حذائه فاحِم السواد، يغمر جبينه النور فيعكس على بلاط الساحة رؤياه حيًّا متيقظًا.

- معالي الباشا، تأذنلي.
- تعالى يا شريف، ادخل.
- خايف أكون معطّل معاليك.

- يا عم بلا معاليك بلا بتاع، الكلام ده مش بتاعنا، إنت أخويا يا شريف.

- اللغز اتحل.

- اللغز ما بيتحلش يا شريف، كل يوم اجتماع وندوة واستدعاء وضبطية وقواضي بتترتب على المكاتب ومفيش حل كلها تخمينات، الحلول بتجيب ألغاز أكبر من اللغز الأول وهالما جره، وأدينا قاعدين مستنين اللغز يتفك منه سطر.

- بيـــــّاع.

ألقاها بنبرةٍ ذات ريبةٍ وبفمٍ مُثقلٍ بالتآوه، وبابتسامةٍ شارفت على الانتهاء قبل الارتسام بعد أن أفلتها من فمه دون مرجعيةٍ مُبيّنة.

- أربع حروف .. هما دول اللغز.

- وبعدين!

- لأ، كملوا إنتم أنا بحاول أفك طلاسم وأترجم رمز.

- إنت مقولتش حاجة!

- أنا قولت كل حاجة، إنت لسه مش متخيّلها بس.

- إنت قولت "بيـــّاع"؟

- جريمة.

- بيـــّاع جريمة!

بتعبيرٍ فاق الدهشة، وبخدرٍ أذاب بروز الوجه، وأصابع مُلتفة كفروع الشجر حول ملَفٍ باهت غير مدرجٍ عليه أيَّة أسماء، فقط

يحمل مئات الورق داخله، وبمقلتين ذاهلهُمَا عقرب الساعة الثابت على الساعة الرديئة منذ ثلاثة أيام، ما زال الرقم منقوشًا عليه بروز العقرب ولم يئِن، صارع الدّكراعترافات وتوقُّعات! امتلأت ورقته الفارغة بتخمينات وتهويمات مجسّدة، تمتَّع بالنسيان وحيدًا، إلى أن يتفقه في الأحاديث، تحمَّل فوق طاقته ولطالما سوف يتحمَّل وتزداد دهشته تمامًا مثل دهشة، الخاطي وشريف سيف.

(٩٠)

تتداخل خيوط الضوء المُركزة في عينيه، تلك الحياة الثمينة التي فقدها، والجمرة المُتوهجة التي قبض عليها بكفيه، أمسى يطيل أوقاته في البكاء وفي الملاحظة، يراجع عمره الذي مضى في عبثٍ، في عناقٍ مع الأيام البغيضة، وفي زهدٍ عن الأيام القويمة، برغم ما فاز به في الوحدة الغاشمة مع ارتفاع ظلام زنزانته، تتكاثر أضواؤه الداخلية الحية فينتشر كالتوابع يضرب رأسه، وينتظر أن يمر يومه بلا جَلد لذاتِه.

- يا معلم ضاحي، فيه ضيف جه يآنسك.

لم يُحرِّك ساكنًا ولم يتحلَ سوى بالصبر في مأساته التي رأى فيها نجاته، دخل عليه بقدمٍ زاحفةٍ تجتهد في الدخول كما اجتهدت في الخطايا قديمًا.

- إزيك يا معلم ضـــاحي!

نظر إليه شذرًا جاذبًا معه رائحة الخُطا المُتسخة في زمنٍ كسَته الأنَفة، خطا إليه ضيفه مُقتربًا غزاه صمت استقبال العاصفة، لم يتكلَّف في الإلحاح، همَّ بالحديث بعد جلوسه جواره، بكى بكاءً مُفاجئًا؛ استشعر الجليس بغضب ضيفه، استقام عن ميله ربَّت على كتفه، رغم الخطايا الطافحة على وجهه، لا يعلم المعلم ضاحي لما شعر لوهلةٍ أنَّ تلك الزنزانة ربما جمعتهما لنحر الخطايا وانجلاء الماضي المستور!

- هوِّن يا خاطي على روحك، اللي فات انساه وآديك بتطهر دنسَك من دم الحبايب.

استمر بكاؤه في العدو وما اتضح أنَّه سينقضي:

- والله ما قتلته يا معلم ضاحي، إنت متعرفش حاجة .. وأحسنلك متعرفش.

- معرفش إيه! يمكن ربنا باعتك ليا عشان تعرفني، الوقت هيطول بينا ومفيش ما بينا غير حكاوي، قول يا خاطي أنا سامعك.

- كان يوم مابنش نهاره؛ ليلتها التجار قالولي اقتله، روحت لقيته مفرفر غرقان في عرقه والشنطة جنبه، ملمَستوش، خدت الشنطة وفرّيت على بره، والله ما قتلته.

- شنطة! مين اللي قالك اقتله؟ وشنطة إيه؟!

- الموضوع كبير يا معلم ضاحي ميسعش الحكي وإنت غلبان، بعيد عن السِّكة! تجار القلعة لما منعوا أي حد يفكوا

الرهن لعبده عشان ميرجعلوش بيته ده مكانش ببلاش، بيت عبده عايم على آثـار، وكانوا عايزين بيته بأي تمن، خدوا بيته بملاليم، وفي اليوم اللي خد فيه الفلوس بعتني المعلم سلامة أقتله وآخد الشنطة والتجار بعتوا الراجل بتاعهم .. الخرَّاص، أنا رُحت لقيت عبده واقع مقدرتش أقتله هربت، الخرَّاص وعدوه يقتل عبده والشنطة بتاعته لما يلاقيها، راح قتل عبده وملقاش الشنطة، هو راح قالهم ملقيتش الشنطة بقى خرَّاص وأنا رُحت للمعلم سلامة إديتله الشنطة ومقتلتش بقيت خـاطي؛ من يومها بقيت أخطِّي بحساب، وأبرك محلي، رجلي اتهرست تحت عجلات المقطورة، كنت تايه في ملكوت ربنا، مسمِعتش إلَّا صوت عبده في ودني، بقيت أخطي وأبرك، أخطي وأبرك، أخطي وأبرك.

- يا نهـار أسود، كل ده وأنا نايم في العسل! وليه قتلوه؟! ما كانوا يسرقوه بس ولا يهددوه.

- الناس اللي جت تحفر تحت البيت لقوا مقبرة دهب، راسهم وألف سيف لازم تتفتح على دم واحد، اختاروا الأول الواد ابن عبده .. فايز، ولمَّا عبده رفض قدِّم نفسه بعد ما إدوله الفلوس ووعدوه يراعوا عياله من بعده.

- الله يرحمك يا عبده، ليه وافق على كل ده ومقاليش؟!

- الحوجة، الراجل بعد مراته ما راحت بلاش، مبقاش باقيلها ولا عايز حاجة، يمكن ارتاح إنه رايحلها.

- منك لله يا سلامة، ضحى بعبده وبعدها اتدّور عليا، والله أعلم عمل إيه في ولاد عبده؟

نظر إليه مُتأهبًا على الأسئلة الصعبة، وتردد حينما ذهب الحديث تجاه مفتونة، ظُلمًا تنوء مفاتحه عن الحمل وخطايا تنزلق من على الجسد المُتسخ وكأنَّه بوجهه يبرز الثوب المعتكِر.

(٩١)

بعد أن تهادت السُّحب الثقيلة وانتقلت غيوم تشرين عمدًا في السماء، انتثر الغِل داخلها وعمدت إلى حصاده، انتشر في أزقة القلعة بالمُدبِّر وشياطينه، كما انتشر عن الرجل الذي حملِت امرأته في عقده الخامس، قالوا عنه زكريا ولكن انقشع الاسم عنه عندما تبارت الأقاويل أنَّ زوجته الصغيرة هي التي حمِلت، تناهى إلى مسامِعها كخيانةٍ في بيتها ومضت كالبرق عيناها، شقَّت صدرها ولطَّخت وجهها بالندم الجم، عزمت على التخلص منها إلى الأبد، بحثت عن الأسباب التي تدفعها وجدتها داخلها مُكتملةً، أمَّا هو فحسابه مُعلق إلى أن تنتهي ممَّا عزمت عليه؛ أُرسلت لها رسالةً سريةً مغزاها نسج شباك جريمة قتلٍ مُكتملة الأركان دون عقوبةٍ تغرز أنيابها في جسدها الخدر، قبل أن تولد له زوجته بوليد يسلب ما ظهر وما بطن، منْ ياترى مُرسل الرسالة؟!، لايهم، الأهم هو التخلص من الزوجة قبل أن تلد، الأمر جاء لشادية بإلقاء الرسالة فى المكان المحدد فى حال موافقتها أما فى حال رفضها فلتحرِق

الرسالة ولتنسَ الأمر، قبل أن تقع الرسالة في يد تصديرة دون أن يفتحها بعد أن ألقتها مبتعِدة، ابتسم ثغره لبدء "الشغل"، وجدها وحيدةً بصندوق وارده وعليها ثلاثة أحرف (د بّ ر) فتناولها من رأسها وأرغمها على العدو إلى عيني البائع، استلمها من داخل قبوه بعد أن ألقاها المُصدِّر بحذرٍ وأنامل مُصك السبائك، قرأها بجِدٍ بعد الثانية فجرًا، ميعاد المَرسم والتخطيط، فنَّد ظروفها، طرحَ أسئِلته وأجابها بلِسان قاتل أباح قانونه الفتك، أجهز على الدوافع والدفوع، أعدَّ الخِطة بحكمة وإختار سلاح الجريمة بنقاء، كما دفع بالعقوبة إن استلزم الأمر، ثم تملَّك الخيوط على رقبة صاحِبها، لم ينسَ أن ينثر الشكوك كحبات الغلة بعيدًا عن القاتل.

الآن انتهت القضية، طبقَّها جيدًا وريقة لا تتعدى الإصبعين بها الحل، كالحجاب الزينبي الصادق، خرج لصلاة الفجر بمسجِده المُعتاد، لم ينسَ في سيره الإطاحة بالحجاب الأصيل قبل أن يلتقطه أحد المريدين في حنوٍ، يقبض عليه كالجمرة غلف الحجاب بقِطعة قماشٍ لم ينس أن يكسوها باتساخٍ بليغٍ ويضمُخها بمسكٍ أبيض يجتر الخضوع له بالأنف المزمنة، صادق المُريد صدقته، واستطاع بخِفة الوصول لصندوق الوارد بشارع سبيل بامبا قادِن، فى الموعِد المحدد التقطته شادية ببهاءٍ كمَن تلتقط تذكرة خروجها من سجنها، ما دفعها في جذبه إلى أنفها هو رائحته النفاذة، غادرت مُسرعة قبل أن تترك خلفها داخل صندوق النذور المبلغ المحفورعلى الحجاب بالورنيش.

(٩٢)

هو المارد ذو العِتاد الخفي، هو الأصل والجريمة هي الزيف، المعلومات هي الحرب في زمن الاستعداد فيه للأقدر ذهنيًا، التمس الميَّاس من غياهبها براءة، وسطع في نفسه الواهنة كبرياء، وتطَّلع إلى الدهاء بحِكمة؛ فتعارف على العديد وتشبَّكت خيوط لسانه مع الألسن المُغرمة بالسرد العنيف، خِفة ظله جذبت إليه النفوس بحُبٍّ، بعثرة كلماته المُستفزة تجلب له حُسن الحديث وتفرز له ممراتٍ مع أصحاب الحديث .. ضُعفاء النفوس؛ فتبارى في أرضٍ يهجوها التهويل، ويلهِب باطنها التمثيل، فأفضى بما في جُعبته سرد لهم من الحديث ما لم يعرفوه يومًا؛ فعلموا عنه قوةَ طغيان روايته، ومدى تأثيرها على الجموع الراكدة، حرَّك سكون مآقيهم الغاشية، ونطح قرون الغلبة المطمئنة، بيضاء بشرته تبشِّر له بصدق الحديث، فلا تكذب الشمس أو يُكذِّبها الخلائق، معرفته بالخيَّاش جاءت بتلك الطريقة فتلاقت الأحاديث عن صدقٍ، وتحابت النفوس لدرجةٍ عميقةٍ بعد تعارف المصادفات، مضى الأُنس يحفُّ اللقاءات إلى أن برزت الوجوه عن رؤيا الحقيقة، تلك مشروعية المنطق التي أباحت حرية التفكير والتدبير؛ فلانت زوايا الوجه وانحناءاته إلى أن تسطَّحت الحروف وواجهت شراسة الضربة.

- نقول تاني، ولا واصلك الابتسامة.

شابهه نظرة التيه:

- مش عارف؟

- مش عارف إيه؟ بنقولك كل اللي هنعمله، اللي بتعمله، الرغي بتاعك، بس بدال ما يبقى ببلاش، هيبقى بفلوس، وفلوس كتير.

- رغي يجيب جرايم.

- رغيك مجاني يا مولانا.

- سيبني أفكر!

- تمام، هتشتغل معايا مورد معلومة "عسَّاس"، ونعمل شغل سوا (ينظر له بضحكةٍ فاترة عليمة وما يلبث أن يتناول كفه) مبرووك، نبتدي الشغل يوماتي.

- أنا خايف يا خيَّاش لتخيّش منك ونضيع.

- هاهاهاها، عِرقك ونَّاس يا ميَّاس، وضحكتك برواز، حكاويك سهراية وصوتك زي غلغلة السكين في الرجعة، متقلقش يا مايوستي.

ابتسم له بعد أن أعدها ثناءً عليه، مرق بين يديه كالتائب بين يدي مولاه، ثقب عمقه بالمقابل؛ فتحسس جيوبه الفسيحة وأعادها إليه موافقةً، لم يدرك الخطر أو تساوره الشكوك، ظنَّ أنَّه ليس شريكًا ولم يكن، هو الميَّاس ذو الحواس الألماس والإحساس الجيَّاش، وأدرك أنَّه حقًّا سيعمل بعمَله السابق، يتحدَّث ويبيع المعلومة فقط ليس إلَّا.

(٩٣)

تجهَّزت شادية من فورِها على الخروج الآن، ستصل إلى منزله ويدفعها عزم المُقاتل عن حياته، دخلت بهدوءٍ بعدما سرقت من زوجها مُفتاحه، وجدت جسدًا في سريره مُستلقيًا، تذاءبت عليه وما شعرت بنفسها إلَّا وهي تلتقط سكينًا حادًّا من داخل أروقة المطبخ، أمسكته بعازلٍ لئِلا تسيح منه البصمات العالقة، انهارت وهي تفتك الجسد بالطعنات المستمرة، كادت تضيع بعد خمسة طعناتٍ من نظرة عينيه لا من ضعفها أو فتور الغريزة، صابر النردي ينظر لها بذهولٍ قابضًا على فتحات نحره، يسد سيل الدماء بيده وكأنَّه يسد السماء عن سيلها، اهتزت الحروف من فمه مُنتحبةً، ما وصل إليها وهي مشدوهةٌ ناحية زاوية الغرفة الأبعد مُحتضنة الحائط .. ليه؟! وتصاعدت روحه كالبخار تاركًا في الغرفة سُحب الغدر مُنتشيةً، فزعت لفزع العقل هرعت إلى النهاية لتلقى حتفها وحيدةً مُنتظرةً، لم تسكن ولم تهدأ بل نهش التفكير أواصِرها، لم يستلزم الانتظار من فريق البحث الجنائي طويلًا، وصلت النتيجة لـ مصطفى بيه، و من ثم أمرت النيابة بسرعة الضبط والإحضار، قُبض على الجانى، زوجته الحامل ذات البصمات اللامعة على السكين الحاد.

الخِطة تسير كما بلغ عنها الحجاب، ولكن صدر المباحث يضطرم بعدم الارتياح؛ الجريمة يسيرة الوقائع تبعث الريبة، نفث مصطفى بيه دخانه في الأوراق وبحث في نهمٍ، الأمر ليس بتلك السهولة!، القضية ربما تخفي الأحداث ببطن الشخصيات، أين صفة البائع داخل الأحداث؟ لا توجد، تصوَّر شريف سيف خاطئ

.. بالغ الخطأ، ولكنه يداعب الأحداث، شريف ليس ضابطًا للمباحث هو فقط يجمع شتات القضايا ويستنبط ما يراه، ولكن الأوراق غير دالة إلَّا على الواقع، جريمة شرف، أو....

عاد ينفث في الهواء وما استرجع سوى الخيوط المُهترئة، ما مكث كثيرًا في يومه حتى قُبض على شادية مُستسلمةً، مُستبشرةً بالنهاية الحتمية، مضت على كثبٍ من الموت، خرقها للخطة الموضوعة ما جعلها في رمقها الأخير، بعد أن ذهبت في نفس اليوم لمحاولة قتلها مرةً أخرى، ما جعل مُصطفى بيه ينداح في الفرحة المكبوتة، هي الشكوك التي ألقاها أمام عتباتها ليلًا، وانتظر الشباك أن تعُد مَلأى، ما ظن بالقاتل غباءً ولكنه الجنون، أمسك بها قبل قتل ضُرتها وسيق بها إلى غياهب القِسم، وعند سؤالها عن سبب قتل زوجها، أفرغت من حلقها المر واستجابت لنداءته وصارحت أنَّها كانت تنوي قتل زوجته بعدما وصل إليها حملِها، صدَّقت ما سمعته وعزمت على القتل كحلٍ سريعٍ، أتتها البُشرى أنَّ بيتها سينتقل كإرثٍ شرعي للزوجة -البيت الذي كتبته شادية باسمه كي يبقى معها إلى الأبد- بعدما أثبتت أنَّها حُبلى بالولد، وما فطنت للحديث إلَّا عندما حضرت الزوجة لزيارتها في تمام الاحتدام لتلطمها بلا حياء.

- الله يرحمك يا عم صابر، ومين قالك إني حامل منه! أنا حامل من قبل ما أتجوزه، والواد مكانش هيتكتب باسمه.

فانجابت مُصفَّدةً كالِحةً تجتر الخيبة على تنفيذ حُكمها على زوجها لتلقى جزاء الإثم ويلقى هو جزاء الإحسان .

(٩٤)

صارحه قبل أن تتلاقى الأعين عن ندمٍ واحتقارٍ، استلقى على مائدة الاعتراف وسكب بطغيان الحقيقة الغائبة، سكبها بلسانه قبل أن تُعرف بعد موته، استلزم من الخاطي بكاءً حارًّا مُستعينًا بالخوف قبل أن يتملَّكه التسكُّع خلف جدران الصراحة التي ما قرُبها من قبل، جال بخاطره كل التخيلات البعيدة وعلى عكس ما رآه .. وجد.

- فيه حاجة أخيرة خبيتها، أحب أتطهر منها أقابل وجه كريم، بس خايف تشوفني وحش.

- حد قالك إني عمري شوفتك عِدل، من أول يوم وعيت عليك وإنت خاطي.

- الست مراتك!

- اللي كانت.

- أنا اللي كنت راقِمها، والأخبار وصلت في التو، عشان يخلصوا منك.

- إيه لازمته الكلام ده، وبعد إيه، مَا أنا عارفه، وسمعت بيه.

- يعني تعرف اتقتلت ليه؟

- ماتش ذهاب، العَك مسيرة الزَّك، زيك كِده يا واطي، قصدي يا خاطي!

- الست مراتك راحت للظابط عشان تعترف ليه بكل شيء؛ إنك بريء، وإنها اللي رصيتلك الشمع على التورتة، واعترفت على سيدي، إنه أُس العَكّة وكانت ناوية تصفالك وتعِد حالها وتجيلك، بس لجل الحظ الظابط اتقتل بعد ما كان مواعدها بالمراضية، وللأمانة اتقتلت عشان راجعالك، الفضيحة كانت طالت سلامة والتجار والنار رقدت على صدورهم من الخوف، لولا التدبير رباني والستر غطاه يساع، لسّالهم سيرة بره، ربك والحق يوم ما شيّلني وغمز افتكرته بيلاوع، قولت بيلوِّش مصدقتش إنه يبيعني إلا وأنا جنبك على المنقد.

ارتفع ثغره عن ضحكةٍ:

- باع الأغلى منك يا خـاطي، يبقى غبي لو اشتراك، تمنك يخسَّر، وتبقى غبي لو فكرته هيسيبك، سره مش في بير سره في الإذاعة.

بندمٍ لاذع وتسبيحاتٍ سابحة:

- اللي ناوي يعمله عمَله، والتحقيقات بكلمة هتتفتح من جديد، وأنا مبقيتش عايز حاجة، الخـاطي مش هيفضل طول عمره خـاطي، تفتكر ربنا هيقبل توبتي.

- تفكيرك فيها إداك ثوابها، أوعى اسمك ينسيك إنك ممكن تتوب، استغفر يا خـاطي، قصدي .. إنت اسمك إيه، تصدق معرفش اسمك، من كُتر ما الناس مسمياك بذنوبك.

- اسمي؟! مبقتش فارقة، أهم حاجة مبقاش خـاطي.

(٩٥)

التغيير يشتت العقل، يهب الجنون المجاني إلى أن تُدركه الخيوط، غباء المُجرمين هو الذي يكشفهم ليس إلَّا، ألم يُدركوا يومًا أنَّ الذي يكشفهم إنسي مِثلهم، يفكِّر بطريقتهم، يتتبع آثارالأقدام وكأنَّه الذكاء الفِطري، عاهد البائع نفسه ألَّا ينكشف طالما عمِل عن طريق قُبعة الستر اللا محدودة، مضى بعدما أودع أوراق القضية في جوف البئر وهو غاية في السعادة، العمل مُنفردًا يجلب الحظ، يُعمِل العقل، ينبه خلايا الإبداع، تلك الوريقة هي شفرة التخفي، تلك التي تتيح له العمل تحت عباءته النافِرة التي تحمل أنفسًا، تخلق طُرقًا من لا شيء وتمهدها عنوةً تدفن، تدثَّر، تخفق، تنجح، تسرق، تقتل، تلك الوريقات المُثلى لحل مُشكلات العصر بخفة يد الساحر، ومهارة العازف، وبعذوبة الشـاعر.

"أُطلقت الصافِرة ولكن .. ليست في مقتل، كما خُطط لها انساقت يتبعها اهتياج شيطاني؛ فيمُر الطفل دون وعي أمام سيارة سبور خافية، تطيح به من هنا لهناك صُدفة، تلقيه على شاطئ الطريق تحمله كما أمه بجسارةٍ لتلقيه على سريره الصغير؛ فيقع مغشيًا عليه ولربما صاعِدًا ولكن ليس بدافع الصافِرة بدافع الأم الحـانية".

تلك البشاعة بصورتها ثلاثية الأبعاد، أعاد قراءتها بعد الثانية فجرًا، ميعاد المَرسم كما اعتاد، دبَّر المكيدة وهو يمضُغ في حلقِه السُّم، يبرز وجهه في نفور، الدفع بالسببية عنوان القضية

ومربطها، تبلَّدت أطرافه وهو يرسمها بريشته، تداخلت الدوافع كسِهامٍ تنخُر رأسه .. العميل يريد البراءة! في قضية قتل من تدبير أبي صيرة، ما أرداه حتفًا للسببية ذلك الدفع الشيطاني، والاعتراف المَجاني. نعم، سيصوب ويُطلق بأريحية جِهارًا في وضح النهار، ولكنه لم يقصد قتله بلا سبق بلا ترُّصد، تخمَّرت الفِكرة كبائعٍ مُحترفٍ، لا كهاوٍ لا كعاشق للقانون، بل كعاشق للجنون، امتدَ أفقه إلى الدور المئة بعد الألف، آلف الفِكرة، أعدَّها برزانةٍ، ثم طبخها بنفس على نارٍ هادئة، حرَّكها كما يُحرِّك العجين مائدته، تماسكت بثقلٍ بعد صمودها ساعةً تسوى، أخرجها من بين يديه طعمها مُسكِر مُسكَّر؛ فتبادل النظر، وداعب شطئِها، طفحَت عيناه من دِقتها المُتناهية، سرد الدفاع، الدفوع، أقام الحجج، أعلن اليوم الطريق إلى الجريمة بشرفٍ، بعزيمةٍ، بتعالٍ؛ فهو المارد المُنجذب أصابه اليوم فقط قليلٌ من التكبُّر، ما وضع في نفسه الرعونة، ولكنه سريعًا ما أدرك أنَّه فألٌ يُنذر بالنهاية، أكثر مَن تم الإمساك بهم، هم المُتعالون، وذلك الغباء العميق.

بصَق على هيئته قبل أن ينظر لها في المرآة معاتِبًا، جذب الأفيونة من فمه، وضع حولها باعتيادٍ دامٍ، مفاتيح الجريمة، لم يمر وقتٌ طويلٌ حتى اقترب ميدان القلعة، ألقاها بخِفةٍ قبل أن يلقي معها فلتر سيجارته المُطعَّمة باللؤلؤة الثمينة، لا أحد يهفو جوار الفجر، لا أحد يعبث بذات الصباح، انقضت الليلة واطمئن بها، بعد صلاة الفجر غدا من نفس الطريق، تلمَّس الأثر ما جعله يزور اليأس، حركة طنَّت خلفه؛ صوت الضابط وحركة العسكر،

تشريفة مُقتربة على قِسم الخليفة، ما جعل صدره جازِعًا وقدميه تجتر النكسَة، مرت السيارة وتبِعها الترحيلات فنظر إليهما بحنقٍ، زفر رئتيه مع أنفاسه، تلبَّسه شيطانه، لا يعلم لِما شعر باقتراب أجله؛ تلك التي أرادها يومًا، الانعزال، الانطواء، الخضوع لمَن يربو إليهم بعيدًا عن تنمُّر البشر، غدر المُحبين .. الكاذبين، رتابة الأخوة الثقيلة، الصداقة المُشينة، الفُجر والقرابة، لم يزل خاطره يلقي عليه حتى ألقى على وجهه الغشاوة، وذهب إلى دنيا عالمَها أوقات، علية، عادل شداد .. العيرة، عبد النبي، نجية، أفرز عقله التشويش بنهمٍ، خدَّر حياته بسهولة جذبه من عُمقه الدفين ومرارة المردود، تفتحت عينيه عن لا شيء فطفق يخصِف الأراضين بولعه في النهاية، لم ينسَ ماضيه ولكن لِمَ هو يعيش الآن؟! فلا أحد ينتظره! ولا أحد يريده، الجميع تركوه بلا مأوى، بلا اعتراف، بلا أهمية، ولكن ثمَّة شيءٌ يخبط عقله كالممَسوس، قسَمه أن يجعل لوجوده قيمة، سيلجأ الجميع إليه يومًا، يومًا لا يُجعل الولدان فيه شيبًا، اقتربت الآجال واضمحلت الأعمار فمرحى بالعودة الكاشفة.

المُفترض بوصوله يجِد الرسوم المُعلنة سلفًا، الأتعاب، ذلك هو الاتفاق، بعد وصول الحُكم إلى طريقه المُراد، سارع الخُطى وتبطأ عمدًا، بحث بعينيه في الفراغ أسفله لم يجد سوى الكلاب الضالة والأحجار الجمادية الصادقة، اقترب ناظرًا بعمقٍ تجاه معجِزةٍ معماريةٍ مرَّ عليها أكثر من ألف ومئِة عامٍ .. المسجد الطولوني؛ انبهر بشِدة، تكاثفت أشجانه لمَّا توارد في ذهنه طفولته الغنَّاء، صفق مشدوهًا بما خلب رؤياه، تذكَّر مرور عربة أبيه هنا،

تُمطره أمه بالأسانيد الطفولية العابثة، والسُّباب العاطفي جرَّاء التفاته بتأثر إلى المسجد وتأخره عن ركبهم، كأنَّه رأى أثر حركة العجلات تداعب لُبه، كأنَّه تحسس مكان مكوثه بالساعات لعِبًا، كأنَّه كان مطمئنًا وذهب إلى طريقٍ لا يتحسس فيه سوى الجمود، وقف الآن إلى ما وقف عنده .. بائِعًا مُجردًا من الأحاسيس النهِمة، ترك طفولته المُلهِمة وانطلق إلى شبابه الآثِم بفخرٍ، استلقى وقوفًا أمام صندوق القُمامة، ألقى فيها بأسى علبة دُخانه، جُذب إلى عقله الذكريات الحزينة كما جُذب إلى يديه حقيبة صغيرة تخفق بمليون جنيهٍ، ربما تُنسيه عبق الطفولة وولع الرُّشد.

(٩٦)

لم يُسمع من اليقين سوى اسمه، لم يُبنَ الشك إلَّا على مجهولٍ إلى أن تتضح الحقائق؛ أعار مصطفى بيه شريف سيف اهتمامًا عن تعقُّل، ربما يكون التوقُّع جائزًا، تململت الخيوط المفتلة إلى أن جذبها بشدة فارتطمت بواقِعه، شعر بها على وجهه تلمسها برفق، كلام شريف سيف يدور بعقله؛ تفقأه الشكوك، يُساوره القلق، يزيحه التفكير إلى عرض الحائط فيأتي به ويرميه هنا قبالة الصليبة، أجهز على القضايا المعلقة، حرَّك الركود بأسئلة، مازح الدلائل بإجاباتٍ؛ علّ الحركة تُساعد الطريح، هناك شخصٌ ما ينبح في الظلام، ينير لهم طرقات الجرائم، يساعدهم بالبحث، يجاريهم بالحقيقة، يُماطلهم بالمعلومة، تتكاثف التحريات، تتباعد

الشُبهات، والبصمات تُدهس، هناك مَن يخترق القِسم يخترق القضايا، بل ويداعب بيديه أوراقًا عالقةً، هل هو مُخبر؟ أمين؟ ضابط؟ لواء؟ ما هيئته؟! لِمَ يساعدهم؟!

تناسى كلمات شريف سيف عمدًا، تصاعدت أبخرة الظنون الخبيثة يفوح بعطرها المُتلهج رائحة رضوان الجيَّار، وعربي النحَّاس، وسلامة عسران لا حديث يخرج عنهم، لا جريمة تحدث دونهم، لا شيء يجمَعهم أو يُجمِّعهم رغم الخيوط المشدودة، تهدل الثوب وتهالك، بسَط الهواء النافذ من شباك غرفته الأوراق وبعثرها، رغم مُعاناته شغل عينيه تلك الكلمات المُلقاة على وجهه على وجهٍ من الصُدفة، كتب على ورقته البيضاء خواطره: قتل عبد النبي وسرقته من قِبل الخرَّاص، الخرَّاص تربية رضوان، الخاطي تربية سلامة، ضاحي ضحية سلامة، التجار ضحية....؟ عربي النحَّاس .. الحلقة الناقصة، سلامة باع عبده! باع ضاحي! باع الخاطي! رضوان باع عبده، باع ضاحي، باع الخاطي. الخرَّاص قتل عبده؟ قتل مفتونة؟ قتل التجار؟ الخاطي قتل عبده؟ قتل مفتونة؟ قتل التجار؟

تجهَّم مُصطفى بيه أمام خواطره، سكَب بعضها لتناول التداخلات مع ما استمع إليه جرَّاء التسجيلات المُفرَّغة من السجن، المُحمَّلة باعترافات الخاطي لضاحي، التسجيلات تضمَّنت اعتراف الخاطي بمراقبة مفتونة وبالتالى هو منْ قتلها بالتأكيد، أما أمام النيابة حُفظت الثلاث قضايا ضد مجهولٍ، ولو قدَّمت تلك التسجيلات سيصعب الوصول للفاعل الحقيقي،

وستتباعد الأدلة ثم تذوب في المحيط كفص ملح، الانتظار أوقع، ستقتص الأيام وتخيط الشباك ثم تحمِلهم كالأسماك العنيدة؛ ما زال هناك من الجرائم الغامِضة ما يثقب الصدور، التجار لم يعلن عن مكان دفنهم سوى كلام الخاطي، لم تبدأ التحقيقات بعد في تلك القضية، ولكن الشك كالحبل التِلم الذي يلتف حول عديد الرقاب، إمَّا قتلهم الخاطي أو الخراص أو عسران، مَن خطَّط ودبَّر؟ مَن نفَّذ؟ المقبرة لم يكتمل نبشها، رضوان وعربي لا بد لهما الأيادي الجاثمة، بقوتهما الغاشمة!

أيمكن أن يكون منهم ما يُدعى البائِع، كما أفرزت رواية شريف سيف؟ أم يكون البائِع هو نفسه الخاطي؟ أو الخرَّاص؟ الدلائل تشير إلى سلامة، ضاحي بالسجن؟ هل يُرمى بأن يكون هو المخطط والمنفِّذون بالخارج؟! بالتأكيد مُستحيل؛ ضاحي شخصيته لا توحي كمُخطِّط، ولكن هل يوجد ملامح رسمية للمُخطِّط؟ الجيَّار والنحَّاس لن يسمحا برأس ترقى لهيبة التجار دون رادع.

كلام شريف سيف خاطئ، لا يمكن أن يكون هناك ما يُسمى بالبائِع، تلك هي عين الخرافات، هي كلها من تدابير التجار التي ستنكشِف قريبًا، لا بد من استبعاد شريف سيف من دائرة ذوات الثِّقة من الآن؛ القضايا حساسة لن يحلها سوى عين المباحِث، ربما يكون الصحفي الهُمام يضلل المباحث، لا يجوز أبدًا الأخذ بكلام الصحافة، رغم خبرته العاتية، وكلام رجال المباحث عنه أنَّه عاشر الحوادث مثل عمره، أما بالنسبة لجريمة القتل الأخيرة شادية؛ فهي جريمة قتل طبيعية مُتضحة الملامح، لا يجوز أن

يكون دبَّر لها سوى صاحبتها، تُرى هل ستهفو الجرائم في دائرة القسم مرةً أخرى كلهبٍ مشتعلٍ؟ أم تنطفئ وتسقط بقتيلٍ آخر؟ إن حدثت جريمة أخرى حتمًا سيكون هناك بائِع.

(٩٧)

لا السهم إذا انطلق له من عودة! ولا السيل إذا انهمر له من رادع! الرصاصة لا تعود إلَّا بروح، كما الحياة لا فرار منها سوى الموت المؤجل أو الانتحار المُحرم، ولكن هل الموت رحمةٌ دائمًا؟ هل الفرار حلٌّ! هل السهم يعود! هل السيل يتوقَّف! هل الرصاصة لا تميت؟ ربما هي الأسئلة التي أجاب عنها عز .. عز الدين الخيَّاش، قاتل النِسمة، وسارق النعمة، صاحب السطو على الأرواح البريئة، انقضت الجرائم ترتع برأسه كصداعٍ أزلي لا حل له، لا أمل في التخلُّص منه؛ هو المُنفذ، هو الروح الآثمة، هو السبيل لنهايةٍ ومفترقٍ لا بد منه، الأمر إذا بُعث إليه لا نجاة إلَّا إذا قدَّر الله، الماضي المميت يغدو رواحًا على عينيه كلَّما زار عمله الدامي، لا سبيل في شفائه طالما يرى في أبنائه ما ينقصهم، فهل لكل نقصٍ مُمتلأ؟ زارته المسرَّات كما طعنته الأوجاع، تبيَّن له الخوف من مستقبله كما تبين له نسيان ماضيه تمامًا رغم قسوته الطاغية، لا شيء يرتسم على وجهه سوى البراءة الوفيرة، لضم شقوق ضميره بإبرة العيش؛ فجرحت صدغه وانغرز الماضي بالخطأ فوخز عُمقه، تماسَك جُرحه جرَّاء لضمه؛ تعايش هكذا،

كلَّما يزداد جُرحه يجد في ضمّه الدواء، ورغم عيشه وعمله يزداد استياءً. في انقضاء النهار لهما راحة، وفي بروز الليل نعمة؛ فالعتمة ستر تظلل فضائحهم، واللقاء مُشجِّع ولو ساورهم جيش القلق بعتاده وأسلحة الخوف الفاسِدة.

- هات حضن يالا، واحشني يا عاطف (ضمّه على مقربةٍ وتوقَّف قائلًا) عِرقك ونّاس.

- عامل إيه يا عز، أوعاك تكون خيّشت، مع إن نشانك قنَّاصة، وكِتفك حمَّال.

ربَّت على كتفه مُستدعيًا الصداقة الواجبة:

- لسّاني عفي ولسّاك ميَّاس، اقعد كلمني عن حالك.

- الحمد لله يا عز ماشية، المهم إنت .. إزي ولادك والشغل.

- ولادي بخير، الشغل بينغز في قلبي، لا أنا متحمّله ولا هو متحمّلني.

- وشوش السكات، صبرك يحلي العيشة، مسيرها تتعدّل.

- خوفي بيكبر على العيال، مش هكمل حياتي كِده، والعيشة صعبة.

- يا عيون سهرانة سهرانة سهر، يا قلوب تعبانة تعبانة سفر .. مش عز اللي بيتكلم.

- دماغ تعبانة يا ميَّاس، تقول إيه! هو عز مِش بني آدم؟ عايز يعيش عادي، زي الناس، الطبيعي بالنسبالي حلم، نفسي أبقى زي اللي ماشيين، مش خايفين.

- اللي ماشيين خايفين أكتر منك، من بكره إنت لا، وبعدين إنت اللي رميتني في عبّ الحوش ودوقت فلوسه، عايزنا نرجع للرضا، إصبرلها ونرجع زي ما طلعنا سوا، وهطلعك تعمل عمرة على حسابي .. هاها.

- هاهاها، عِرقك وناس يا ميَّاس، لما نشوف آخرتها.

(٩٨)

قبل أيامٍ مُقدَّرة، استلم الحجاب الجديد برسالةٍ أخرى بعثها إليه تصديرة عن بعد، ولكن تلك المرة بلا وريقة فقط الحجاب داخله ورقتان إحداهما من فئة عشرة جنيهاتٍ تحمل دون كتابة كل شيء -مكان إلقاء الشفرة- عند الصورة البارزة على العملة؛ مسجد الرفاعي، في الساعة المُقدرة طبقًا للورقة، العاشرة مساءً، على وجه العملة الورقية وعلى يسار الأخرى من فئة الخمسة جنيهاتٍ نُقشت عن بروز ثلاثة أحرف -ق ت ل- جوار السورة الناطِقة بالمسجد الطولوني، مكان استلام المبلغ بعد وصول الشفرة، والساعة بالتأكيد طبقًا للعُملة الساعة الخامسة صباحًا، تلك تعليمات البائع الماهر، مَن علَّمهم طرق ازدواجية الأساليب لعدم التتبع، فرقة التخفي الواعدة تنوح بالنجاح، لم يخفِ ضحكة

الأستاذ، ولم يفح وجهه سوى بالانبهار، ثم أباح عن عِلمٍ على رأي المثل "كدب مساوي ولا صدق منعكش"، لم يقصد مثله إلّا بالجريمة المُنظمة، لم يعبأ بالظلام ولا بأحقية القمر في الانفراد بالأرض الحُبلى في أوقات الخُلوة، فتجهم وتجهَّز للولوج لقبوه، وعمِل بعمل السحرة؛ بعث إليه تصديره بما يلي: "ق ت ل، م و ت"، الشفرة التي تعلموها هاهم يطبقون عليها بسلاسة، يحمل تصديرة الهدية من الجاني ويفنِّد حقيقتها ويلقيها في صندوق النذور على هيئة شفرة واجبة الفِهم لأفراد المائدة فقط، مُترجمة بلغة الجريمة، كما نقّح أبو صيرة مُعجمها، ووضع بذاته حجر الأساس، أدخل على اللغة مفرداتٍ عِدة لم تنس له البشرية تلك المُعجِزة كما قال، ترقَّى تصديرة من وظيفته الأولى "مِن – إلى"، الآن أصبح مُترجمًا فصيحًا للغةٍ لا أحد يعلم عنها بدقةٍ مُلغزة بدأ يجمع الحروف، ويسنُّ المعاني بدهاءٍ، فكانت "قتل – طلب جريمة قتل، والفاصلة بمعنى بدون، موت – إعدام"؛ فجاء المعنى بالتدبُّر ورافقته الخبايا الحاضنة، الجاني يريد تنفيذ الجريمة دون الاستعانة بدليفري، لا مانع من السجن دون موت؛ فدبَّر له المصيدة، بعد أن نسج الشباك كمُمتهِنٍ، وأدرك الغيب في حدوثه ككاهِنٍ، قرأ الطالع واستفذه الإدراك، رسَم له تلك الخِطة المُحكمة، ورمى عليها الألغاز فصار لونها باهتًا، وفِهمها غائبًا ومعناها لأصحاب المائِدة ساطِعًا.

بترجمة نص الورقة التي بعثها البائع للمردة، فهموها من الوهلة الأولى دون إعادة، انجابت خطاهم تدهسها قبل أن تبرز عيناهم

عن حقيقةٍ صارت حُطامًا بعد أن مزقوها إلى ستين قِطعةً، فكانت الكلمات المُبهمة توحي بالتالي: ترجمة المُعجم الصافِرة: الرصاصة، الطفل: القتيل، صاعِدًا: قتيلًا.

أتته الخِطة من نسيج الماضي حينما استمع لمرافعة حوَت دفع السببية، "الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، وتأكَّد الأصل العام في المتهم وهو البراءة"، تذكَّر أبو صيرة تلك المرافعة جيدًا؛ إذا أنَّه لم ينم يومها تفقد التفنيدة وتشبث بمحاضرها، إلى أن جاء موعد خروجها للنور، قتل دون قصدٍ خاص، ثم يتدخل عنصرٌ آخر يكُون هو سبب القتل وليس الأول ما يُعرف بالسببية، الجاني سيقتل دون إحداث ضررٍ للمجني عليه، ما يجعله يفِر فِرارًا من مكان الواقعة، ومن ثَمَّ يأتي سائقٌ مُتهور يفضَّل أن يكون شابًا طائشًا، يضرب المصاب بالطلق النارى فيرديه قتيلًا، يذهب السائق بعربته ذات الأرقام المطموسة، ويعترف الجاني أنَّه ضربه بالرصاصة وما كان يريد قتله لعبة غير معهودة الصُّنع.

لم يفلِت الجاني بل وأرشد على السلاح المُستخدم؛ ما جعل أقاربه في أدغال الصعيد يقيمون الولائم على روح القتيل، أما صاحب الثأر، فلينعم بالسجن إن قُدِّر له. قُيِّد الجاني واقتادوه حيث كان، حوصر بالتهم ما جعله يعترف بلا رجعةٍ أنَّه ما أراد قتله أراد فقط إرهابه، خرجت تلك الرصاصة بالخطأ، ما جعله يفزع لها فارتطم وجوده بالسيارة المسرعة.

عشرة أعوامٍ كان حُكمُه؛ ما جعله في وفرة سعادته على غير عادة الجُناة، ظل مُغتبطًا إلى أن غادر المحكمة وعقله يناطح ورقة الشفرة العظيمة، تلك التي كُتب في نهايتها "السفر هيطول بس مش هيدوم"، صدق الكاهن رغم كذبه بعلم الغيب، لم يقرأ الطالع كما تصوَّر ولكنها قراءات القانون التي لم تنضج بعد.

(٩٩)

لم يعلم الخاطي بدهائه ووفرة اختفائه وفرط حذره أنَّه تم الإمساك به بفعل خطواته، القدم الزاحفة تلك التي لم تخفِ آثارًا بليغة، جعلت من وطأة مشيته ماركة مُسجلة غفلها الجميع، لم تمُر بسهوله أمام عيني مصطفى الدَّكر، مدى تقعُّر حذائه أمام البيت المسكون جرَّاء مراقبة وتصنت قارب توقيتًا فارقًا، كما جاء ذلك بتقرير المعمَل الجنائي، أشار إليه بسهولةٍ وعلى التوقيت ببراعةٍ، ما يقارب من نصف ساعة تقريبًا لا أقل ولا أعمق، ما جعل الشك يطفئ لهيب الصدور، هو التحام هؤلاء بتلك الثكنة الفارغة والمُضي قُدمًا بلا خروج تهاوى، فقط تساقط الأرواح التي بعثرت الهواء في الخارج، شقّ على القوات المُنتظرة على أهُبتها الصمود طويلًا، دخلوا على تراخٍ لئِلا يثخنوهم بقوة؛ فالأسرار تنطفئ حين الولوج إليها والإسراع يخفيها، فلملموا الشمل وتبطأت الخُطى عسى أن يفلح رجاؤهم ويحنث، كبَّلوا الأيادي بالقيود ووثَّقت الأنفس المُخبتة، وازدحمت في الممرات السوداء الأسئلة، وجرى

البحث المنشود عن التجار المختفون، لم يجدِ البحث ساعات؛ فالقبو أبدع المصريون في نحته كي يتصوَّر الرائي أنَّها قطعةٌ من الحائط ليس إلَّا، القبو محشو بالآثار الإسلامية الفخيمة والعبق الفاخر يمتد من أسفل منزل عبد النبي السعدني بالقلعة إلى الفسطاط؛ العاصمة الإسلامية الأولى تلك التي أُحرقت عام ١١٦٨م في نهاية الخلافة الفاطمية، ظلت النار مُشتعلة بها ما يقرب من ٥٤ يومًا، وكان الدخان يُرى على مسيرة ثلاثة أيامٍ، ما طهَّر العاصمة الأولى من تاريخها وآثارها الدرية، إلَّا من مسجد عمرو والآثار المُخبأة في القبو ذاته.

لم يُخلِّف البحث ثلاثة أيام عن أية دلائل سوى جثة الخرَّاص والمتهمون في قتله، ما زحزح الخاطي تجاه السجن وضعفه في الدفاع عن نفسه لئلا يُتضح ما يخبئه القبو من مفاجآتٍ سارة، وبالطبع يحتفظ سلامة بتذكرة وروده على المشنقة بسلاسةٍ، لن يتهمه سهوًا أو صدفةً، كلٌّ يترقَّب للآخر وينتظر فرصته، شاءت تقلبات الزمن بمُقابلة ضاحي النمر، والاعتراف الذي يتمثل له في الخاطي قد وصل في ميعادٍ مُقدِّر، قبل أن ييأس اللسان دامِ الذكر -على الفرج- دون المسبحة اليُسر المُثقلة المفقودة مع حاملها؛ النردى الذى أشار لضاحى على العيرة بكلِمه، لم يدرِكها ضاحى وقتها، أثناء زيارة الأول ..المرة الأولى والأخيرة.

دوَّن جدار السجن الحديدي أسرارهم وضمَّ اعترافاتٍ قد عذَّبها السوط الأسمر، استقر الطريقان إلى حارةٍ مُضيئة ليست ممهدةً،

تلاقت الخيوط معًا في الانتقام؛ فهذا سجنه سلامة وهذا افترى عليه زورًا، ما شدَّ وثاق العزم على تحديد خطة للثأر بدهـاء.

(١٠٠)

التسويق ما يميزه في مجال الجريمة لا مكان للهُواة، الاحتراف طبيعة جعل من التصنيف أساسًا لقبول الطلب، تمرَّد على الجميع ازداد فُحشه، ذهب فايز السعدني إلى رحمة الله، وتملَّك من جسده البائع، أبو صيرة غريب الأطوار، ذو ضحكةٍ مُفرغةٍ من الشعور، ازدادت نظراته الطفولية في الانطفاء، وتوهَّجت نظرة العبث في مقلتيه، زفرت الظلام ما جعلها تتشح بالسواد المظلل؛ فنفض ما تبقى منه سالفًا وصعد لمرتبة ما كان لمثله أن يرتقيها، تجهَّز للقادم ربما فيه البدايه .. أو النهاية.

جلس وكأنَّه الحاكم على قهوته المعتادة:

- لو بيعت لكل الناس، مش هبيع لحد، أنا ليا أساس، أنا عارف اللي عايزيني، واللي عايزني عارف هو عايز إيه؟ مش هيلاقي مُنافسين، أنا مليش زي، أنا ملك الشغلانة دي، من صُنعي، ومعايا ختم الجودة.

تملَّك تصديرة الغضب فلطم جبينه:

- أيوه بس دول حلوين علينا أوي، يخلونا نركن وقت، ونتدارى.

لم يتمالك نفسه عن سقوط رأسه:

- هاهاهاها، نتدارى! إحنا عملنا إيه؟ وبعدين إيه اللي حلوين، في بداية أي مشروع أوعى تبص للفلوس، إنت بتكسب زبون، وبعدين فيه أصول للتسويق لسه هنشتغل عليها الفترة الجاية.

تمادى فمه في الشروق ولسانه في الخروج:

- زبون إيه؟ هو حد بيفضل! وبعدين إيه السويق ده؟

تريث بسردٍ بليغٍ:

- لازم تعرِض للعميل خِدمتك، تعرَّفه بيها الأول وبعدين ترميها قدامه أكثر من مرة، لحد ما عينه تتعود عليها، أعرَّفه إني بنافس نفسي، مفيش حد قصادي، ومفيش حد زيي يقدر يقوم بالخدمة، وبعدين أستنى أشوف ردة فعله في اللي أنا راسمه، ساعِتها يجري عليا وبعديها رجله تجيب رجل اللي جنبه، بس أنا عندي أوبشن زيادة، شركات كبيرة كتير بتنساها، لازم تسأل العميل بعد ما تبيعله عن مستوى الخِدمة؟ وده لأننا بنسعى نعمل زبون مُستديم حتى لو كانت نهايته، هيشد اللي جنبه وبعدين معروفة .. مش عايزة شرح "سوَّق صح لم الطرح تعمل صرح .. بيع للكل هتسرح بفل".

توهَّج وجه تصديرة بذهولٍ حادٍّ:

- يخربيت دماغ أبوك الألماظ، ده إنت مفيش منك، بس هتعمل ده كله فين وشغلنا كله في عِبنا.

تحدَّث عن عِلمٍ وتخطيطٍ:

- لسه اللي جاي، مفيش بعد كده مانيوال تاني، التطوير لازم يدخل المِهنة اللي جاي ديجيتال.

نفَّض تصديرة عن وجهه غبار النسيان:

- وتفتكر هنفضل في الخِفاء، وندارى، أنا قلقان يأبو صيرة، مبقتش مآمن، قلبي بيرجف، رغم كل الاحتياطات والتغيير.

- متقلقش قولتلك، اللي جاي تغيير شامل، وتوّسع وزهزهة، آخر عملية اللي جاية وبعدها نبدأ الشغل.

- اللي تشوفه يا أبو صيرة، كمّل شايّك خليّنا نفِر، إيه ده، الواد سيد فيش داخل علينا، إنساه وطرّيله، خلينا نقوم، إزيك يا فيش، كده سؤالك مفيش؟

- إنت بتختفي دلوقتي يا تصديرة محدش بيعرفلك كومة (ينظر برتابةٍ لأبي صيرة) إزيك يا باشوية، مش ناوي تقدّرنا وتحتاجنا؟

- ربنا يبعِدنا عنك يا عم فيش وما يحوجنا نطلع أوراق أبدًا، حاكم التكنولوجيا غرقت شُغلنتك، و موتك هيبقى من وسع.

- مين قالك كِده يا باشا، ما التكنولوجيا سرحت من بدري، وشغلي بيزيد ما بيقلِش، محسوبك عنيد، ومتابع، والجديد كله عندي .. بكره تحتاجني.

غادر تصديرة جاذبًا صاحبه من كُمه، صاعِدًا إلى صحبته مغلقًا ستائرهما عن فيش ومَن حوله بغموض.

(١٠١)

في يومٍ سئمت سمائه من الغروب، طال النهار دون داعٍ، غادر حزينًا رغم رغبته في المكوث. في وفرة من النور تتضح الأمور تهفو الصدور؛ فتعلو وتسقط، إلى أن تنهال الأذيال سرمديةً حانِقةً، فتغرق ما طاف نهارًا، وتمَحق الخواطر المُستقبلية الحالمة. في عمق الظلام صمت الكلام، الرسم أفضل وسط النِيام، والعزف أجمل دون زحام، والرقص يبدأ بقطع اللجِام. استند على شاطئ الصمت وتباريح الليل الوهيبة، تمادى في الخفوت والثبوت كشعلةٍ ينفخ فيها الهواء فتبتعد، ثم تعود وتتشبث بجذرها الشرياني بعِندٍ، ولكن تلك المرة لا يعلم لِما تفاقم يأسه، بعدما أعد للتغيير فُرضت عليه تلك الخطوة، رغم رفضها عديد المرات، تلك القضية المؤجلة أكثر من مرة ماله أن يرفضها الآن.

خطا الجاني خطوته الأولى كشبح الموت الغادر، اقترب من الطريق قليلًا، هناك في السيارة الأجرة يسكن في الكُرسي الأخير جوار شباك السيارة هدفًا ثقيلًا، اقتربت السيارة – (ذ ب ح / ١ ٣ ٤) – من الجاني والهدف يتحدَّث هاتفيًا مُطرقًا، اقتربت السيارة أكثر فتنهَّدت وتبطئ مُحركها، لم يفكِّر حينما اقترب الجاني .. دون وعي، زاد في الاقتراب، تمادى، بلغ جسدها، تحرَّكت مُسرعةً بعد اخضرار الإشارة، سحب الجاني الهاتف من يد الهدف وكأنَّه سحب روحه؛ صرخ الهدف من عمقه، نفض الجاني من يديه خوفه، سار الجاني بحذرٍ وسط تبديلات الإشارة، مضى مُتلمسًا طريقه،

مُتلفحًا بعيون العامة، الجريمة طبيعية؛ سرقة ساورها تغفيل الطرف الأول للثاني، ولكن في الجرائم المُدبرة لا وجود لما يُسمى صدفة.

من إنجازات البائع التغيير؛ تلك الشرارة التي تُعدد الخيوط تضرب الثوابت، فكان لزامًا عليه التفعيل بعد أن وجبت عليه الوظيفة، دبَّرها كما هي، ستذهب الخِطة هاتفيًا، بعد مكالمة الجاني لخطٍ مسروق آخر يأمره المُدبِّر بتنفيذ المطلوب بالوقت المحدد، مكالمة الجاني الأخيرة هي التي ستسير خلفها الخيوط، ولكن الجريمة تُحاك في شاطئ آخر الذبح هو الطلب، نكِر البائع الطلب عند تدبُّره ولكن إنَّه الموت إن تعددت الطُّرق؛ طُلب منه ذبح عنتر السيخ، نبَّاش القبور، ذلك النبَّاش الذي يسرق الجثامين بعد دفنها بدقائق بمدافن الإمام، أو يسرق أجزاءها كما يُراق له، سبب القتل المُعلن: انتقامًا لما يفعله، السبب الخفي: سرقة أعضائه.

الهاتف المسروق: هو الخِطة، رقم السيارة: الموعِد، حروفها: الأمر، جريمة معتادة، أعدَّها بإهمالٍ لم يتريث كعادته، أغفل فقرات الرسم المهمة؛ فما كان منه إلَّا الأمر بالتنفيذ، الخِطة الكاذبة الموضحة من الهاتف العابرة لآذانٍ صاغية بعنايةٍ هي تصفية الهدف؛ سيهرول الجميع خلف معلومات الهاتف المُخجِلة، أمَّا الأصل هنا ذبح الجاني.

الجاني هو سليم الهلالي عشيق زوجة رجلٍ ذي وزنٍ وهيبةٍ، حدَّث الأخير البائع بوسيطٍ كي يبتاع منه جريمةً في المُجمل تبتعد

تمام البعد عن الأساس؛ فوجب التحضير، وصلت الرسائل تِباعًا إلى الهلالي باقتراب أجله، نفذت ذرات صبره القصيرة ولفظ أنفاس صمته، ما سبَّب له هياجًا لا حل له؛ وهو السبب الأدعى لشراء الأخير جريمة منه لقتل الزوج والزوجة محل الصراع، ترفَّق البائع كي يستميل التعاطف، أغراه الجاني بالمال؛ فضعف بطبعه وباع له جريمة قتل الرجل وامرأته، والتنفيذ في الوقت المحدد على اللوحات، الصدفة ستجعل الرجل وامرأته في زيارةٍ لأضرحةٍ للتبرُّك، فيقترب الجاني وينزع عنهما الحياة .. تلك الخطة المُباعة.

الحقيقة، أنَّه هو الهدف السامي الذاهب بقدميه يجتر نهايته بسهولهٍ، أمَّا نبَّاش القبور المذكور ما هو إلَّا الرجل الذي سيشتري أعضاءه بعد قتله من قِبل الزوجين وحارسهما، ستذهب الشرطة للسعى خلف النبَّاش أملًا فى قضية البائع، في حين أن يكون الجاني قد بيعت أعضاؤه قبل الموعد المُحدد له بثلاث ساعات، سيذهب الجاني في تمام ١:٤٣ أمَّا الموعد المذكور في الهاتف ٤:٣١، يصل مصطفى بيه في سعي دؤوب خلف النباش، يتم القبض عليه تحقيقًا فيما نُسب إليه من بيع الأعضاء وللأسف لم يُستدل على أي معلوماتٍ منه أو عليه؛ فالمجني عليهم بلا أرواح تتحدَّث وتدلي بما حدث.

الأمر برُمته يبعث الشك؛ تم القبض على النبَّاش، وبعد استجوابه أقرَّ بما يرضي طمعه، اعترف على كل شيءٍ مما سهَّل القبض على الرجل وزوجته، اعترفا دون جدالٍ بعد اختلاق الزيف، استند الزوج على علاقاتٍ ستفتت المحضر والاعتراف، ولكن ما

لم يشوبه الاختلاق ولا الزيف .. شراء الجريمة؛ ما جعل من الضابط يكمل بناء استلهامه من استماعه للحروف، استدعى شريف سيف أمام عينيه، زفرت منه ابتسامةٌ ذات معنى، تم إعمال الوصف في البحث الآن امتد البحث إلى دلائل ملموسة لا سراب يخرقه ولا استنتاج يؤذيه.

(١٠٢)

ضرب المنضدة الخرساء بقوةٍ كادت تطيح حنجرته على إثر ارتداد صوته في حلقه، أغلقت عيناه وازدادت حركتها العصبية اللا إرادية، حرَّك الندم أحشاءه بعُمقٍ، زاد الأسى على روحه وكاد يرديه جثةً، بالطبع الحزن الشديد يُميت القلب، تمامًا مثل اليأس والاكتئاب الحاد ذلك الذي حاصره في أيامه من يوم مولده، البائع كُشف، وشفت معه كل الجرائم، ما كان له أن يُضعف الحبكة، لا بد من تماسك القالب لإنجاحه، اعترف عليه النبَّاش الخسيس كان يلزم قتله، الحياة خسارة له لا بد من بيع جريمةٍ مجانية له الآن، يرحل على إثرها وترحل راحلته إلى الأبد، لم يكُن يتوقع قُرب التدهور، الآن أصبح السقوط وشيكًا للغاية كمنزل والده؛ تهاوى كُرسيه واستلزم التماسك عُمرًا، لم يخطر بباله أو توقَّع الغدر، كتخبطات المسِّ، صُرع، مزَّق كل ورقةٍ يربطها صلةٌ من بعيدٍ له، نحى كتاباته خطاباته، نحى كُتب الجنايات بقوانينها واستدرك العقوبة داخله، استعاذ وهرع للخارج ذاب وسط الظلام كجنيٍ،

مع إقبال القهوة على حركة ساقيه التي حرَّكته إليها، بعثر النظرات على الوشوش المكلومة ما وجد شيئًا يحرِّك خوفه، الأمور تسري كما يجري، رُتبت أفكاره التي ما زالت متشبثةً بقاعدتها، نظر على كُرسيه ما وجد سوى الشريك الخفي؛ تصديرة كان جالسًا يقرص النرد وتجلجل الضحكات من فمه كما المولود، رده البائع بزجرةٍ من عينه اليُمنى، اقترب على إثرها إليه، جذب كُرسيًّا وجلب أسئلته، لم يكد يبدأ حديثه ناوله تصديرة سيجارةً مُطعمة وصدَّ صدره ورحل قبل بدء الحديث، لم يكد يخرج أبو صيرة من القهوة ويسير عائدًا لقبوه، ما لبث أن خرق الظلام كشبحٍ رنَّ هاتفه باهتزازٍ، فتح الخط دون أن يتفوه.

- بياع، في عيون بتعاكسك، قولت أكلكسلك، يمكن تنادي، إلعب السهل، الكبارية عمران والرقص طول، اقعد ريح وارقص سلو على أنغام الريشة.

بالغ المُتحدث في الوصف، حرَّك جسده مع كلمته السابقة وهو يطيح بيديه في الهواء الطلق، وأكمل:

- طقطق واتدارى، متعملش بطل، مفيش منك بطل، أولها مفتون وآخرها مدفون، ظبط أحوالك، سلك وإتسلك .. عبي شوالك، طُل على إخواتك، روح اعمل عمرة على حسابي قبل القمر ما يفِر.

ارتعد جسده قبل أن يغلق الهاتف ويذوب في الغموض، تجاوب مع الخوف تعرَّق بكثافةٍ، حشرجت مخارجه كمختطفٍ قذف به المجون إلى الأراضين السُّفلى، وضعت الجمرة على حلقه، ركَم

الشوك حلقه، تحسس ندبته علامته النهائية تلك التي ظنَّ فيها الإعدام، هي التي ستوقع به ولن ينفلت منه سواها؛ ابتلعه الجنون كوَّمته سعفة الرهبة جوار جدار قبوه، أثنى على الأمل داخله، ما زال ينبض رغم اقتراب النهاية، هل سيُقبض عليه؟ سيعترف! الاعتراف سيد الأدلة، والإنكار عين التعقُّل، سيمضي نحو بوابةٍ داخلها مهجور وخارجها العته والمُنغصات، سيمضي نحو موتٍ ربما فيه راحة، سيمضي نحو قدرة ومشيئة لا مُنقذ سواها، سيمضي تجاه الجاه، سيمضي نحو مغفرةٍ .. رحمة، سيمضي نحو راحةٍ أبدية لا بعدها خوف .. جبن، أو مشقة، سيمضي نحو حياة تلك التي افتقدها بحياته، سيتجه تجاه المِنصة بحُريةٍ سيسير مُسرعًا، سيزأر كالقسورة، سيمدح الموت، ويُفتن به كما فُتن الدهماء بالحياة.

التقم غمه وغممُه، وسار بين الهمس مُرتحلًا، مرَّت أيامٌ على بقائه في القبو هائمًا، فلا زاده الوقت ضيقًا أو همَّ، عمره في السير خطوة، اندفع تجاه كوكبه المُعتم، لم يجِد سوى البيع، صنع أبليكيشن بدائي، بعد اجتياز خطا تكوينه راسل العديد حتى استقر على طلبه، بدأ العمل بعد استقرارٍ مُنتفخٍ في الأجواء، خلا بنفسه في كوكبه وسار على رطبٍ من التربة الساخنة، عوَّد نفسه كما اعتاد على الدفن حيًّا دون هواءٍ ينبسط حوله، لوَّح له الأبليكيشن ببارقةٍ، بدأت الخبايا تنضح بالأسرار المُفزعة، الكل يلهث بحثًا عن حلولٍ لتفاهاتٍ تؤرقهم، ركب الكِبر ظهورهم، استلقى وزحفت قدماه على الصدور بقِحة، غرَّ هؤلاء الحياة حتى استوطنت قلوبهم فيها، ما

زفرت الحناجر هواءً غير هواء الفناء، استدام العيش يملؤهم ولو تفنى الطبيعة، راسله من الأعمار جميعها من الأثرياء أفقرهم، ومن الفقراء أحقرهم، من الأشقياء أسعدهم، ومن السُعداء أسوأهم، ضم الجميع ذلك المسلك السري؛ كل هؤلاء يجدون حلَ مشاكلهم بالجريمة، اعتلى صدره سؤالٌ برق عن توهُّجٍ وإيثارٍ أهو الضحية أم هؤلاء؟!

(١٠٣)

ميَّز حلقة القضايا الضائعة، بعثرة الدلائل، تِعداد الأساليب، تفرُّد الأنواع، ما يصِّعب الوصول للجاني إن كان واحدًا لا أكثر، فكَّر الآن بطرقٍ لن تخطر بباله كتفكيرٍ استباقي، رسم بحذرٍ، أعاد بمللٍ، أسهب بتفشٍّ، تماثل بمَكرٍ ما كان يقرُبه، استفحل بقسوةٍ، لم يغفل ثلاثة أيـامٍ حتى أمسك بخيطٍ رفيعٍ، تجسَّد له كحُلمٍ نوراني لم يشع إلَّا له، لم يضئ شيئًا سوى قلبه، جُرم شادية في قتل الزوج، لم تنكشف إلَّا بمحاولة قتل الزوجة، قتل الزوج مرَّ ولولا الشروع في الجريمة الأخرى ما كانت تنفضح، هناك طرفٌ خفيٌّ جنَّدته لمراقبة أو لتنفيذ، وقضية السيارة المدبَّرة، قضية تجار القلعة، سجن ضاحي المعروف عنه أنَّه يختلف عنهم، يكره سلامة ويكرهه التجار لزهده، هناك حلقة تائهة، كلام شريف سيف صحيح لا يقبل الشك؛ لا بد أنَّ هناك طرفًا خفيًّا، يسير الجاني على خطا تخطيطه، ينبح بعيدًا عن مَن أطعمه، الطرف الخفي هو الحل –

السحري والأسهل والأغرب – لفك طلاسم الجرائم، من غير المعقول أن ينتبه الجناة أثناء التنفيذ لكل تلك اللمسَات الصغيرة التي لولاها كادت لتوقِعهم ببلاهة.

فى سيل من الأفكار المُتدفقة، وفي بحث مُضنى عن المنتفي والمثبت، دخل عليه فزعًا كمَن مسَّ كهرباء حيَّة معاونه، ذعر من ثقل صفعة الباب في وجهه، ارتطم الصمت حتى بلغ مركزه، شق صوته فج الركود وصاح بعلو، انتبه لما فعله المعاون استدرك متأخرًا؛ مدَّ إليه راحة يده في ابتسامةٍ خليقة، استلم مُصطفى بيه منه الحِرز، تعجَّب بوفرة، أفَل وجهه وقطب جبينه، أفرغ ما يحويه على مكتبه بخِفةٍ؛ انتشرت العُملات فئة خمسة وعشرة جنيهات كالإبريق المسكوب، تفحَّصها أمام عينيه بدقةٍ فاترةٍ، هناك في باطن العملة فئة الخمسة جنيهات مرسوم بخطٍ بالغ الحِدة خفيف الملامح "هـ ج ر"؛ ابتسم في عزةٍ، الآن اكتملت الحلقة، نفرت الخيوط وشُدَّت الأوثق حتى قاربت التمزق، ضحك ملء شدقيه، برع في النظر إلى العملة من علو، حرَّك قدميه حول المكتب، ينظر لها وكأنَّها حُلمه المُنذر وسبيله إلى الوجود .. على أمل.

تأكَّد الآن فقط أنَّ العملة هي مكان ورمز، عزم على استرداد الوعي المُنفلت، على استكمال تعزيز الصورة، فطن للمخبأ استجمع شظايا القضايا المُعلَّقة، ركّب التحريات على المنطق رصَّها جوار الاستبيان المَرئي المَنطوق، عرَّى الأسئلة حتى مالَت برقتها الولِعة، جذَب الهواء من خياشيمه، أعاد المياه لفمه، قضَم

مع الأفكار أظافِره المسنونة، هام كالحالم، فرَّ من عُمقه إلى أبعد الاحتمالات، ثقُلت بداخله زحام الأفكار، تشتت الأركان، عمد إلى مكتبه، جذب ورقةً ودسَّ فيها القلم الأفعواني، رسم هيكل جريمة، بث فيها رحيقه، خطط وكأنَّه البائع المُحقِّق؛ بدأ كبدائي، عانق الجنون، تمثَّل له الشر كساقطةٍ، رمقها من بطن شارعٍ مُظلم في ليلٍ عنيدٍ؛ تمنَّعت على الأجر، تميَّعت؛ زاد الشبق، غزاه الفضول، رفع الحيطة بعد الأجر، تساقطت كورقة شجرٍ عاشت ألفي عامٍ، لجأت إليه أودعها جوفه، لطَمَها بصيحةٍ، استسلمت بخوفٍ، زأر كفارس، نجحت مهمته في نسج الشباك؛ التقمها كحوتٍ أزرق مخيف، كلبشت الفكرة على عقله وصَل إلى نهاية الجريمة، استلم عَرقه، سحبها ببرودٍ، أودعها سجنه، سحلها بدفءٍ تركها ثكلى، عاد إلى مكمنه بلا ظل شبحٍ، دار في روليت الحياة دورةً كاملةً، ثم بدأ نشاطه في الخفوت ومن ثَمَّ عاد لنقطة الانطلاق.

هكذا رسم مصطفى الذَّكر شهادة ميلاد البائع، وصل لمَّا لم تصل إليه التحريات وهو جليس الفكرة، رسم جرائمه المُعلقة من نسج البائع، خرَّ كالشيطان المُنهك، لفَّ عديد الجُناة ثم دثَّرهم بالتبغ ونفثهم في الفراغ هكذا كما يفعل أبو صيرة، استدرك التأخر في خطواته اليائسة، لم تكن الصورة تشبثت بقاعدة رأسه، فأعادها حتى تملَّكت صدغه، إفراغ كاميرات مراقبة الأماكن المحيطة هو عمل الليل والنهار، جلبها على ولع، شاهدها كمباراةٍ الفوز فيها مُحقق، ميَّز الوجوه، الحلقة اقتربت في الالتحام بشراهةٍ، تقترب فتتسع ثم تقترب، على إثر بحثه تفوح الروائح الخبيثة، على مرمى

بصره تتأكَّد الشكوك بدفع مَلملة جسد الجريمة، نهش وجهه في حركة الشخص المريب حول المسجد الطولوني ومن ثَمَّ المسجد السلطاني ذهابًا وإيابًا على يومين مختلفين، ثم استدراج الخبايا بالمُراقبة المبذولة، اتشحت الشخوص بالتخفي والعلامات شابها التضليل، فرَّ من جسده قرينه، يؤجج فضوله، هو ذات الشخص الذي يتحرَّك في الأوقات المُصمتة، صلاة الفجر تدعو للحياة لا للموت، يتزايد المريدون يوميًا على ركعتي خيرٍ من عناء الدنيا وملذاتها الكاذبة، التضليل يتسع بالحياة، الشيطان يضلل، الجنّى يضلل، الإنسي يضلل، المحامي يُشكك، المباحث تفرغ، النيابة تحقق، القاضي يُصدر، المُتهم يُسجن، ثم يخرج فيُضلل، والبشر أجمع يؤطرون برواز التضليل في خيالهم، فلا عجب الآن ممَّا حدث، لا تخفى بها الصدور ولا تبُوح بها الأعين.

في تماويج الليل الباطشة، تنسكب على الرؤيا الغشاوة، وترتد الظلمة في النفوس بيأسٍ، واليأس أدعى للابتعاد والراحة والسكون، تنغمس في الحياة الطمأنينة بثقلها القويم، فلا مُبتعث في النفس سوى الانتظار، والانتظار ثقيلٌ يعبث في أرجاء الجماجم ويشي بنبش ما استفحلت السنون على ردمه بإصرارٍ وكِدٍّ، رغم الراحة والدعة هنالك الأعمال التي تناجي الظلام بظلامٍ، فينفلت الراغبون كثعابين ومَردة، تتأصَّل النفوذ في حضرة الليل وتتيبس أخرى، فلا تزر وازرة وزر أختها، تفيق حدقات وتسقط أخرى، تطول الأذرع وتقصر أخرى، وهكذا تدمي الحياة البرية.

تحرَّك الأول كالفحيح، رابضًا كالجرذ هناك آثمًا، نبش التراب وسار كالجذوة، خبا مُلتفًا بين أظهُر الأحجار، تنقَّل من شاطئٍ إلى آخر بهدوءٍ، لم يساوره الشك مسلكًا، أمَّا الأول يتحيَّن، فلحظات الانقضاض زهيدة، لا بد للخطوة من تدارس؛ فالفرصة إما ضائعة وإما ثمينة، وهكذا تمكَّن أحدهما من الآخر بفِعل الخطوة المُفتعلة المُدهشة، بعد صلاة الفجر وكما رسم خِطته، هبط مصطفى بيه في وحل النيام ، وغرزت ساقاه في العميق، بملابسه الملكية التاجية كما الدهماء، نفَر وجهه بالإشراق وذهب المُشتاق لوجهته، سائرًا بين طعنات الصقيع غير مُبالٍ سوى بالمكسب، في يومِه الأول لم يصِل لما أراد فما زاده الأمر غير تتبيب.

التغيير إذا قطع أواصر العادة يُصيب العقل بالدهشة، مضى بيأسٍ كامنٍ يتربص لفرصةٍ آثمةٍ تخطو كما الصدفة، في اليوم السابع تحرَّك الجرذ دون خوفٍ يكسوه، انزاح بين الطريقين ولم يبتئس، تجسَّد الانتظار كجبلٍ شاهق يجثم على صدر الأول، فما منه إلَّا أن انتظر السكون أن يرقد محله، وتحاشى الفجر أن ينبزغ؛ فخاف الأول من الفرصة ضياعًا فآثر السرعة، اقترب تجاه المسجد الرفاعي متأهبًا على الرحيل، ثم خرج الآخر من تحت الأرض، إستشعره الدّكربفِطنة، لم يفلِته رابِضًا خلفه، لم يتفوه سوى بورقةٍ مدَّها إليه في شيءٍ من الوخزة، امتد بصر الثاني على العملة الورقية من فئة مائة جنيهٍ، والتف بصره والتحم مع المسجد السلطاني القابع أمامه في شموخٍ وعظمةٍ على مر العصور، فيما انداح الدّكر في عالمه قائلًا:

- أخيــرًا.

التف تصديرة على وجهٍ لم يعتد عليه، بعث الوجه في صدره الريبة رغم تلك الابتسامة الفظة؛ فتثاقل مُصطفى الدَّكر في الرد وعاد يلثم حياءه كالطائِع:

- صدرهالهم صح يا تصديرة.

(١٠٤)

لم تحتمل أوقات بسهولةٍ أن يضيِّع أمواله هباءً على المومسات، وهي طريحة الأمل في تذوق حريتها بطلاقِها منه، ولكن تُرى هل ستبيح ترك أمواله بعدما اجتر من عمرها سنوات؟! لن يذهب صمتها أو صبرها سُدى؛ فلعل الاقتراب وشيكًا للغاية. كثيرًا ما طال غيابه واستأثر نفسه عن حبها، أمَّا هي فوجدت طريقها لتواصلها الاجتماعي والتعارف المزيف بين مَن تريده، واختارت لها شريكًا بصفاتٍ معينة، واجتازت معه بوابات الوصول، سأم منها زوجها؛ فأصبح الطلاق ملاذًا حقيقيًا لهما، وحينما استشعرت بقرب الأجل أضمرت الخطوة التي أرادتها لآخر الطريق، فما شعرت بالضياع إلَّا عندما اشترت جريمةً من الأبليكيشن الذي نصحتها بها صديقتها، إنَّه لحل جميع المشاكل على شاكلة مشاكلها مع زوجها، عزمت على الشراء والتنفيذ عن طريق دليفري، أكثر ما طمأنها حملها وأنَّ الثروة ستؤول إليها مهما حدث، سجلت على الأبليكيشن وأرفقت المطلوب كما مُرفق على السيستم.

"عايز أحجز غُرفة فردية في فندق ٥ نجوم، ٣ أيام، السفر يبقى من يوم الأربعاء للجمعة، أي يوم فيهم من الساعة ١٢ مساءً إلى ٤ فجرًا، الدفع هيبقى لثمن التذكرة بالكامل قبل السفر، ممكن يبقى فيه ترانزيت عادي ٥ أيام بس أهم حاجة السفر يبقى خلال أسبوع".

هكذا تحدد ميعاد وتوقيت الجريمة بسهولةٍ، أرسلت له المبلغ عن طريق الأبليكيشن، وتم التخطيط بجديةٍ وإرسال الخِطة للميَّاس مُباشرةً لتنفيذ المراقبة وتحديد يوم التنفيذ مع الخيَّاش.

عند موعد التنفيذ وبعد خروج الأوردر، تراجعت، وهَن قلبها، لازمت الخوف وضربت أبوابه، خصوصًا بعد أن تم إبلاغها أنَّها مُتاح المكوث من ٧ إلى ١٥ سنة أو الهجرة؛ فأرسلت على الأبليكيشن فورًا لإلغاء الأوردر، استلم البائع رسالتها مُستعجبًا "مُتاح تذكرة للاستبدال أو البيع قبل انتهاء صلاحيتها، يا ريت لو فيه حد محتاجها يبدلها معايا ولو هخسر في تمنها"، ليرد عليها سريعًا " التذكرة ممكن ترجع بس بيتخصم مصاريف التوصيل عشان الأوردر كان خرج ". تم اتصاله فورًا بالخيَّاش وأبلغه بأنَّ الأوردر تم إلغاؤه لظروفٍ خاصة، سيتم إرسال مصاريف التوصيل فقط. أغلق الخيَّاش الخط وعاد مُسرعًا إلى مرصده يداعب جفونه المُتشحة بالسواد، أكله القلق جرَّاء خفقان القلب واضطرابه جرَّاء ارتعاشة سبابته على زناده.

ما جعلها تلغي الأوردر خوفها من انكشاف سرها، وما جعلها تمضي في شراء جريمةٍ دون إعدامٍ أو سجنٍ مُشدد، فاشترت قتل

زوجها بنفسِها دون عواقب طبقًا للخطة المُباعة، استلمت رسالته قبل أن يمضي الأسبوع "٢ قرص مع كل وجبة وممكن يتدوبوا في الأكل لمدة أسبوع يوم بعد يوم، وإن شاء الله هيحصل تحسُّن"، أرسلت المبلغ كما مُرسل وهيأت الأجواء لزوجها كي يبقى بالمنزل أقصى مدة، نفذت الخطة وما تراجعت، وضعت ٢ قرص من المُنشط الجنسي المُحدد في الأكل، مع ازدياد السم في جسده وازدياد الخفقان القلبي المُميت، غشاه الموت أمامها في بريقٍ تلتمع بها عيناها قبل أن تغيض دموعها مُسرعةً بعد أن ثمِل أمامها، وفاضت روحه إلى بارئها أبلغت القسم مُهتاجةً؛ حضر مُسرعًا مصطفى بيه وأصابع الاتهام تشير إلى الزوجة العاشقة بسهولةٍ، أمضى الليلة في استجوابها ما أسفر على الإنكار، عندها أمر بسرعة الانتهاء من نتيجة التشريح، ارتطمت النتيجة برأسه كمقطورةٍ دهستها قبل أن تهشمه: " المجني عليه تُوفي بسبب تناول جرعات كبيرة من المنشطات ما أدى لزيادة ضربات القلب؛ مما سبب التوقُّف الفجائي لعضلة القلب "، تم إخلاء سبيلها ما لم تكن مطلوبةً على ذمة قضايا أخرى، ما جعل فؤادها مُطمئنًا للمرة الأولى وداخلها يُنثر الارتياح والغبطة، الثروة كاملةً تنتظرها كالكنز الخفي والأيام التي سُلبت ستُعوض، عادت كما لم يشُبها شائبةً، تُرى هل تترك الدنيا شيطانِها الآثم يرتع في ملذاتها الكاذبة؟ هل يرتد من آثم قلبه قبل فِعلته؟!

مضَت على جمرةٍ من الانتظار السقيم، وفؤادها تهفو به الأحلام المؤججة، اقترب الوضع والثروة معًا والأيام النهِمات، إلى أن جاء

يوم الطلق، زفرت أنفاسها بشِدةٍ حتى كادت تنتهي حياتها في ومضةٍ، لاحقتها العناية الإلهية حتى استعادت الأنفاس وتماثلت الحياة فيها أن تعود، وكأنَّه حُلمٌ يتبعه أذى، تمادت في الثناء شكرًا، وجذبت لصدرها شهيق الحياة، فارتدت مُصمتةً لا يخبو بجوفها نبض وليدها، سألت عنه ويا ليتها ما سألت " البقاء لله، للأسف الجنين نزل ميت! "، لفحتها هبات الفزع جرَّاء نيران الألم المُحرقة وهي في جوف الصقيع، انهارت أعصابها قبل أن يُغشى عليها، وتُشخَّص بـ "انهيار عصبي حاد"، قبل أن تُدرك أنَّها فقدت كل شيءٍ بسهولةٍ حتمًا مثلما جاء.

(١٠٥)

انهالت الاستشارات القانونية وذاع صيت أبليكيشن "بائع الجريمة"، كأبليكيشن ألعاب وبداخله يُخفي السر، لم تتآتَ في أوساط الجريمة وساحتها مثل ما حدث، لا حديث سوى الجرائم المُباعة وكيفية شيوعها والحد منها، ولم يصل العديد إلى خيوطٍ تضفَّرت واتصلت بالبائع، الكل يبحث والبائع كالشبح .. كالحرباء، يتلوَّن كل يومٍ بألف لون ولون، لن يصل إليه أحدٌ ما دام ظل في حدسه التغيير منهَلًا، انهمرت عليه الثروة كجبالٍ شواهق، الآن وصل الأمر إلى اختيار الجرائم وليس القبول للكل، بالرغم من شيوع الجرائم بمُخيلته، لم يتخيل ما وصلت إليه السنون، كل هؤلاء يجدون الجريمة هي الحل، كل هؤلاء لا يدركون معنى القيود

والأصفاد في النفوس قبل الأجساد!، كل هؤلاء نعِموا بالحرية إلى أن اختنقوا أم ما زالوا لم يستنشقوا عبيرها أو يعرفوه!، زمان بقيت فيه الجريمة أسهل الطرق لحل الخلافات، كثيرًا تعجَّب من فرار المرء من أخيه أو أمه أو أبيه!، الآن صار الفرار طبيعة والهروب بداية، الدياثة حداثة، الابن العاق أصبح ذا تربيةٍ رفيعة حيث الشخصية الأيقونية المميزة ذات الإستقلالية، أمَّا البنات هن سبب المُشكلات، إما التي تريد التخلص من زوجها أو أخيها أو عشيقها، تعددت الخيانات من هذا وهذه والجرائم سئِمت التِعداد، نظر بتفحُّص في الحياة ما جعله نادمًا؛ يلعن الجريمة، يلعن السقم الذي أردى الناس لقمةً سائغةً في أفواه الظروف تنهش من عقولهم المَضمُورة، فلا هي تملك دين ولا أخلاق، ما جعل صورته أمام نفسه مُحتقرة فلا يرى نفسه إلَّا هراء، ويبصق على الأيام التي جعلت منه هكذا، ولكن تُرى هل العودة سهلة؟!

اليوم أتى له الأبليكيشن بجرائم عدة؛ تصفح بعضها اختار الأغرب ودخل في استجوابٍ معه، لم يصدق عينيه من بشاعة المطلوب منه؛ فهذا الرجل طلب منه شراء وجبة تكفي خمسة أفرادٍ هم أهله، ما زاد الدهشة بلاغةً هو أنه ليس رجلًا بل طفلًا لم يبلغ، والأدهى والأمر والأنكى هو أنَّه لا يعاني منهم قط لا يكرههم، لا يعاني من الفقر كما عانى هو منه، لا يوجد سبب لطلبه سوى .. أنَّ قتل عائلته هو طلب لعبته لكي تتيح له مرحلةً أخرى وتفتح له المزيد من الألعاب! أنكر العقل في الإنسانية بأكملِها، أفلا يعلم أنَّه ستغلق له أبوابٌ في السماء وتنقطع عنه أسبابٌ للسعادة!، أم في

الزمن البخس أصبحت السعادة في اللعب والحُمق والغباء، استفزه الطلب فنهر صاحبه واستباح السب في عمقه، وطرح عليه أسئلةً مُربدةً، قال له في إيجازٍ: "ستتمنى لو يومٌ يعود وتسترجع ما فقدته"، حدَّثه إلى أن تغيرت وجهته وتلاشت نظرته الحمقاء؛ أدرك الآن فقط أنَّه عمِل صالحًا، أدرك أنَّه لم يخطئ لأول مرةٍ، لم يصر جبانًا أو يهرع للهروب، وغيَّر نفسًا شارفت على الانتهاء.

(١٠٦)

في نهر النهار وسط غابات الكلمات، مع زخم البشر، وفرط الضحكات، ونبوءة المجذوب، وحزن المكلوم، مع سعادة الناجح، وشقاء المُغترب، في هيبة القاضي، ورفعة الطبيب، وعناء الجريح، ومرار الحبيس، ولُؤم المُترقب، وصوت السوط، مع لعن الألم، وسخط الندم، وفقر الذمم، ونحر الهمم، في شرف العمم، والحياء والكرم، في لطمة بريءٍ، إمساك وضيق، في ضحل الطريق، في وهج البكاء، والتياع الفقد، في نهج البراءة وفك الاتهام يمور الالتهام، في وسط الحرب وأوج السلام، لحظات الافتتان، وعناق الاحتقان، في حضور الشيطان، في تردي الإنسان، في كل الأحيان، يفور البركان بجميع الأزمان، في وسط الزحام يتجلى الكذب والائتمان يهان، في عمق الظلام، ومرابض الفرسان، في شتى الأركان، في غياب النيران، مع زفر الدخان تسطع الحقيقة؛ فتعترف الجدران، وينوح الرهبان، وتتحدَّث الأقلام، كما الموت والحياة، رغم صخب الحياة، يفوح

الكذب، ورغم هدوء القبر وظلمته، تباح الحقائق دون بُطلان، دون رجعة، وباستسلامٍ تام.

لهذا تركهم ينضحون بالخبايا الواجبة، بالآثام الدفينة، عظمة الأسرار تفوح ظلمتها، فما شاءوا إلى التصافي إلَّا وشاءت الأقدار أن يهيموا كما الجِمال في خُيلاء بجرداء، وغدوا على حردٍ قادرين، انتظمت الأحقاد وتفاعلت الأنفاس ولحقتها لتضطرب، وهم يتحدثون باطمئنانٍ تامٍ والآخر ينتظر الكلمات لتتهادى على يديه وينخر بها الأنحر باستماتةٍ. زفر مصطفى الدَّكر الدخان من صدره والضجيج يعلوه، زأر كالأسد وأضحكته الخبايا بعمقٍ، تنحنح بتبرح، رشف القهوة بسعادة، استعد للجولة الأولى عن تدارك للموقف بحكمةٍ، وهيهات للعالِم أن يعلوه الجهل بعد علمٍ مُقدر.

(١٠٧)

كانون الأول / ٢٠٢٦

جلس على دائرةٍ من ذهبٍ ولوَّحت يداه بخاتمين من عقيقٍ، تبرَّجت نظراته الهائمة، واستطرد العز منزلةً، جلس على مقعده الوثير ذلك الذي يكسوه القواعد الزَّان والمقعدة الأريحية الإسفنجية واليدان العالِقتان كَكُرسي العرش المُهلك لقاطنيه، يسكنه نشوى لا تضر إلَّا مَن ذاق الحرمان، فبأى آلاء تكذبان! انتظر هائمًا على سفح دخانٍ مبين، يخرُج عائمًا بين عوالم عديدة بين دخُان سيجارته السوداء وقهوته النرجسية مع قبضةٍ حديديةٍ

في يديه لم تُخفِ صدءًا نحيفًا. تفرعنت جلسته تعالت أصواته، تفرعت أوردته كشُعب المُرجان صلبة المظهر، غزيرة هشاشة الداخل، تهيأ لملكوته، تهيأ كبائعٍ حقيقي، لا هو هشٌّ تذوبه الريح وتعقصه اللفحات الجريئة، تمرَّد على حياته بعنفوان، تجرأ كأسدٍ خبا سنينًا وانطفأ ثم ما لبث أن عاد كالمُنقض بقوة الليالي المُجترة تُحِرِّكه الأوجاع، تشدو بعينيه نظرات ثاقبة يغلبها غُبار الفتك، أثخنت الحمم شدقيه، فرَّ من جزعه، كرَّ من يأسه، تمالك الوقت بعد أن تملَّكه الضياع يومًا ما، هكذا صار فايز السعدني، أمسى أبو صيرة، البائع المحترف، وصاحب الصولات والجولات، لم يحرِّك ساكنًا، تميَّز بالغيظ بعد زفر الهم من جوفه، برمقةٍ سريعةٍ نظر للأعلى دون انتظار الرد، غلى في عروقه الدم الراكد قبل أن يهيم وتهيم معه النظرات العاتية.

عبس في وجه ما ينظر له؛ ملفٌ يخفي داخله هراءً مُغايرًا لحقيقة داخل عُمقه، قبل أن يُخرجه من بين العديد، أسماه "الخدعة"، طفح الدم كالكهرباء لطمت يسراه، مزَّق هيئته عن إرادة، تحرَّكت رأسه إلى العمر الذي مضى إراديًا إلى نهايته، كيف خُدع؟ ولِمَ؟! الآن سيزيح العالم ويربكه بقبضته الفولاذية، تُحرِّكه التدابير القانونية وحكمته المُبتدعة، تنيحت أفكاره التي تربى عليها وعسعس الصبح عن تغيير مُستشرٍ به، فتحول إلى البائع باقتناعٍ الآن، تلبَّس الفرعون هيئته بغرابةٍ فصار شيطانًا، لطم ندبته عن قوة، شنق الجبن ونزع الخوف من وريده، تلَّمس أوراق القضية التالية زاد من عمق التفكير، تبعثرت الأوراق، العملية القادمة

فارقة، حقًّا ستكون خدعة، زار قهوته مساءً، قابل "الزمبلك" دون موعِد تحاشاه بداية، إلى أن اقترب ومسَّ عنفه بزفيره الصامت، فتحدَّث برغبةٍ مُستميتة.

- لا يا بياع، إصبرلها يمكن ترجع.
- معنديش مغفِرة، ده عند اللي خلقك.
- هتسلمك رقبتها، وتكيّش مبلغ الضمان.
- مِعزة مِلك ولا بقرة شِرك.
- هنقولها ونداوي جرحها.
- دوِّب كلامك معاها وميّعه، إحنا اللي بنختار مشاكلنا، محدش بيزقلنا غير شره، آه، وبعد كده توزن عملك قبل ما تجيني، هتقف قدامي يا تحيا يا تروح.
- طب بقولك إيه، صباح عايزة الأرباح!
- مبتشبعش صباح! قولها الصرف أول الشهر مع الزيادة الجديدة.
- الضمان هيروح عليها ولا هيرجع بالفايدة.
- هنقرب المسافات، والموضوع اللي جاي قرَّب يتقرَّب، هبعتلك لينك الدعوة ودى تشيل دي.

رغم اقتراب الآذان زاد صممها، رغم الأبصار عميت عن الفهم بإيضاح، رغم افتراق الطرق اقترب بعد عِنادٍ ظل مُلازمه، تهيأت الظروف وسنحت الفرص، جلس "فيش" جاذبًا الحياة في دُخانه،

والضحكة الخبيثة تلوح في وجهه كما الجُرذ الرابض قبل أن يجلس جواره أبو صيرة كما التلميذ.

- مش قولتلك هتحتاجني، فيش مبينتهيش.

- مسير العمر يمُر، أدينا اتلاقينا، إمسك ده، فصّلي واحد غيري.

تفحص الاسم والمهنة بتدقق:

- إيه ده، أبو صيرة، اسمك سهل لكن وظيفتك مفيش منها.

نظر له بوجهٍ مشقق وحياةٍ تجاوز الفتور فيها إلى حدٍّ لا نهاية له.

(١٠٨)

المرسِل بلا اسم، الجريمة بلا معنى، الأبليكيشن يضمُر التنويه، يُفرز التخفي، يُبرر الاشتباك، يُبرز الأسئلة، يغلف اللغز، يُعادى المنطق، الكل خلف شاشته يخطط مختبئًا كما المُستتر، يُفصح عن اختبائه بدلالاتٍ مُفتقدة، التكنولوجيا الآثمة كما خلَّفت علمًا أوردت خبلًا، فطم الناس على التواصل، سهَّل على القاتل مسَلك، شبَّك مشابك العلاقات، تظاهر البعض الآن بالعظمة، وما أقرب العَته! جمَّد القلوب على العصيان، جمَحت العقول إلى أمل، بلا أسس، بلا واقع، تتلاقى الموجات بلا شاطئ، تقترب الأوجه بلا رادع، يهفو الحُب وتندفع معه صراخاته المُوجعة بلا معنى،

أصبحت الأمنيات أسهل، والنفس أطمع، والعقيدة هشَّة، تبرق النظرات فتتحطم النظريات، فلا يُعرف الصح من الأصح، أو الخطأ أو المُعتنق، تحملنا غياهب المُشاهدات، بلا مرجعية ثابتة، الأرض حقًّا أسفلك تُخفق في تبلد، والسماء تمور عن تخلٍ، والنهاية تقترب مُنذرةً ما أثقلها!، وتلك الأنفس ما أشقاها!.

عبد العزيز الوردي، ذو طولٍ مقدَّر، وجهٍ مُحمَّر، صمتٍ مُفسَّر، بوحٍ مُعذَّر، نسقٍ مشفَّر، ذكاء وتدبُّر، عيناه تخرج من سفح مُحدَّر؛ فتذهل عديدًا كلغزٍ مُحير! وشيءٌ مُصدَّر أنَّه دون مصدر رغم كونه يصوِّر، أنَّ ذلك المشهَّر، وتأتي الحقيقة على قمر ومرمر.

طلب الرجل ذاته طلبًا غريبًا كطلب الخِضر، قبل أن يترك رسالته على التطبيق ويستمر عدم الاستجابة منه على الأسئلة والطلبات المشروطة، ما أدخل الشك بذيله إلى ممرات الأسرار الدافئة، استيقن البائع وعزَّز الكلمات بمفاهيم أشد، فتمكَّن الآخر من توحيد اللغة، واتساق الخروج الآمن من المحادثة المرئية الغريبة؛ إذ يطلب العزيز جريمة قتلٍ مكتملة الأركان، دون أن يُقتل فيها أحد، ولكن القتل رسمي مُثبت دون جثة!

تضاءلت الكلمات وتضاربت الأفواه بالتعجب؛ لعل الآخر باخعٌ نفسه عن الفهم، تقيضت أوردته وانقضمت أظافره إلَّا قليلًا، تمادت الأرض واتسعت رغم صِغرها في فلك المجرة، على ما تيسرت حاجته في صكِّ الكلمات حتى لا يتفهم المعنى، تعسَّر الاستيعاب بدقةٍ، ظلَّ التخطيط ينهش أوتاره كما السرطان يجلِده

جَلدًا مُبرِّحًا، ثمُل الوعي وقُبل عزاؤه، وتسهَّدت الظلمة في براهين ودلائل دون مقصِد.

خسر نصف وزنه إثر ضحكه، كاد يظن أنَّه الأذكى والأدهى، ولكن الآن رأى بأُم عينه كذب ظنونه، تعجَّب من وجود مثل هذا الفِكر المُصفَّد بتراتيل الشيطان، ربما إن كان قابل هذا العزيز من قبل لكان غيَّر النشاط وترك الجريمة والمحاماة إلى الأبد، فرط الذكاء أشبع صاحبه، تُرى إن كان حقق تلك الفكرة منذ سنواتٍ لكان أغنى رجلٍ في العالم، ربما أتى له التطبيق بأفكارٍ مُشعةٍ، أثقل من الجرائم بأرباحها الخطِرة، تقرر التنفيذ بعد التدبير المعهود، ولكن تلك التدبير غير ما سبق، لربما تكون الجريمة الأخيرة التي لن يكون العمل بعدها ذا نفعٍ.

العزيز لا يرضى سوى بالعزيز، اشترى جريمة قتله وهذا الأعجب! ظن البائع بدايةً أنَّه يود الانتحار؛ فرتَّب الجريمة في التو، وبعد الرجوع للمحادثة استشعر الغموض، حدَّثه ببالغ اليأس تلك الأسئلة الدارجة علَّها تنفع برغم عدم اقتناعه، ربما زهد الترغيب واستثقل الترهيب، هناك من البشر أصناف وهذا منهم، هؤلاء الذين لن تجدي معهم النصائح، ارتطم بوجهه طلبه الأغرب، القتل سيكون مع وقف التنفيذ، ولكنه سينفِّذ بعد خمس ليالٍ، لم يترك الوغد يمضي دون أن يترجم حديثه، بثلاث كلماتٍ كتبها ومضى يرتع في أثر السراب، (ق ت ل، م و ت / ق ر ض) قرأ المعجم وهو مَن أسسه، استعاد الذهن الثقيلة خطواته، رشح العقل سحابة بهتانٍ كثيفة، قبل أن يبحث عن القاتل بغزارةٍ

ويستوضح الأمر برتابةٍ عميقة، ظنَّ أنَّ الرجل يوقِعه ليدرك رأسه ويجعلها في مربط الخيل، ولكن الحقيقة دائمًا أبعد من الفهم السطحي، العزيز ذو شأنٍ عزيز، اقترض من البنوك ما يقترب من النصف مليار بضماناتٍ عديدة، القتل هو الحل الوحيد لإسقاط الديون، وبعدها العودة للحياة باسمٍ آخر وهُوية أخرى.

تعاظمت تخيلات البائع كما الفانوس السحري الذي جاءه بعد جهدٍ ومعاناةٍ، دبَّر له الخطة واعتبرها مكافأة نهايته في هذا العالم البغيض، أرسل الموافقة واعتبر يوم غدٍ انطلاق الخطة، أقنعه أنَّ لديه مَن يصنع له هُويةً ليولد من جديد، طلب المبلغ كاملًا قبل إرسال الخطة، تقايضا على الأجر حتى رضي الطرفان، تخيَّرا مكان الاستلام، ذهب بنفسه تلك المرة، لن يأمن لأحدٍ على وجه الأرض، في تمام الساعة وعلى حركة العقرب المُحددة، ربض كالسابح في مدار الموت اللا محدود، استلم المبلغ ورحل في سرعةٍ معهودة قبل أن يسلمه المخطوطة الأخيرة، عاد لقبوه أرسل للميَّاس الخطة المفصَّلة، ليُنسق الأخير مع الخيَّاش، لم يبلغ موعد التنفيذ سوى في نفس الليلة وقبل الموعد بساعتين، كما متبع لسرية المعلومات وعدم تناقلها عبر الألسن الشاذة، المراقبات تزداد والنهاية الحتمية تقترب، اللاعب الماهر الذي يترك الملاعب بكامل لياقته، لن ينتظر السقوط المدوي وسط نيرانٍ لا ترحم، لعبة الموت على أهبة الانغلاق إلى الأبد، والشاطئ لا بد له من غلقٍ كلي؛ لئلا يُمنع السباحة قبالته مرةً أخرى جرَّاء الدوامات المُلهبة.

(١٠٩)

أتى يوم التنفيذ مُتلاحقًا بعجلةٍ سريعة، أصدر البائع أمره واقترب الخيَّاش من سلاحه الكلاشينكوف ذي الرصاصة الأكيدة والموت المُؤكد، والأمر ذهب للعزيز بإحكام ربط الصديري الواقي من الرصاص أسفل قميصه المشجَّر، القميص ذاته ذو علامةٍ جاذبة؛ لذلك هو الإشارة الصماء لتنفيذ الخطة، بتغييره تصير العملية ملغاة. خرج الميَّاس من مكمنه استكشافًا، قبل أن يعدو الخيَّاش بعد اتصال – مكالمة الحياة والممات – أمن خروجه، تلك المكالمة المُتفق عليها بينهم، خرج مُستندًا على أحزانه وغروره، مُمعِنًا النظر في أولاده، شعر أنَّه لن يعود؛ داخله الهاجس يزداد إلى أن تملَّك قُبعته السوداء ووشاحه الرمادي، فرَّ زاحفًا أمام ساعات الليل البطيئة، الساعة الآن تداعب المنتصف بعد الثانية صباحًا موعد خروج الرصاصة، شد أجزاء قدر المجني عليه، في المكان المحدد للسقوط وعلى درجة ميلٍ مُقدرة .. سقط مضرجًا في دمائه الوريدية الزرقاء، رصاصة قسمت رقبته شطرين، جعلت منها وكأنَّها لا تعترف بجسده، كان الأمر إلى الخيَّاش بالقنص في ذات المكان، بخلاف ما اتفق العزيز معه على مكان الرصاصة .. في القلب، يحتمِلها القميص الواقي، ويبعد عنه الموت المحتوم.

تراءى لأبي صيرة أنَّها الفرصة، تدبير القتل المُزيف لحقيقة، الاتفاق مع فيش بتزوير أوراق ليبقى فايز السعدني ..عبد العزيز الوردي، لمدة أيامٍ يستلم فيها جميع ممتلكاته ومن ثَمَّ يعود

لهويته، بعد الاتفاق مع النبَّاش بإحضار جثةٍ مشوهة المعالم وتعديل بصمات الجسد لتبقى الجثة مماثلةً لجثة الوردي والتخلّص من جثة الوردى، تم تعديل هذه أيضًا من قِبل البائع الفذَّ، تعدَّل الاتفاق بدلًا من وارد إلى .. صادر، بيع جثة الوردي إلى النبَّاش مقابل الاتفاق الأول بإحضار جثة مع الإبقاء على تشويه المعالم وإلغاء تعديل البصمات ذي التكلفة الباهظة.

الحرص واجب قدر ما استطعت، لا أمان للنبّاشين ولا عهد بينهم باقٍ، مثلما حدّث سلفًا، نقَض المواثيق أفضل الحلول دائمًا؛ فالمواثيق المُبرمة غير مُستساغة، وبمرور الوقت تصبح فاسدةً تمامًا مثل الطعام. هكذا انفلت أبو صيرة بنصف مليار جنيهٍ، وهو طريح التطبيق دون أن ينهك جسده بتدبير الجرائم عديمة الفائدة.

(١١٠)

جلسا مقتربين مقترنين والقلق حليفٌ لا عدو، براءة الأجساد وطفولية الملامح ساطعة، أمَّا الداخل ففيه مسائل، ينبح القاتل بما يُدمغه، تفرَّس في وجهه الوجوم ولم ينبس، تزاكمت الأنفس وغواه الشيطان بفلاح، انغلقت موائد الصوت، فلا صرير يصدر ولا منجٍ من العيون المُستنفرة، تحدَّث الخيَّاش وما أبقى من كلماتٍ في فيه، مزَّق الركود الساري بحجرٍ قاسٍ، أعاد على صديقه أسئلته علَّه يستجيب ويرضى أو يُجيب ويستمر.

- لسه مش ناوي تجيبلي أصَلك .. كل ده معرفتش إننا ملناش غير بعض؟

- عارف يا عز! أنا يمكن فعلًا مليش حد غيرك، رغم إن كل اللي حواليا ناس ليل ونهار في كلام وبس، مفيش حد قريب من حد.

- طب وبعدين يا عاطف؟ ليه عامل في نفسك كده.

- من ساعة أبويا ما طلق أمي وأنا صغير وأنا كده، بهرب من كل حاجة، بخاف لحد يسألني أهلك فين؟، أنا أبويا ميعرفناش من سنين وأنا نسيت شكله، قطعت الصورة الوحيدة اللي باقياله جوايا، حتى أصحابي من صغري كلهم عايزين يعرفوا مصاحبين مين، بسمع أهاليهم بيقولولهم ده مش مُتزن؛ الكل بقى يبعد.

- وأمك راحت فين؟

- إتجوزت بعد أبويا بسنة، مكنش ينفع نعيش من غير ما حد يصرف علينا، بس طبعًا شوية وجوزها مستحملش يصرف على ابنها، رمتني عشان تعيش؛ تفتكر كانت غلطانة؟

- طبعًا.

- مظنش، مفيش أم عايزة تسيب ابنها، بس لما تساومها على الموت، هتضطر تعمل أكتر من كده.

- وطبعًا سيبت العلام واشتغلت، وصرفت على حالك، وكبرت على الشقا، جدع يا ميَّاس؛ أنا برده بقول عليك راجل،

ظنى ميخِبش، عشان كده حبيتك من أول طلة، مع إني عمرى ما اقتنعت بيك في ورشة الدوكو!

- وأنا برده يا عز، ربنا يعلم معزتك في قلبي، بالرغم إنك قاتل ومجرم بس معرفش ليه صاحبتك دونًا عن كل الناس!

- الروح يا صاحبي، الروح بتنادي على اللي شبهها، متخدش باللي بره، اللي جوه أطعم.

- وعشان إحنا أصحاب وروحنا واحدة، لابد منها، الصاحب له إيه عند صاحبه؟

- بص يا ميَّاس، هقولهالك آخر مرة، أنا مبعرفش أدهن غير أحمر، إنت خليك في الدوكو، وخليني أنا في اللي أنا فيه .. العيال كلها اتربت على أ/ب، الخيَّاش اتربى على ش/ف، من صغري شديد الانفجار. إنت مشفتنيش أيام الكورونا، سوقي كان في عزه، والبشر كلها خدت بتارها.

- لحد امتى؟ كفاية كده، الاعتزال وجب .. النهاية جاية جاية متستعجلهاش، يا أخي إنت وراك عيال خاف عليهم، أكتر حاجة الصاحب يقدمها لصاحبه يوقفة عن الطريق الأسود اللي ماشي فيه.

- زمنك جاي يا ميَّاس، ياما قولتهالك .. زمني راح، القتل في الزمن ده مش رصاصة، القتل فِكر ودراسة، دماغ شغالة، معلوماتك اللي إنت بتجيبها بالرغي على القهوة تأذيهم، وتساومهم، تشتريهم وتبيعهم، متستهونش باللي في إيدك .. اللي

بتعمله هو المُستقبل، بس اللي فيه داء ميبطلوش.. عشان كده هيفضل الخيَّاش خيَّاش .. والميَّاس ميَّاس.

- لازم الخيَّاش يبطَّل عشان الميَّاس مش هينفع يسيب صاحبه.

- تصدق إنت فعلًا طلعت زي ما بيقولوا عليك .. مش مُتزن .. هاهاها.

هكذا ظل الحوار يتوارى ويتهدَّل، يفقأ عيون الذكريات عن عمَدٍ، تفوح بسمَات الخيَّاش دائمًا كالمُضغة الحامضة، فلا يرنو إلى ما يريد سوى عهده على توفير احتياجات أولاده بعدما تأكَّد من اقتراب زوال عرشه، الأيام في استباقٍ إلى الذروة، لا شيء يدوم إلى الأبد.

أثناء غياهب الود وباقات الذكريات المظلمة، صُفع الباب باجتهادٍ، رؤيا الميَّاس صادقة، لم يتوقعها هو نفسه بتلك السرعة، اقتربا إليه مُستظلين بالحسنات المُلقاة وسط الثوب المُتسخ؛ علَّ الدعاء يُجاب، تلك اللحظات الفارقة، هوَّن عليهم الحدث صدق الصفع، الشرطة لن تنتظر كي يُفتح لها، وقفا خلف الباب بحيطةٍ، نطق الخيَّاش: مين؟

انتظر الآخر جواره بلا همسةٍ، ذوَّبت مفاصله الخُطا المحسُوبة، سأل الخيَّاش بإشارةٍ، لم يطمئن أحدهم إلَّا أن جاء الرد بعدما جمدت الروح:

- افتح يا عز .. الزمبلك بيلف.

سمح لبريق الأعين فقط في الامتزاج، تفرَّست الأوجه وغارت مُتوجِسةً، تمتم في سرعة:

- تصديرة اتمسك، واتفرَّقوا الأحباب.

تلاشى في ظلمةٍ مُتقطعةٍ، ترك الأشياء تركد على حالة الشرود، الميَّاس وكأنَّ روحه تتفرق في جموحٍ، الخيَّاش انتظر الليلة منذ مئات الساعات، لا بدَّ من نهاية للطريق، أشارعليه في وسط الصمت البليغ الميَّاس، إرسال رسالة عن طريق الأبليكيشين للبائع لإبلاغه، والرحيل فور صدور الأمر، أرسلا الرسالة وأتى الرد في أقل من شذرةٍ عابرة.

- الصادرات أفضل في رحاب الله، والرحيل أجمل التعابير.

الرسالة المفخخة تحمل عتادًا، الأمر بالرحيل واجب وقتل تصديرة أوجب كما نصَّت.

(١١١)

تحامل على نفسه حتى خارت قواه، ظلت الأسرار مدفونةً إلى أن ترفَّقت بها الأيادى الحانية، فخرجَت إلى مُستودعِها الأخير لاهِثةً، استمر تصديرة في الإنكار حتى تفتّتت العزيمة الصلبة، وفارقت معتقدات رأسه بتوغل؛ فأنصت إلى راقيه "مصطفى بيه" وأذهله أنَّه سوف يصعد إلى مرتبة "شاهد ملك" .. ما أرداه مُصمتًا، لا شيء سوف يستبقي على وجوده بعد الإمساك به، سوف يحاول الجميع الفتك به ريثما يستطيعون؛ فهو المُصدر الوحيد، خزينة

الأسرار الصلبة، صندوق القلعة الأسود، الأفضل له أن يبقى في تلك الجبهة، جبهة الإنقاذ، إن لم تعدمه فسوف تحميه. ظل تصديرة في ترحالٍ من زُحل إلى المُشترى، رأسه الداغنة تسوي الشكوك على محرقةٍ رطبة، فلا استعاد الحياة ولا اشتهى الموت، تنهش أوردته النافره الأفكار الثقيلة على جسده، تأنى بجِدٍ، فاز بوثاقه، اعترف بأريحية واستبق الحديث بلا نزاعٍ أو تزعزع.

- هـا يا تصديرة، فكرت!

- هقول يا باشا، بس الضامن بعد ربنا معاليك.

- الضامن الوحيد إنك تعيش ومتتعدمش، إنت بالنسبة لهم مهم جدًّا، أنا مش فاهم إزاي سايبينك عايش، إنت الوحيد اللي تعرف كل حاجة وماشي على حِس الماضي.

- مأمنين للي بينسى.

- إنت لعبت عليهم اللعبة دي برده، هاهاها، لا وصدّقوها زي الهُبل، دي سهلة، عندنا اللي يخليك تفتكر اتولدت إزاي وامتى، الحكاية دي لازم تخلص يا نصر، اتخضيت ليه؟! ملفك كله عندي من بدري، من ساعة شادية .. فاكرها.

- أنا هقول على كل حاجة يا باشا.

- يلا يا حبيبي، ولا محتاج تفتكر أكتر.

ظلا إلى أن تشبَّثت حباله بقاعدة مصطفى الدَّكر، مضى على أقواله بعد أن ثقلت موازينه فأعار لمَن حوله الاهتمام، وخفَّ الحِمل من كتفِه إلى أن أزيح جبلٌ عظيمٌ تراءى عن قُربٍ، لُصِّمت

مسامير الحقائق المُنشقة من على فجوات الشكوك، فتبينت أماكنها والتئمت بعد جهدٍ مُضنٍ، تذكَّر مُصطفى بيه من كلام تصديرة الملموس تفريغ تسجيلات الخاطي وضاحي.

- مين البياع يا خـاطي إنت شوفته؟

- طبعًا يا معلم ضاحي، أنا اللي اتفقت معاه على قتل مفتونة وسِجنك من قبله، كُنت راقمك قبلها، كله من ترتيب ابن الأفاعي دماغه ألماظ.

- اسمه إيه؟ ومين معاه؟

- اسمه مش على بالي، بس أنا اللي فاكره كويس الواد اللي معاه، وشه كان فيه علامة مميزة كأنها غزة مطوة، كان بيقعد بعيد وعامل نفسه مش واخد باله، بس عيب رقمَته وطولته.

ضربت كلماته عمق حديث شريف سيف، المُنبأ بالغيب، ساحر الظلام، لا بد من وجود بائع مُدبِّر، ذلك الذي خططه تفوح بالجريمة وتنشع بدفوعها، تصديرة لم يأتِ إلى هنا إلَّا عن يقين لا عن تشكُّك، تردد اسمه على الألسن أرداه هنا، تلاه باعترافاتٍ بليغة، جرت التحقيقات على أيامٍ متوالية وما كاد يستمر بالاعتراف إلَّا وسيق إلى الحجز بوداعةٍ، سرى في أطراف القِسم عن خطورة التحفظ عليه هنا، الصيد ثمين والخبايا جسيمة، يلزمه عدة تدابير أمنية يصعب تلك الليلة إتيانها.

ترحَّل في زمرةٍ هائلة وحشدٍ لا بد منه، في تمنٍ للذهاب إلى الأبد، غزاه الشيب وهو بين ربوع الشباب، لفحته النكبة وأصاب الصيب موائده؛ فالتحم الحشد يقرِّبانه من الأيادى المُشبكة، نظر للسماء

في رجاءٍ وشقاءٍ، دعا بما يلوح له القدر وبما ينوح به الفؤاد؛ ربما الندم أغشى سفح رأسه، فتفقَّد الضوء المُبتعث على مرمى العين وتعرَّف عن الحرية برؤية.

سقط وسط الحُلم والتخيلات طريح الوحل، امتزجت روحه بروح السماء والمَطر، ثم ما لبِثت همومه أن بُعثرت جواره، وانهملت المياه المُسربلة بدمائه تخفق وسط الغيوم والسدوم، وما تبقى منه إلَّا جمودٌ واعترافٌ عن البائع. رصاصة الخيَّاش لم تخِب، تلك المدفوعة بقوةٍ جازمةٍ من حماية أنفسٍ قاربت الزوال؛ خرجت قوةٌ طارئةٌ تعززها قدرةٌ أخرى للقبض على أبي صيرة في أسرع وقت.

(١١٢)

العلامة المُميزة لن تضيع أو يضيع آثارها وسط جموعٍ غفيرة، تلك الشفرة المضيئة أنقى من عينات "دي إن إيه"، قبل أن يستطيع أبو صيرة الهروب تم الإمساك به رغم عزمه، أزاح كل ما يدير الشكوك حوله من قبوه، نظَّفه بكفاحٍ وضمير، وما فتئ أن يمضى إلَّا وهلك سلطانه، ظلت التدابير المُبرمة تنساق إلى طريقٍ واعر، بعدما نفذت ذخائر الجرائم، صاح وجه مُصطفى الدَّكر بإشراقةٍ غنَّاء، ومضى شريف سيف على خطواتٍ ثابتةٍ مع تداعي الأيام، ترقى لمناصب عدة، تنقَّل إلى كراسٍ إسفنجية من الزان، عظيمة السيقان، رفيعة الشأن، غزيرة السلطة، تحفر سلطانها

الموءدة موانعه بتفلج، استثقل شريف هاتف مُصطفى الدَّكر عند استلامه، ردَّ عليه بمودةٍ مُصطنعة ثم بعد حديثٍ مُضنٍ رد بجملةٍ واحِدةٍ.

- لازم تسبق كل اللي حواليك وتفكر في اللي مُستحيل يحصل قبل المنطقي، عشان على ما توصل للمستحيل هيبقى هو المنطقى.

شكره الدَّكر على مُلاحظته الباهرة، وشقَّ كلماته دخولٌ مُفاجئ لسكرتيرته وفيرة الجمال، توشك أن تُبلغه بمواعيد كُثر، أفلح في إقناع الهاتف بما يُلقى؛ فأسرع الآخر في إنهاء المُكالمة وهو يتصبَّب عرقًا، ضرب شريف باشا سيف كفًّا على كفٍّ، تذكَّر لتوه يوم أن كان صحفيًا للحوادث، لسرعان ما رمَته الدنيا بأحضان الجنون، تذكَّر طه السيوفي ورؤيته الحادة، تذكَّر مُلاحظته التي ألقاها إليه عن ما يُدعى بائع الجريمة، والآخر على شاطئ من الاستيعاب يتمتم سبحان المُعز!

أُخرِج أبو صيرة من مكمنه بالحجز المظلم، تسرَّب الضوء على وجهه كالنار تحرقه، فُتنت عيناه من تناثر الهواء وسط الرياح العطِنة، عاد من شروده فوجد اسمه ينطلق أعلى الشفاه الغليظة، قدم على أهُبة السرعة راكضًا، وُضع مُصفَّدًا بين الجدران المعدودة، والماضي على ظهره كالقلعة الشاهقة، جلس أمام الدَّكر برعونةٍ أنكر قبلما يستمع، اللعيب الدؤوب شق الملعب على هيئة مُهاجم لا مُدافع، استكمال التحريات لا ينتهي، والاعتراف حُلم الجميع، تعددت الجلسات دون ثمَّة خبايا مُدرجة، استشعر

الانهيار والآخر كالحجر الصوان الأصم، حاول معه الدَّكر بكافة الحلول؛ فلم يفلح فضربه بمطرقة الغائبين.

أزال عن عينيه الغشاء بحرفيةٍ، رمى على وجهه محضر اعتراف تصديرة، خبل أبو صيرة وأقرَّ بالنهاية داخله، دون استطاعةٍ بالتوجه إلى شاطئ سوى شاطئ الاعتراف المُميت، لم يتأمل سوى لحظات عمره التي فرَّت من يديه وتسرسبت من خيوط يديه بخِفة، هلع كالمضطرب وتيأس باستيعاب وتمثّل كالثابت في مداره السابح بسرعة الضوء، لسرعان ما تبدَّلت الأشياء والدوافع داخله، ذهل البائع بمكر صاحبه، تريَّث وبصقت عيناه داخل المحضر بمهارة محامٍ عتيد، هي خطوط وخيوط إن تشابكت انتظم الرد، وعُثر على الإجابة باقتدارٍ. تخيلات الماضي تتحقق بدهاءٍ وشيطانيةٍ مزدوجة، تصديرة أبلغ عن البائع وقرينه ذي العلامة المُميزة ألا وهو أبو صيرة، أما البائع فهو .. العيرة.

(١١٣)

لعب الدَّكر على تعبيراته المُنتشية والمُضمرة بنظراتٍ ثِقالٍ، امتلأت الكئوس على حوافها بمُسكرات الخوف، ما جعل النفوس "تخوّخ" قبل أن يقضمها السوس ويتلاشى في السكون، الجاني يجلس وكأنَّه المجني عليه، علم حركات الجسد ومراجع أصول الجريمة داخله ليس مُزعزعًا، تشرَّبه حتى نضح بما يحويه، قرأ الطالع واستقرأ الوجوه المُشرئبة، أنكر حتى امتلأ حلقه من كلمات

النفي، أُتهِم بالاشتراك مع البائع بالتدبير والتخطيط والمساعدة في جرائم عِدة أنكر ببراعةٍ، أُتهِم بامتلاكه شقة سكنية كان يقطن بها مع صديقه العيرة، أقرَّ بأنَّ صديقه هو السبب في كل ما حدث وكثيرًا ما نصحه أن يترك ذلك الطريق، أعاد عليه السؤال بتكرارٍ .. أين العيرة؟ أنكر علمه بمكان تواجده، ولكنه تجهَّز للاعتراف عليه ونحَّى نفسه عن كل طريقٍ يقرِّب العيرة إليه، ألقى مُصطفى الدَّكر على وجهه عقد شقةٍ نقله العيرة لأبي صيرة؛ فأزاحه متثاقلًا ببطءٍ وأكَّد أنَّه بالتأكيد فعل ذلك لحماية نفسه، اعترف على كل الجرائم عمدًا ثم أناب، عطف التدبير والتنفيذ للعيرة، الأيادى الآثمة تناول بعضها البعض، تتبادل الموت وتجذبه بعد أن يئِست منها الحياة.

أبو صيرة الآن هو الشريك الأول، والعيرة هو البائع الحقيقي، المُدبِّر والمُنفذ باعتراف الجميع، الخاطي اعترف أنَّه لا يعلم شيئًا عن أبي صيرة، كل لقاءاته بصحبة العيرة، وكذلك تصديرة نسب إليه كل شيءٍ دون أن يقحم اسم أبي صيرة في جملةٍ مفيدة.

وكذلك ثبتت الرؤيا قبل أن تثبت الجرائم على البائع بمَهارةٍ؛ البائع المُسمى العيرة. سُجِن أبو صيرة على ذمة التحقيق أيامًا كُثر، ذهب ببدلته البيضاء لقاعة المحكمة، تدارك المنظر وهوله، تزاحم الممرات، توافدت الجموع، تكدَّست الأحلام في عينه، المُحاماة التي علقت بمُخيلته يومًا ما، المظاليم الذين اعتروا عقله أن يكون دِرعًا لهم، كل شيءٍ تبخَّر كأنَّ لم يكُن، انزاحت حياته عنه شيئًا قليلًا وعلقت الأيام السوداء بمُخيلته كشياطين الموت، استمع لسب شخصِه في مكانٍ كان ينتظر لسماع مدحه فيه،

أمسك بائع الجريمة الذي حيَّر العديد من العقول، أُدخل قفص الاتهام، نظرته أتت عابرةً، شابهها شيءٌ من انطواءٍ وعزاءٍ؛ فعاد إلى فايز وغادر أبو صيرة بامتياز، قُوبل بالسخرية، اعتبروه حقًّا البائع لا شريكه، حضر المتهم مُصفَّدًا يحمل أوزاره وخلفه يتبارد الحرس في زهوٍّ.

(١١٤)

نادى الحاجب على القضية، دخل القاضي ذو الوجه العريض والعيون المُتشحة بالسواد المُظلل، نودي على اسمه، ردد: "حاضر يا فندم"، جاوب على السؤال الأول بالإنكار حينما أتى إليه السؤال كاتهامٍ، سأل عن الدفاع، رفض فايز باستماتةٍ واستقرت المحكمة لرأي المُتهم في الدفاع عن نفسه، صمت المُحامي المُوكل بالدفاع من قبل نقابة المحامين، تحدَّث الجاني قبل أن يسأل هيئة المحكمة باتساع الصدر وأدلى باتهامه كاملًا على العيرة، لم ينهر إلَّا عندما وجهَّت له المحكمة التُّهمة صريحةً أنَّه هو البائع كما أشارت الدلائل، أعاد الإنكار بلطفٍ فلم يفلح رجاؤه، أدهشته التُهم المُوجهة، أثقلت جسده على ساقيه، أصابه الدوار بتيقن، فرَّت ملامحه إلى جوار الموت، جمُدت روحه، شدَّ على شفتيه وجذبها بحنقٍ يغلي، فزعت المحكمة لغضبته، ثار كثورٍ هائج ذبحته الصدمة، لم يستطع حمل الثقل على رأسه أكثر من ذلك هبَّ فزِعًا لمَّا استمع أنَّه قارب حبل الإعدام.

- أنا مظلوم، أنا بريء، معمَلتش حاجة، حاكموني على الجرايم اللي منعتها قبل اللي شاركت فيها، حاكموا اللي رماني في السِكة وهرب، أنا مليش دعوة، أنا مظلوم .. مظلوم.

- ربنا هو اللي عنده المغفرة يا فايز في المحكمة الإلهية، إنت هنا في الدنيا، بنبص على قضيتك دي بس، مش إحنا اللي هنوزن أعمالك، قتلت ولا مقتلتش!

- مكنتش أعرف إنه هيقتلهم، أنا كنت بجيبله معلومات عادية، معرفش أنه هيستغلها ضدهم، دي حكاوي بتتقال على القهوة يا سيادة القاضي، هتحاكم على كلام بيتقال على القهوة.

- الكلام هو الكلام يا فايز، سواء قولته هنا أو في بيتك أو على القهوة، وأظن إنك محامي، يعني مش ساذج للدرجة دي يا فايز!

- ماكنتش أعرف يا سيادة القاضي، ماكنتش أعرف عقوبة إني أنقل كلام و ماكنتش أعرف إنه هيتسبب في قتل ناس.

ينطق وكيل النيابة عمدًا عند استشعار انفلات زمامه: الاعتذار بجهل القانون يجوز ولكن خلاف قانون العقوبات يا سيادة المحامي الأول على دفعتك.

أشار بكلامه للقاضي ولوَّحت نبرته الهادئة في أرجاء المحكمة الموقرة، في وقتٍ قد نفدت فيه أسلحة فايز السعدني، نطق الشهادة واستجاب للقدر بملء ما فيه، وغار في وحل الصمت وركد في طي الرضا. سُلطت الوجوه قبل العدسات على وجهه، اقتنصت من وجه غُلافًا يزِّين الصفحات الأولى، وجاءت عناوينه كالتالي:

"محاكمة القرن .. القبض على بائع الجريمة"، "هاشتاج القبض على بائع الجريمة يتصدر محرِّكات البحث"، "القبض على "المحامي" بائع الجريمة، "نهاية أسطورة بائع الجريمة"، "حصري: ننشر نص اعترافات بائع الجريمة كما جاء بالمحضر الرسمي".

ذهب إلى السِجن مُصفَّدًا لقضاء عقوبة المُؤبد، تغرَّبت عيناه في خشوعٍ للأرض العاجية والزنازين الصدِئة، قبل أن يشد إلى خياشيمه رحيقًا من هواء الحُرية قبل دفنه، نظر إلى هيئته، ندبته، وجنته تراءى له اسوداد خطاياه في خطوط وجهه، تعاظم التأثير فوق غياب التفسير، تشرذمت نظرته في الاتجاهات فتارةً إلى الماضي وتارةً إلى الآن، رفل في ثياب النسيان مُتهمًا،ازدهر في لون البذلة الزرقاء، ناطح الليالي برأسه، غلبَها، شُدَّ من تلابيبه إلى غياهب الجدران الفاصلة بين الحياة والموت، انتقل الآن إلى الحقيقة التي لطالما ما أدركها خياله ولا ذكاؤه الجم، أنفق أيامه جوار الفقد، الكذب، الابتعاد .. الجريمة، الآن اقترب شيئًا فشيئًا إلى محبسِه، نخسَه السجَّان بيديه في جنبه وأغلق الزنزانة بقدرة، ثم ضاع في أثر الممرات طافحة السكون، أدرك فايز الآن نكبته، موضوعًا في طرف الظلام وسكتته، والصوت أبعد أن يكون إلى أذنه، انتشل التيه وجهه بطبيعة، صعد جفنه بحثًا له عن مآرب، استشعر أثر خيط الضوء السابح من فوهة شباكٍ هائل الصغر، هناك صوت أرواحٍ تتنفس، تخبئ صوتها أسفل الظلام والنظرات، ترقَّب الاقتراب وأوشك أن تنفلت روحه جرَّاء الخوف، ميَّز أصوات إنسية مُعتادة فآنسها، وسريعًا ما اتخذ الفضول إمامًا وانتشى لرفقة

الناس مع رقصة الألم، خالطه الخوف، لم ينكر ولمَّا اقترب الحِس استمع بتنصت.

- إنت بقى البيَّاع!

- هو ده يا معلم ضاحي، أبو علامة في وشه، اللي كنت بحكيلك عليه.

- أما الدُنيا دي صغيرة بشاااااكل!

(١١٥)

أهلك عيناه بالبُكاء دون جدوى، استمر في الانهيار رغم صلابة عمقه، وغزارة سعادته المُخبئة، ما زال يكتوي بشيءٍ من اقتراب الانهيار، فآثر العودة إلى أصدقائه القدامى، ربما شعر باقتراب التئام شرخهما معًا، أفضى سلامة عسران بما يحويه جوفه، استخرج من رأسه شعور الندم واتجه لزيارة ضاحي والخاطي، لم يخرج الخاطي للقائه قبل أن يخبره ضاحي بأنَّ لا شيء أثمن من خسارته في كل مَن حوله، وقد ذهب الآن كلٌّ إلى واديه، فليبقَ الأهم استقراء ما يريد؛ علَّ الجديد فيه خيرٌ لهما، وإن لم! "يوم السجن بسنة خارجه"، وقد علَّمتهما الأيام أكثر مما ينبغى، وآن الأوان للعسران أن يتذوق شيئًا من تعسُّر.

- رغم إني مش طايق أشوف وشك، خرجت أقابلك أشوفك عايز تعمل فيّا إيه تاني.

- أنا عارف إنك مش طايق تشوف وشي يا ضاحي، بس راهنت على طيبة قلبك.

- دي اللي خسّرتني حياتي.

- أنا جايلك أصّفي اللي بينا ونفتح صفحة بيضاء مفيهاش غير طلباتك.

- مليش طلبات، أنا راحتي إني بعدت عن طريقك الأسود يا سلامة، ومش محتاج منك حاجة.

- وإن قولتلك إني كل حقوقك في الحفظ والصون، هتقول إيه؟

- أقول لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله، فلوسك كلها رجعالك، وليك نص التجارة، إيه قولك؟

- إنت عايز إيه يا سلامة؟

- عايز أعيش اللي باقيلي في هنا وزهد، تجَّار القلعة منغصين علينا ومضيقين، وإنت كلمتك عندهم تجيب، كلمتي توّدي، أنا تُبت يا ضاحي، إحنا كبرنا وعجزنا ومبقيناش حمل الوقعة، إنت والخاطي دلوقتي اللي تقدروا تحلّوني منهم، وأنا متأكد إن الخاطي يفديني برقبته، حلها يا ضاحي، كلمتك عندهم متقدِّرة.

استشعر غياب الرد فهزه رغبةً في استجابة، مضى الآخر في شرود لخاطِرة طعنَت فكره بغموضٍ، جذبها بوعي مُتّقد وشبَّك عليها بكفيه، وضمَّ خبله وانغمس في أسر الفرصة:

- واللي يحِللك مشكلة التجار؟
- أبقى خدام تراب رجليه!
- سيبني أفكر والزيارة الجاية الرد يجيلك، جهز تمنُه إنت بس.
- الله .. الله، ضاحي النمر بقى مادي أووي.
- وخربشته توجع، وعضته والقبر.

"الزيارة انتهت" انتظم علو صوت مكبر الصوت في رصانةٍ جليةٍ، انطوى النمر في جُحره، يناطح هواء الجِبال الساري، ومضى عسران في عسرته تموج خواطره التائهة، وانقلب السحر على أبويه مع حركة الأيام إلى الأمام والعجب يتراكم بين الجنبات ويلتقي بالمصلحة.

(١١٦)

بُعث "الزمبلك" كرسولٍ ورسالته مغزى فحواها الاتحاد، مضى مؤكدًا وصوله بنبراتٍ جادة، غير مهزوز الحِس أو مُنبعج النظرات، فطِن النمر لدخوله في الزيارة المرتقبة للقاء "عسران"، الخاطي يجلس جوار النمر رابضًا وكأنَّ على رؤوسهم الطيور تقبع بهدوءٍ ذريـع، دخل الزمبلك يطيح بضحكات التماسيح ذي الأسنان اللامعة، ويغتر بالسلطة والحصانة الدامغة، أثار وصوله في النفوس تفشي الألق، فتعانقا كذبًا ورياءً، جُذبت العيون من

مرقدها إلى باب الوصول انتظارًا للعسران؛ فشدَّها الزمبلك تجاهه بسهولة وعيناه تسقط على مجلسه، وأقرَّ بما لم تُقر النوايا:

- مش هييجي.

نظر له ضاحي بسرعةٍ متقطعة:

- هو مين؟

ضحك الضيف واستغل مُعجزاته في معرفة الغيب:

- اللي مستنينو .. متعسر حبتين، أومال فين حبيبكو التالت.

نظر الاثنان لبعضهما في تشتتٍ على عكس ما جاء إليه الرسول، أقرَّ بالمخبأ عيانًا في وجود الجمع .. رفاق الزمن القصير، ودهستهم الصدمة المُوقرة.

- الخِطة فشنك والتاني بالسلامة، اللعب مع التجار أحلى وأمتع، وباعتين الزمبلك مرسال للوصال.

تمرَّد الضاحي وتغيبت نظرته:

- إنجز يا عِكر، واتكلم بسرعة.

ابتسم ثغره كهلالٍ:

ماشي يا معلم ضاحي، الرسالة كالآتي:

- "شغلك الفترة اللي جاية كله تحت رعايتنا، كل حركة إنت خطيتها محسوبة، أوعى تفكَّر إنك بيَّاع بجد، كل ده مرسوملك من يوم ما رجلك حطِت ع الشط، كل طُعم إترمالك بلعته، رمينالك الشبك وطلعت زي القرموط بتلعب، اللعب خِلص

وسلامة روحه طوَّلت جواه، خطّطلِنا موتة تليق بيه". وصلها للبياع بمعرفتك وإديني ختم علم الوصول، أستأذن الجميع.

غادر مُرتحِلًا، في اتساع البسمة واستلام الرد، في رغبةٍ واجبةٍ للإبلاغ عن انتهاء مُهمته وقُرب فناء الماضي، استهَلَّ التجار الخبر بوعيدٍ، ضمَّ البائع أصبح حقيقةً قابلةً للتصديق، العنترية الجهورية اتخذت منبرًا بفم رضوان الجيَّار وعربي النحَّاس بعد أن تنيَّحت خباياهم إلى الأبد بموت سلامة عسران دون إقحام لجهودهم، حلَّقت طيور الارتياح، علت الوجوه وزفر كلٌّ منهم الطمأنينة الحيَّة.

علِم عسران بالنوايا من عيونه المُنتشرة؛ فتثاقبت الألسن وتبادرت النفوس الخبيثة على إخباره بما جرى، فتهيأ لتغيير خطاه، قدَّم المشيئة، عزم بملء إرادته على تنفيذ ما أراده اليوم وليس غدًا، أبلغ خلاياه داخل السجن بخِطته الشيطانية، فتجاذبا الخبر وتحينا التوقيت، اتقدت عيونهم ولم تجفل، خرج أبو صيرة من زنزانته صبيحة اليوم الثاني في حِلٍّ من الراحة، فالتهمته النفوس المُتربصة، اقتربت منه الشفاه النهمة، دخل إلى قضاء حاجته، دخلا وراءه بعد عقص التتبع، تذاءبا عليه كالغزال الشارد، استشعرا الاقتراب، فعاودا السبَّ، اشتما منه الحنق فلاذوا بالأخيرة، وضربوه ضربةً كادت ترديه سائغةً، فقفز عن تراشق اللطمة وإعادتها بتسديدة ملاكم عتيد، فتجمَّعت الأيادى والتحمت الأفواه تنهش من ضعفه وتخرِق هيبته لإرهابه، ثم انقضا عليه كالجبال الجاثمة، وطفقا يخصفان أنفه إلى أن تهشمت من جذرها، قبل أن يفترش

الدم حول منبعه ويحوم كالبحر الثائر ويزداد غياب وعيه بكثافةٍ بالغة، هربا إلى الحياة بالخارج وهو يجابه الموت جوار الأبحر الحمراء.

سريعًا ما جاءت الاستغاثة، نُقل إلى مُستشفى السجن التي لم تحتوِ ألمه، فخرجت الإسعاف إلى منهَلها الرامي تداعب الطريق بخِفة، تحمل صيدها الثمين ذا الأيام الأولى في محبسه الشاقة أيامه، وما إن مضت الإسعاف تحبو مُبتعدةً شيئًا فشيئًا وتلوح بالاندثار في جوف الطريق، حتى توقفت وتوقف زئيرها وتلامس جسدها بجسد الصمت، أُفتتح بابها الخلفي ودخل منه ثمَّة رجالٌ مُلثمة الوجوه، تُرِك الجميع دون ثمَّة مواجهةٌ تُذكر سوى من رصاصاتٍ طائِشةٍ وما أبقوا سوى الأثمن.

تحفظا عليه إلى جوارهم، نُقل إلى سيارةٍ سوداء، أغشت عيناه في ترفقٍ، جمدت أوتاره، نزيف الأنف يتوقف والألم يسري كالوباء، غارت السيارة قِبالة الساعة ومن بعدها توقفت فجأةً، خرج على ساقيه ينعي الحرية داخله، إلى أن مس أنفه المكسورة رذاذ الهواء، فابتهج لإحساسه وتمنى مكوثه، شُدت رباطة عينيه على رؤية عزيز مُتعسِّر قليلًا ليلقىَ بأم وجهه .. سلامة عسران.

(١١٧)

دقَّت طبول القبول، خفُتت أيام الهُدنة الرفيعة، أتت النهاية الصلدة، وإن طال بُعدها، وإن بعُد الميعاد، لا بد للشمس من غروبٍ، والمغيب من هروب، الأيام حركتها قاتلة وثأرها مؤكد، لا شيء يترك للعدم هباءً قبل أن يستوفي الشروط، وشروط "الاستيفا" الآن مؤكدة.

بعد أن التقى النمر والخاطي أبا صيرة، تجاذبوا الحديث كبؤرةٍ حارقة، استمع الجميع لأخبار البائع وراحت سيرته تنتشر كالسُّم من منبعه، لم يظنا أن يلتقيا به وجهًا لوجهٍ، عندما رمى ضاحي كلمته إلى رفيق محبسه وكأنَّها الدعابة، تمنى أن يكون خارج السجن كي يشتري من البائع جريمةً يقضي بها على شرور التجار وسلامة، مَن وضعوه مستقِرًا في جلسته وهم يتناوبون اقتناص الحياة! مَن انتزعوا الأرواح من مدفن جسدها وجعلوا منها أجسادًا خاوية، تمثَّل له عبد النبي وزوجته كسبيل للانتقام، اقترب أتون الرحمة أن ينفجر باستقبال المُخلص، وجاء المُخلص بلا دراية أن الانتقام له أولى.

- مش قولتلك يا خاطي دعوتي مُستجابة، فاكر لما قولتلي إنت بتحلم، وإيه اللي هيخليك تشوف البيّاع؟

- أنا مش مصدق اللي شايفة!

- دعوة المظلوم يا خـاطى البِرك.

- البيَّاع بنفسه هو اللي جالنا وإحنا محلك سرّ، قدرته (وجه كلامه للبائع مُستنفِرًا) سيرتك دوَّبت عقول، إنت مين؟

- أنا مظلوم، أنا بريء، معملتش حاجة.

- حقك، والأحق تفرح إنت علامة وتزييلها صعب قوي، المفروض تفخر بنفسك مش تتدارى زي الخاطي. إقعد .. إقعد، قعدتنا سوى هطول ولساك هتفشي وهتبوح بالسر الإلهي، أولكشي .. اسم الكريم إيه؟

(بتردد مهيب صمته، ارتفعت عيناه على رأس ضاحي النمر، نطقها مُتقطعة):

- فايز .. فايز عبد النبي .. السعدني.

نظرا الأسدان لبعضهما البعض في بهوتٍ، كادت تخرج الأعين من محجريها مُرتدةً، أصاب الذهول أم الرؤوس فاصطكت الأعناق في وجومٍ وتكبَّد الصمت عناء الاستمرار والجمود، بعد نظر استدام وخيوط عانقت الرقاب وكادت تقطفها، استند الهيكلان على حجر التعقُّل بعد أن ذاقا الفناء بألسنتهما فمادت المرارة بالأحلاق ولواذع الإدراك تخفقهم، لم يظن أبو صيرة أن تجتمع الخصوم وهي على أهُبة الرحيل، تعارفا بعدما عزفا لحن الزمن المريرة تبِعاته وتمَلصا من الماضي وكأنَّه شريد التواجد، تناوبا النظر إليه وهو في عجبٍ من أمره لحالهما، فرَّ الصمت وحلت نوبات التفسير، فسردا له كل شيءٍ جيز قوله، لم يستطع إلَّا لثم كفه وانبطح عليهما ضربًا يطرب الآذان، تمددا كوعاءٍ مُصمت لا حياة فيه ولا روح تسكنه، أتى الاعتذار مقصد، بصق في وجههما وتفرَّد

بذاته، مرَّت أيام حتى أقنعاه بالثأر له، ولكن بمُساعدته! تعجَّب مكرَهًا، لاذ بالصمت مُحترقًا، حتى توقَّع الغدر من قاتلي أبويه؛ فاستعاذ وتفل ووافق بشروطٍ أولها أن يخرج هو ليقتص من الأوغاد، أرسل الخبر للعسران في لحظاتٍ، وقدَّم المشيئة قبل إبرام صفقة الاصطياد، تلك التي لا تخيب فعَلها من قبل مع عبده وزوجته، عدَّ عتاده واستعاد البائع من فكّ محبِسه ببراعةٍ، وهو لا يعلم أنَّ فكَّ المحبس لا يطفح إلَّا أنيابًا حادة، وكأنَّه أخرج الأسد ليفترسه.

- حمد لله على سلامة الخفاش.

- إنت مين؟

- مش مهم، المهم إني نجيتك من سجنك، السجن ليك خسارة، إنت كنز، المفروض نمسكك قسم ونستفيد من خبراتك الجبارة.

- آه، الحاج سلامة عسران .. صح؟

- حاج، هاهاها، يسمع من بُقك، تخلص حكايتنا ونضربلنا ورقتين عُمرة من الواد فيش، بكره أعرَّفك عليه، الواد ده إيديه تتلف في حرير، الورق عنده بيطلع أدق من الأصلي، هيخلصلنا شغل كتير.

- يخلصلنا!

- إيه ده؟ وإنت مقولتلكش! يقطعني! هو إنت فاكر إني هجازف وأهربك أونطة؟ إنت من يوم ما خرجت وإنت بتاعي .. ملكي، أنا لو كنت قابلت زيك من زمان كنت بقيت في حتة تانية.

ابتسم وجه البائع في شيءٍ من صلابةٍ واستقر كلامه في داخله:

- إنت اللي بتاعي، ومسيري أوديك مكان أحسن، في حتة تانية خـالص، محدش بيهرب من قدره.

- إنت روحت فين؟ لا ركز معايا، قدمنا حوارات ياما.

أفرز فلسفته جرَّاء معاناته، فنطقت حواسه:

- معاك، علطول هبقى معاك زي ما كنت زمان معانا.

(١١٨)

النهايات العظيمة دائمًا يعظم أثرها التُّريث، القصاص قادمٌ بلا تثريب، فليغفل المظاليم زمانًا وليطمئنوا؛ فالظلم تبيانًا شأنه عاليًا، لا يغفل الحق والدعوة لا راد لها إن صعدت، فقط تدبَّر الترتيب. دبَّر المكيدة بأنفاسٍ مُضطرمة وكأنَّها الأخيرة حقًا، وكأنَّه يشتري الجريمة ويبيعها منه إليه، هذا شرف الأيام الراحلة، ثأر أبيه، فزع أمه، غدر صاحبه، بؤس أخته، فراق حبيبته، في يوم ذكرى رحيل والدته وفي اليوم السابع كما وافق مرضها اليوم الحزين،انتشرت خطته كالتاريـخ في عهده السابق بلا ثمَّة تغييرٌ ولكن الجميع لا يقرأ الماضي جيدًا ولا يتتبع الآثار، أسفل موائد القدرة ينخر السوس بلا شفقة أو خوف، كذلك بعد أن دُفن

التابوت فلا حاجة لما داخله، الموعد الفاصل .. باب العزب، القلعة، أفضل موقع يرد الروح، كما حدث منذ عهدٍ بعيدٍ، انتقلت الفِرق، يتقدَّم الأشهاد سلامة عسران وينتصف رضوان وعربي الساحة، أمَّا أبو صيرة فهو من مرصده مُتابع جيد، بعد أن تحقق شرطه الثاني اليوم؛ وهو حضور عادل شداد العيرة، دخل عليهم في ضوءٍ من الفُحش الغني، تباهي بزينته البرَّاقة، نفَّذ أمر سيده سلامة عسران، أتى زحفًا ليُنهي الشتات بين الفريقين ويتجه بعدما حدَّث اسمه من فيش إلى وجهته البعيدة، علم بوقتٍ سابق ما ينتوي أبو صيرة فِعله، الفخ المدبر بالاعتراف عليه، فاقترب ليمَحق آثار وجوده من الأيام، قبلما يتتبع أثره اعترافات البائع، لا يعلم أنَّه على بُعد خطواتٍ منه.

ازدهر المكان بوجود الجمع مرةً أخرى على دفتي الميزان، اقترب سلامة من رضوان وفي وجهه ابتسامة الغدر محفورة، تحدَّث قبل أن يتحدَّث الحجر الأصم ويسرد تاريخًا مضى، نظر حوله ونفث دخانه في زهوٍ واضِعًا إبهامه في طرف شق جلبابه عند صدره.

- لميت عكك يا حاج رضوان، زي ما لميتهولي زمان، أظن كِده خالصين.

لم يتفهَّم التجار، فرمى عينيه على فوهة باب العزب الشاهقة، فتجمَّدت ألسنتِهم وانتفض الدم منها كالبرق الخاطف للأعين، ابتسم سلامة عسران لذهولهما، نشر في نفوسهما الرهبة قبل الحديث بتمهيدٍ غزيرة هيبته، ما زعزع استقرار مآقيهم، وتفسَّدت

خِطتهما معًا، أمَّا ذو الوجه العيرة فلا حياء يعلو وجهه أو تذبذب فما صبَّر جزعه غير اقتراب الهِجرة.

(١١٩)

عُلِّقت رؤوس الأموات الثلاثة بلا رادع سالم، وحلمي، ومجاهد ظلت الوجوه مشدوهةً لمرآهم، شد الخيَّاش أجزاءه تحفّزًا مطلوبًا لإنهاء الجلسة بهدوءٍ، الخِطة كانت مُدبرةً بعدما أحضر الميَّاس تحركات التجار وسلامة والعيرة كلٌّ على حِدة، خرج البائع من مرقده ومدَّ خطواته ثم أبطأ عن الاقتراب، تفرَّست الأوجه في خطواته بعد تركها للرقاب المُعلقة، ربما تجاوز الاستيعاب صدر العقول، تحدَّث النحَّاس لرضوان في جملة:

- يا نهار إسود، البياع!!

سمِعها البائع؛ فوجَّه كلامه للجميع:

- فايز عبد النبي حسين السعدني .. بيَّاع الجريمة، اللي إنتم عملتوه بيَّاع بعد ما سيبتوا أمه تموت، وقتلتوا أبوه، وما همّكوش ولاده، دلوقتي جاييلي عشان أحميكوا من بعض، وكل واحد فيكوا جاي يتفق معايا من ورا التاني، متقلقوش أنا هخلصكوا من بعض، وهتسلمولي على عبده عشان واحشني. على رأي الخرَّاص الله يرحمه والخاطي الله يفك سجنه وضاحي اللي وعدته أجيبله حقه .. واتفرقوا الأحباب!

قالها وثبَّت نظره على عيني صديق عمره .. العيرة فوكزه غدره، كاد يتحدَّث العيرة لولا إشارة البائع بكفه التي أخمدت توقعاته فلملم ذيله وتجرَّع الندم قبل أن يتكبَّد تبِعاته. استلقى سلامة على وسائد خاويةٍ فانزلقت قدمه اليُسرى إثر رصاصةٍ كانت له من فوهة الخيَّاش واجبة النفاذ، ما دفع عزمه لإشهار سلاحه استشعارًا للخِسة والغدر في حضرته، فأجهز على الزناد قبل أن يصوِّبه تِجاه التجار، فأفضى ما يحويه كاملًا في صدر رضوان الجيَّار وعربي النحَّاس، سقطا كريحٍ غاضبة يزيّن الدم أجسادهم ويشفّها بمهارة غير مُعتادة، وما لبث الخيّاش يبدأ في التصويب تجِاه سلامة مرةً أخرى ليلقى ما يستحِقه، اتجهت فوهة سلاح سلامة إلى البيَّاع لابتلاعة كما فعل بوالده من قبل ولكن... جاءت رصاصة العيرة المُخلِّصة فوافقت قدرها في كبد الخيَّاش؛ فسجد مُعبرًا عن نزيفه واستشعر اقتراب الأجل، جرى الميَّاس إليه كالممسوس واحتضنه بترفُّقٍ ما عرفه بحياته، زفر آخر قطرات روحه بين يدي الميَّاس قبل أن يشيِّعه الأخير بنظراتٍ كادت لتعيد إلى الصريع روحه، وقبل أن يقبض عزَّاه بكلمة.

- أول مرة أحس بيها في روحي .. غلغلة السكين، معقول مش هشوفك تاني يا أعز صاحب، إبعد عن الطريق دي يا ميَّاس لترقد رقدتي، أوعاك تخيّش، فاكر كلامك .. هاهاها، محدش هيقولهالك تاني .. عِرقك ونَّاس يا ميَّاس.

زفر مع كلمته روحه، صعدت سماءً في خِفةٍ، مات كما عاش زائفًا، وراح ضحية التخييش كما حدث معه منذ عهد. امتلأ وجهه

بدموع صاحبه، وما كاد ليتركه إلَّا وانبسط على الأرض الصلبة تماويج العسكر وتفاريح النهاية، لم ينفلت سوى البائع، أمَّا الجمع بثُلتهم في أحضان القبضة، بعد أن تركوهم لعِدتهم يخلصوا أنفسهم من شعث العذاب، تلك العملية التي سمَّاها الدَّكر "مذبحة القلعة الحديثة" قبل أن ينقض عليهم بنفسه يلثم خده ويزفر دخانه بهدوءٍ .. كما اعتاد.

(١٢٠)

لا يبدو على وجهه الاستعجاب أو تباشير الفرحة، ربما استقر على حدوثه في قرارة نفسه، هل يعود ذلك إلى ثِقته الزائدة بنفسه؟ أم خطة مميزة حكمت المشهد؟ تربَّع مُصطفى الدَّكر على عرش الترقية بنجاحٍ؛ إذ نجحت خطته بالاتفاق مع فايز السعدني، عندما ذهب إليه في زيارةٍ سريةٍ وأبرم العقد معه بعد إقناعه بالسعي لبراءته إذا تم الإمساك بالبائع الحقيقي، العقد كان بالمُساعدة على الهروب – مقابل عهد لأبي صيرة " بإسقاط الأوجه جميعها "؛ فتهلل وجه الدَّكر .. القضايا المسكوت عنها والمحفوظة ستنتهي على يديه – بعد أن أفرجت التحريات عن خطة سلامة عسران الشيطانية لهروب البائع والاستعانة به لتنفيذ مخطط "مذبحة القلعة الحديثة"، وتكلَّف الدَّكر عناء مواجهة الانتقام، ربما ستختل الموازين عند معرفة البائع .. أبي صيرة على حقيقته، إنَّه ابن مَن

قتلوه، وسيستفيد هو بالتأكيد من تلك البعثرة، اختلال الموازين مُربك، سيأتي بمفاجآتٍ.

بالفعل كما خطط .. شاهد الأوجه وهي تتساقط كما آل بيته من صِغره للسقوط، اللعبة أشهي حينما تكون بنفس التكتيك، الحرب من أسباب نجاحها الخِدعة. الشروط التي وضعوها بإحكامٍ كان أولها التنفيذ بنفسه لضمان السعي على خروجه، وثانيها الإصرار على حضور العيرة بنفسه، تم الموافقة على الشروط والخِطة تحرَّكت كما دُبِّر لها، وكان من ضمن الخطة القبض على الجميع بما فيهم أبو صيرة، ولكن عندما تكشَّفت الستائر لاذ بالفرار كأن لم يكُن، تم القبض على العيرة، وسلامة عسران، والميَّاس وتم التحفظ على جثامين الضحايا.

لاح في الأفق مُبتعث الحقيقة؛ سلَّم أبو صيرة نفسه بعد يومين، أقرَّ أنَّه كان يزور ماضيه قبل تنفيذ الحُكم، أوُدع سجنًا وتم إعادة مُحاكمة المُتهمين، بعد إعادة المحاكمة جرَّاء ظهور دلائل تنقض الأحكام المُعلنة، سَطعت كالشمس في أوجها .. براءة أبي صيرة، وأشارت الدلائل بكامل أصابعها إلى العيرة كبائِعٍ، وسُجن سلامة كضلعٍ عتيدٍ والميَّاس مُشتركًا.

تحرَّك البائع مُستنشقًا عبير البراءة وكأنَّها الصفحة الأولى في حياته، لم يمضِ يومان وخرجت قوةٌ عظيمة الشأن لتفتيش محل المؤن الخاص بالمعلم سلامة عسران وبعده تِباعًا رضوان الجيَّار وعربي النحاس بعد أن أتت إشارةٌ لمباحث القسم بأنَّ التجار يتناقلون جراكن المؤن بها المواد المُخدرة بدلًا من الطلاء، دهست

الأرجل قلب الحقائق وأخرجت أحشائها بتآنٍ .. فتلألأت الحقيقة ليلًا كوجه الشمس، تنوَّعت المواد المخدرة بين الإستروكس، الحشيش، والكوكايين.

عاد مُصطفى الدَّكر لمنزله بعدما ألقى ثقله أرضًا بالقلعة، خلَّف المجهود حدثًا جللًا، عاد لحياته مُتوضئًا بماء الرضا، صلى ركعتين ودعى لصديقه طه السيوفي وحدَّثه بأن يفخر لشهادته، تلاشى الغموض شيئًا فشيئًا حتى انجلى الأثر، خلال أيامٍ سيتم الحُكم على القتلة.

اقترب منه ابنه الأصغر عليٌّ جلس بأدبٍ، اقترب بهدوءٍ، جذبه بشدةٍ إلى حجره، أجلسه جلسةً حانيةً، ربَّت على رأسه بلا حديثٍ، ثم قرَّب فمه من أذنه: - هو إنت قبضت على كل المُجرمين يا بابا؟

- آه يا علي، عرفت منين؟

- صورتك في كل الجرايد وأصحابي بيقولولي باباك بطل.

- عايزك إنت كمان تذاكر وتبقى بطل، أوعى حاجة تخوفك من حد، طول ما إنت بتعمل اللي عليك ربنا هيقف جنبك.

- ما أنا عملت كده يا بابا، لما آسر طلب من الأبليكيشن يعمل كده في باباه ومامته، أنا نصحته ميبعتش الرسايل دي تاني، وميكلمش حد والراجل كمان نصحه بكِده.

- أبليكيشن إيه وراجل مين؟

- أبليكيشن "البيَّاع"، بتاع الجرايم، آسر صاحبي بعتلهم رسالة عشان يشتري جريمة يقتل باباه ومامته، عشان اللعبة

طلبت منه كده، بس أنا نصحته والراجل بعتله الرد على الأبليكيشن إنه ميفكرش تاني في اللي بيطلبه.

- قاله إيه بالظبط؟

- قاله الجريمة مش الحل، وإعمل حاجة كويسة ليهم قبل ما تموت.

- إنت معاك الأبليكيشن ده يا علي؟

- لا يا بابا، مش منزِّله طبعًا.

- طب حمِّله وهاتلي الموبايل.

(١٢١)

نفث في وجهه غُبار الظفر، نحَّى جُبنه جانبًا، اقترب إليه حتى آن أن يستشعر غليانه، اقترب أكثر فأكثر جوار أذنه، تحدَّثت إليهم أيامهم القاتمة، قاربت الأعين على الالتحام فاشتبكت الأشعة المتناثرة من أعينهم، طال اللقاء، ظنُّوا يومًا استحالة حدوثه؛ فجاءهم أسرع من البرق، اقترب إليه ومسَّ نفَسه، تحسس رطوبة صدره في جوفه، لامس زئيره، التصق أبو صيرة بالقضبان الحديدية التي لطالما بقى وراءها أو كاد يدوم للأبد، لفح هواؤه الدافئ في وجهه بزفرة أسقطت جفني – العيرة – قرينه، ثم بابتسامةٍ واهيةٍ وضحكة صدحت بأروقة العدالة:

- ليه كده يا بيَّاع، عملت كده ليه؟

تلَّون وجه الحبيس وانبعج، ثم استفزه الصمت، فاستزاد وصلصلت ضحكات الآخر، وبأريحيةٍ بالغةٍ مُباغتة رفع رأسه مع عبوره على جسد صديقه بحذرٍ:

- تخِسر.

قالها وأكمل ضحكته باستماتةٍ وفرَّ كجني عتيد، مُستسلمًا لبقائه غائبًا، في وسَنة خاطفة انمحى من المكان ومضى كلٌّ إلى وجِهته التي يستحقها.

ذهب لزيارة أبويه؛ دخل بقدمٍ تصيب وقدمٍ زاحفة، يسأل الأموات السلام، ويدعى بغُربةٍ تمتزج بوحشةٍ وفيرة، جرَّ أضلعه إلى هنا يقرأ الفاتحة على أرواحٍ طاهرةٍ، اقترب إلى مسلكه .. مدفن والديه، رفع يديه بحذرٍ، هل الدعاء يُقبل رغم انغماس الروح في وحل الشيطان؟ ربما، جائز، بالتأكيد، أراحه سؤال النفس ولطمَته الإجابة: "لله الحق، إنَّا إلى الله راغبون" قالها وهو في خضم الهدوء، وغايته المغفرة، سأل الله ربما يشفع له الراحلون وتأتيه الإجابة في جوف بيوت الفناء والعِبرة، استقام كوتدٍ، عزَّى نفسه بعدما أقرَّ لهما بأنَّ الحقوق رُدت فلينفرج القبر ولتتسع ضمته، فهل لدعاء الابن الفاسد استجابة؟

وعدهما بأنَّ يجد أخته كي ينقذها من كل خطرٍ يتلصَّص عليها، أبلغهما أنَّ حقها من العيرة قد أعاده بصلابةٍ، وحقها من زوج خالتها قد عاد أيضًا .. إن كان لها حق، وعدهما بترك كل طريقٍ آخره ظلام. أمَّا الكِنز فهو حقه، أبلغهما بشراء البيت القديم سبب المَهالك؛ ربما أصبح سبب المسرات الآن.

تنصَّل من حياته في لحظاتٍ، عاد لقبوه راكدًا كالماء في بِركته شاخِصًا للا شيء، يبحث عن كونه، وجوده سالبٌ دائمًا، يحتدم الأمر ويشذ الوضع في عينه .. إلى متى؟! كل شيءٍ سينتهي اليوم بلا أدنى شك، تصفَّح كل وجهٍ في غرفته يدينه أتى ليمَحقه، سيزيل الآثار عمدًا، ستتلاشى الدلائل ككذبةٍ، ويهش الآثار كحاوٍ نفَّض عن هيئته حقيقة الأمس، تداعى لرأسه مُداعبات الماضي، تذكَّر، غفل، تناسى، نسي، زال بيديه كل شيءٍ يوحي به كبائِعٍ، فتح جهازه ليُسقط تاريخه أرضًا بضغطةٍ، أثناء عمله الذي استمر ولم يخفُت، استلم إشارةً جاءت كوميضٍ، رنَّ الكمبيوتر الخاص به بنغمةٍ هو أعلم بفحواها، ولكن ما عاد الوقت في صالحه؛ فتح رسالته، استلمها، فضَّها على مضضٍ، إنَّه زبونٌ آخر يحتاج لشراء جريمة، أضـاء مصباح الفضول بنهمٍ ومضى يلتف حول الأيام الراحلة، انحبست روحه في حلقه جرَّاء كتم الأنفاس، ابتلع ريقًا تائهًا تصبب من فيه، وجم الوجه وانقشعَت الأفيونة في ممرات الدماء الدافئة..

DECLINE

"الدَّكر/ م و ت .. الحق قبل اللَّمة وإنت إزي ناسك"، ربما أخذه الفضول ليقرأ الجريمة قبل رفضها، قبل أن يكتب على الرسالة قبل إزالتها: "الجريمة مش حل، حاول تعمِل خير قبل ما تموت"، واتفرقوا الأحباب.

آخر كلمةٍ كتبها قبل أن يضغط إرسال، ويستلم بعدها رسالةً بسرعةٍ فائقةٍ "كلٌّ يترقَّب للآخر وينتظر فرصته"، ليصفق له الجمع المُلتف حوله في دائرةٍ بديعة، يتوسطهم مُصطفى الدَّكر وشريف سيف.

- مش قولتلك يا مُصطفى باشا، العيرة عمره ما يفكر بالطريقة دي، ولا يعرف يخطط "سم" تحت رجله، العيرة مش بيَّاع ولا يعرف يدبَّر كل الجرايم دي.

- عندك حق يا شريف باشا، أخيرًا البيَّاع بنفسه بيرد علينا، كنت شاكك فيك من الأول بس قولت أتأكد عشان مظلمَكش.

خرجت التشريفة من قبوِها للتو، قبل أن ينفرج وجه فايز السعدني على مفاجأةٍ لم يتوقَّعها في حياته، تلك نزعة الطيبة وبراعم الخير التى أوقعته في طيات أعماله السوداء، لم توقِعه جرائمه ولكن أوقعته النصائِح، وهذه هي شر البلية، تلك التكنولجيا النافقة التي أوردت خبلًا وجنونًا زائِفًا، هي التي صنعته وهي التي أوقعته.

حدَّث شريف سيف صالة التحرير لإدراج خبر القبض على "بائع الجريمة الحقيقي" خبرًا في الصفحة الأولى؛ لتتضح علامات

الذهول واجبة على تعبيرات البائع ويلثم شفتيه في حسرةٍ ورموشه تهتز كحركةٍ عصبيةٍ بائدةٍ.

(١٢٢)

أدغنت صرخاته فكمُد لونه، زأر كالأسد الجريح بعدما دخل إلى عنبر سجنه، سلامة عسران في جوف السجن أخيرًا، لقى الاسوداد في محيطه مثلما كان داخله، التقى الشركاء فضمهما العنبر مثلما ضمهما العمل.

- حمد لله على سلامتك يا عسران، يااااه، اتأخرت قوي.
- مين .. ضاحي؟!
- إزيك يا سيدي، ليك وحشة.
- الخاطي!

اقتربا في شيءٍ من حُمقٍ، والتوت أنيابهم حول ألسنتهم ككلابٍ جائعة، ابتعد سلامة في شيءٍ من حذرٍ، استشعر الغدر، تلاشت سَطوته كبريقٍ زائف، التوى ساقه فجلس كالمُنتظر، اقتربا وتلامَست عيناهما فغرهما السكون، وتفوهت شفاههما قبل الحديث، دققا النظر بتفحُّص حتى أعادا لعنات الأيام على عيناهما تِباعًا فتحدَّث النمر.

- أبو صيرة اللي إنت عملت في أبوه كده هو اللي جابلي حقي، وبنفس اللي عملته فيا هو اللي حاطلك الهايش وسط الصينية .. المخدرات لعبت جوه الجراكن، بس طلع واد جنّ ..

دكر، والأيام جابتله حقه منك يا سلامة، آه ونسيت أقولك فلوسي كلها اللي كنت هتردهالي بيع وشرا منك ليه، والكنز بتاع بيت عبد النبي رجعله .. أبو صيرة طلع مش سهل، وكل اللي وعدني بيه عمله، والبركة في فيش .. الراجل بتاعك اللي باعك، أنا اللي طلبت من أبو صيرة اللي هو فايزأشوفك قدامي حتى لو خد كل اللي حيلتي عشان آخد حقي بإيدي.

- لا .. لا، أوعوا الكيتامين ينسيكوا إحنا مين! لا يا ضاحي، أوعاك تنسى سيدك يا خاطي.

وكزه ضاحي في عمق فؤاده:

- هاهاهاها، تِخـــسر.

أكمل عليه الخـاطي بغِلٍ:

- أنا مليش سيد، أنا خاطي البِرك.

وما لبث اليوم يقفز على غيره إلَّا وقُبض على "سيد فيش" واعترف بكل شيءٍ كان ولم يكن، وغاب فايز في ضمة التحزُّن مُتثاقل وحدَّث نفسه بدلالٍ وبكـاءٍ:

- أنا عملت إيه، اشتغلت بيَّاع، ما كلهم بيبيعوا، أبويا باع البيت ورهنوا عشان يعالج أمي، والتجار باعوه عشان ياخدوا بيته، سلامة وضاحي باعوا صاحبهم للتجار، وجه ضاحي آمنله بعد اللي عمله، خد جزاته لما سلامة باعه وخد مراته، حتى مرات ضاحي باعته لسلامة، الخاطي ياما باع التجار لسلامة والعكس، كله بيبيع اشمعنى أنا اللي أتحاسب؟!، فين علية؟ باعت نفسها بالرخيص

عشان تعيش، فضحت نفسها عشان تتجوز اللي بتحبه، واللي بتحبه باعها لمَّا لقاها طمَّاعة وجاحدة، سرقها وهرب، وآدي خالتي باعت جوزها لمَّا اتجوز عليها، وقبلها باعها لمَّا كان عايز يخلف .. كلهم باعوا واشتروا اشمعنى أنا؟! على الأقل أنا اتجريت في الطريق ده عشان ملقيتش غيره بعد ما الكل باعني، لكن هما باعوا نفسهم ليه؟ وجنبهم اللي اشتراهم؟ حتى الصحوبية دلوقتي بقت بيع وشراء، عادل شداد الوحيد اللي كنت فاكره وقف جنبي باعني عشان مصلحته بعد ما سرقني واستغلني .. محدش يلومني دلوقتي على اللي عملته.

(١٢٣)

الصراع الدامي مع الشقاء واجب، والإصرار على مفارقته وفاء، والتكالب على الأحلام عزيمة، وفرض الورود على منبع الدنيا الواهي جريمة، فقر الجيوب يملؤه دفء الأوراق، فقر العقول يكفيه دفتر أوراق، أمَّا فقر النفوس يبعث الإشفاق، الكل يبحث عن نقصه في عيونٍ تنظر إلى نقصِها، الكل مغلوب على أمره وتستمر الشقوق دون وعي.

خطت لبهو فيلتها الأثيرة الساحرة، بعد هبوط الدَّرج الداخلي، اعتادت الاستيقاظ في تمام السابعة، قبالة حديقتها كانت الخادمة تنتظرها بقهوتها النرجسية العتيدة وسجائرها الرفيعة الأنيقة، يفوح من شذاها عطرها المُلهم، عادت بعد يوم عملٍ شاقٍ أمس،

لم تلتقِ زوجها إلى الآن؛ إذ لم يعُد من سفره، عاد للتو في شيءٍ من جلوسها متأملةً سنواتٍ مرَّت كفجوةٍ مُتسعةٍ، خرجت منها كما الشعرة، تناهي إلى آذنيها نداءات زوجها المُلتاع لشوقها .. شريف سيف، جذبها بحبٍّ تجاهه واستشعر دفئ هدوئها واستلم ضياءها على روحه وتهادى في الكرسي المجاور لها أنيسًا، يكمل حديث هاتفه مع أمه يحاكيها عن روعة الزواج، صمتت علية أو شاهي كمال، لتكمل مرآها في السنوات الثقيلة، شابهها ثمَّة دموعٌ لم تفُح على وجهها اللامع، ولم يطرب آذانها ثمَّة خطوات الأمس المُتلهجة إلى الضياع، فرط الثقة ذكَّاها على الآخرين، فرط الجمال ميَّزها عن المُريدين، أمَّا ضعف النسب فرَّقها عن الزاهدين، لم يهمه سوى مَن أمامه من يوم عملها الأول في الجريدة الأولى "أحداث اليوم" رآها شعلة نشاطٍ، عيناها تشِع من النهم الصحفي، الفضول البنَّاء، الجمال التصاعدي، الإشراق المضيء، يشوبها الأمل النافع لا السراب الضار، واقعية الأثر، شخصيتها متزنة فلا ترنو لسطحية تافِهة ولا تهجوها الهيبة المُريبة، صفح الثنايا بها معلن، مُجتهدة المَنهل فلا نضوب لشاطئها ولا خفوت، هواها آخَّاذ وعبيرها شذي، وما لفت نظره هو الأخير، لم يطُل الأمر أشهُرًا قصيرة، حتى تعارفا وعمِلت بالجريدة معه، وما نفِعها في الحياة سوى المزايا المُفعمة، ما حوَّل عملها إلى هنا مذيعة أساسية بقناةٍ عظيمة الشأن، وبرنامجها الأشهر "آراء حرة" الذي يرأس تحريره "شريف سيف".

- مالك يا حبيبتي، اللي واخد عقلِك.

- إنت طبعًا يا روحي.
- الحلقة إمبارح كانت روعة، ناوية تعملى إيه تاني؟!
- يعتِرف بس بكل حاجة .. أنا اللي ماسكة المَلف ده ولازم أكون أول واحدة تسجل معاه.

يرن هاتفها على ضوء استِلام رسالة: "القبض على فايز السعدني" بائع الجريمة.

فايز عبد النبي السعدني الشهير بـ"أبو صيرة " صانع الأبليكيشن الشهير "بائع الجريمة" بعد اعترافه بكل الجرايم وتزويره لاسمه، تم الحُكم عليه بالإعدام شنقًا.

تترك أناملها الهاتف بخفةٍ على المِنضدة البامبو المُطرزة، تتحدَّث وكأنَّ شيئًا لم يكُن.

- خلاص يا حبيبي، الموضوع انتهى.

الآن و أخيرًا إستشعَرت الطمأنينة بروحِها، بركان ماضي كان يطارِدها كشبح لا يخمد ..أطفأته، أنهَت على أخيها حينما أرشَدَت زوجِها عنه ليبلّغ المأمور بطرف الخيط السميك دون أن يعرف أحد أن له يد، كما أرسَلت للبائِع رسالة شراء جريمة قتل .. صابِر النردى، ثم أرسلتها لشادية جذبًا لطرف الخيط الرفيع.

(١٢٤)

تقرأ المذيعة الأنيقة النشرة اليومية بحذرٍ مشبوبٍ بفرحةٍ يُجوفها مسَحة حزنٍ، عدَّلت من وجهها، ارتطمت عيناها بفم العدسة الرئيسة، مسحَت نقطة مياهٍ تائهةٍ على وجهها، ربما كانت دموعًا تناثرت غدرًا، ثم التقطت المايك مرةً أخرى ووضعته مكانه، تركَها الجمع المُلتف غادرها، لا تعلم لِما ارتجفت! ربما التقت عيناها بالذكريات، أو شيء ممَّا قرأته، عدَّلت من جلستها أخيرًا، وبدأت قبل صراخ المُخرج.

- هواااااا.

- أصدرت محكمة جنايات جنوب القاهرة اليوم في تمام الساعة العاشرة صباحًا، حكمًا بتحويل أوراق القضية المُتهم فيها فايز السعدني الشهير بـ "أبو صيرة" وعادل شداد الشهير بـ"العيرة" وآخرين لفضيلة المفتي، كما تم القبض على أقطاب الجريمة المصحوبة باكتشاف آثار أسفل منزلٍ آيلٍ للسقوط بالقلعة، الجريمة ذاتها المعروفة بقضية تجار القلعة المُتهم فيها سلامة عسران، وقد تم إلقاء القبض عليه بعد العثور في محلاته بمسحوق الكوكايين داخل جراكن الدهان المُباعة.

تنهي المذيعة فقرتها المذاعة رسميًّا، ثم تلتقط منديلًا براحتها، تلطَّخ انفراجة صدرها واتساع فمَها إثر سقوط ضحكةٍ سهوًا، تدارى بين مَن يراها ما يُخبئ بداخلها، تهتدي لخطواتٍ تحمِلها مُسرعةً بالخارج، ليخفق قلبها أمام بابٍ خشبيٍّ فخمٍ، تتماسك

تبتلع روحها بصعوبةٍ، تدير الأوكرة بعذوبةٍ، تستقبلها عينا مَن يحتجزه مكتبه بعملٍ بالغ الذروة وما إن يراها ليتفوه، مُزيحًا عدسات نظراته الصغيرة بعفوية.

- مبروووك يا علية.
- الله يبارك فيك يا حبيبي.
- أظن كله تم زي ما كُنتي عايزه.

لتنظر له بابتسامةٍ مُصطنعةٍ، وتجلس في سعادةٍ دفينة، تسعى خلف ما تريده أو ربما ما لا تريده:

- شكرًا على تعبك معايا طول الفترة اللي فاتت يا شريف، من غيرك مكنش حاجة من اللي خططنالها هتحصل.
- تفتكري كده كل مشاكِلك اتحلت؟
- جايز.

(١٢٥)

رأي المُفتي أنَّه أيَّد الحُكم الصادر من جنايات الجنوب بالإعدام، في تمام الساعة السابعة صباحًا مع سحَلِه تجاه المِنصة، نُودي على قضيته وحُكمها الصادر في التاريخ المذكور من المَحكمَة ذاتها، لُقن بالشهادة عيانًا، سُئل بالسؤال الأشهر، مُستسلمًا للموت بقِدر رغبته في الحياة، في نفس توقيت ترديده للشهادتين مع إجابته بأنَّه لا يريد سوى الذهاب لوالديه، كانت علية في حديقتها الزاهرة الوارفة، ترشف قهوتها بيديها الثابتتين وهدوء

أعصابها الفولاذي مع نفث دخانها الثمين لتُبعثره في الهواء برقةٍ بالغة النشوى.

وقبل وضع الغشاء على عينيه، وضعت مَنشَفتها على وجهَها لتمسَح آثار غسول الورد العالق بمَسام وجهها الرطب، وعند انجلاء غسولها من على وجهها براق المظهر، دخل على منصة الإعدام .. مُصطفى بيه الدَّكر في جِهادٍ لوقف تنفيذ حُكم الإعدام في المحكوم عليه فايز عبد النبي حسين السعدني.

في غرفة مباحث قِسم الخليفة، جلس المأمور والفضول يأكل الجمع من حوله، تمادى الهاتف في استطالٍ وتشبثٍ والبحث الجنائي بتنسيقه مع الأمن العام في المديرية على أوج نشاطهما، محافظات ثلاث: الإسكندرية، الإسماعيلية، القليوبية، هناك على الهواتف خبرٌ جللٌ جلجَل الجميع؛ ظهور ثلاثة بائعين للجريمة تم تأكيد جرائم بحقِهم، تدبيرًا ومشاركةً وتنفيذًا، الخبر الذي أدى لإعادة فتح القضايا بأكملِها لإعادة التحقيقات بتوجيهٍ رسميٍّ من مساعدو الوزير، وبتكليف من وزير الداخلية، الأمر الذي استدعى البائع للتأكُّد من هويته، وقبول النقض المُقدم منه شكلًا وموضوعًا، فيما كان كُتب على ملفه " بائع الجريمة " إلى أن يتم التحقق من الهوية.